ساحر الكتب
رعب
رواية
شياطين السماء
علي باقر دشتي
بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION
الطبعة الثانية

جميع الحقوق محفوظة

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION

booklandkw
bookland.kw
www.booklandkw.com

إهداء

إلى صديقي القارئ النهم والمبدع في الأعمال اليدوية، الذي كان هو من بَذَرَ فكرة هذه الرواية وأهداها لي لأسقيها وتنمو لتصبح بين أيديكم، صديقي العزيز: محمد المؤمن، ممتن لدعمك الدائم الذي لن أنساه.

مقدمة

عند البحث عن معنى كلمة (هيماء) في المعاجم سنجد لها أكثر من معنى، والمعنى المراد هنا هو آخرها ذكراً في بعض المعاجم، فتكون اسم بنت تارةً، ويشابهه اسم هيام، الذي يفيد شدة الشغف بالمحبوب، وأصل الكلمة (هامَ) تفيد كذلك الضياع فيكون أحدهم قد خرج وهو لا يدري أين يتّجه، وبين معانٍ أخرى لفروع هام تأتي هيماء بمعنى الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهو المعنى المقصود هنا، فكان اختيار الكلمة مناسبة مع معنى الضياع كذلك، فأبطال روايتنا هاموا على وجوههم فلم يعرفوا على أي مصيبة هم مقبلون عندما توجهوا إلى الصحراء بهدف المتعة التي انقلبت وبالاً عليهم، عندما وقعوا بين أنياب شياطين الهيماء، فكيف الفرار وإلى أين؟!

البداية، يَرويها (أوس)

الصحراء الكويتية، أو كما نُطلق عليها (البر)، تتحول بشكل مفاجئ من أميال رملية نائية إلى مقصد ترفيهي يعج بالحياة والنشاط، يأتي هذا التحول مع تغير الفصول بالطبع، حينما يبدأ فصل الشتاء بإرسال هبات البرد الأولى إلى سكان المدينة، فيلبّون بدورهم النداء متسلحين بخيامهم وأدواتهم اللازمة، متجهين إلى البراري، ناصبين تلك الخيام ليترددوا عليها مراراً إلى حين عودة الفصل القاسي الملتهب. على الرغم من خلو البر من الأشجار والجبال فللتخييم في برّ الكويت أجواؤه الخاصة. بل إنني أجزم أن له متعة لا تحصل عليها خلال التخييم في الغابات، فوق الجبال والطبيعة الخلابة، البر له هيبته.

منذ صغري كان والدي يصحبنا إلى مخيم العائلة في بر منطقة المطلاع، إنه مخيم كبير يتكون من عدد لا أذكره تحديداً من الخيام الصغيرة فالأكبر، خيام مخصصة للنوم والتي لا يستخدمها صغار السن مثلي في ذلك الوقت، خيمة المطبخ، خيمة تجمّع الرجال، خيمة خاصة بالنساء، خيام صغيرة كدورات مياه، وهكذا تتوزع الخيام بشكل مربع تقريباً وفي المنتصف أرجوحة البر الشهيرة، يتم تفكيكها وتخزينها وتعود كل عام بصدئها وبلونها الأخضر الباهت الذي تصر البنات الصغيرات على إطلاق أسماء غريبة عليه لا نعرفها نحن الصبية، حتى إنني لا أذكر أي من تسمياتهنّ لذلك اللون الذي نصرّ على أنه أخضر فقط مهما كانت درجته. كان ذلك النقاش يعدّ قضية هامة في ذلك الوقت، أما في الوقت الحاضر فأهم قضية

هي التزام الجميع بأيام نصب وإزالة المخيم وتحذير المتكاسلين من الهرب، ثم هناك ملعب الكرة الطائرة والذي يعدُ بدوره الساحة المقدسة في أرض المخيم، كنا نلعب ونلهو طوال اليوم بأي شيء يقع بين أيدينا، طائرات ورقية وأنواع الكور والأرجوحة إياها وحتى التراب.

تمضي سيارة صديقي فراس نحو مخيمنا وأنا أميل برأسي نحو النافذة حتى تكاد جبهتي تلتصق بزجاج النافذة الجانبية، وأنا أتأمل أضواء المخيمات وسط سواد البر في الليل، أتبسّم لا شعورياً مع تدفُّق ذكريات مخيم الطفولة، بعدما يحل الظلام يأتي دور لعبة الاختباء، فيغمض أحد الأطفال أو اثنين منهم أعينهما ويقومان بالعد حتى رقم معين بينما يهرع البقية للاختباء في أرجاء المخيم، ثم يفتح الصيادون أعينهم ويبدؤون البحث، من يتمُّ العثور عليه أولاً يكون الصياد في الجولة القادمة. اختفت الابتسامة من وجهي ذي الملامح السارحة عندما تذكرت ذلك اليوم، بدأ الصيادان بالعد وبدأنا نركض للاختباء بحماس، يجب أن أجد مكاناً مبتكراً هذه المرة فلا يجدني الصيادان إلّا بعد أن يجدا كل الأولاد، أو بعد أن يُناديا باسمي معلنين فوزي الساحق على الأولاد في نهاية الجولة، فأظهرُ متبخترا كأفضل لاعب بينهم، ذلك هو الفوز الأعظم في اللعبة. أخذت ألتفت يمنة ويسرة لإيجاد أفضل مكان والأولاد يختفون الواحد تلو الآخر في مخابئهم. تقتضي القواعد أن يكون الاختباء داخل حدود المخيم وهنا بدأ عقلي النشيط بالتفكير ليصل إلى حكم نهائي في عدة ثوان، هل تعدُّ تلك الغرفة البعيدة المصنوعة من ألواح الخشب والتي تخبئ داخلها المولد الكهربائي الذي يعمل على وقود الديزل من ضمن

حدود المخيم؟ بالطبع هي كذلك، المولد الكهربائي أهم جزء في المخيم أصلاً، ورأيت نفسي أركض نحو تلك الغرفة بعد أن اختبأت خلف إحدى الخيام أولاً، فمن المهم ألّا يراني بقية اللاعبين كذلك، سيكون انتصاراً ساحقاً كما قلت.

يزداد ضجيج المولد الكهربائي كلما اقتربت من الغرفة، لها بابٌ لم يكن مقفلاً كما هي العادة في أوقات تجمع العائلة في المخيم. تضاعفَ الضجيج فور فتحي للباب فرفعت كفيّ لأغطي بهما أذنيّ حماية لهما من الإزعاج لهوان قبل أن أعتاد الصوت العالي. كانت أول مرة أدخل فيها تلك الغرفة، المولد الأخضر كانَ كبير الحجم وأطول مني في ذلك الوقت. وقفتُ أتأمله حتى نسيت أمر اللعبة برمّتها، لم أتوقع الحجم الهائل لهذا المولد، قلب المخيم النابض، أو الصارخ بضجيجه الذي يصم الآذان، إنّه مختلف كثيراً عن مولد مخيمنا الحالي الذي نتّجه إليه، بهذا كنت أفكر وأنا مستغرق في تلك الذكريات، فالمولد الحالي أصغر بكثير نظراً للفارق في الحجم بين المخيمين. وبعد مرور سنوات عديدة تطورت المولدات فأصبح بعضها صامتاً إلى حدٍ ما، لا يثير الكثير من الضجيج كالمولدات القديمة، يستطيع شخص واحدٌ أن يحمله، بينما ذلك المولد العملاق كان مثبتاً على قاعدة تحوي عجلتين ومقبضاً حديدياً في المقدمة ينتهي بقطعة خاصة يتم تثبيتها على قاعدة الجر الخاصة بالسيارة، فيتم سحب المولد بالسيارة أثناء نقله من مكان إلى آخر.

مرت الدقائق وأنا أنتظر نداء الرفاق حينما يعجزون عن اكتشاف مكاني، يخطر ببالي فجأة أنني لن أكون قادراً على سماع ذلك النداء بفعل صوت المولد، فأسترق النظر من الفتحة بجانب الباب،

كانت واسعة بشكل كافٍ لأرى خلالها جزءاً كبيراً من المخيم حين ألصق وجهي بها. بقيت دقائق على هذا الحال حتى مللت الانتظار، بعد هذا الوقت لا بد أن الجميع قد خرجوا من مخابئهم، لم يخطر ببالهم بالتأكيد البحث عني في هذا المخبأ البعيد، لا بد من الخروج والتسسل وراء الخيمة القريبة لمعرفة ما يجري، أبعدت وجهي عن الفتحة ومشيت خطوتين متجهاً إلى الزاوية المقابلة حتى أتمكن من فتح الباب والخروج، فحدث ما ثبّت تلك الذكرى المرعبة في عقلي إلى اليوم، لم يكن الفوز في اللعبة ولا ذكائي الخارق في اختيار المخبأ ما ميّز ذلك اليوم، لكن بعد الخطوة الثانية عرقلني شيئ ما، لا أعرف حتى اليوم ما هوا بدا كقطعة حديد بل كرجل أحدهم، فلم تكن صلبةً كالحديد حينما ارتطمت رجلي بها وسقطتُ على وجهي، لا يمكن أن يوجد في هذه البقعة شيء أصلاً، لقد تحركتُ في نفس المكان ذهاباً وإياباً طوال فترة اختبائي وكانت المسار خالياً من أي شيء! أدرتُ جسمي وجلست لأحاول أن أستوعب الحدث، وفجأة رأيت طيفاً أسودَ أو رمادياً يخطر خلف المولد، شهقت برعب وتوسعت حدقتاي وفي نفس الوقت كنت أحاول اكتشاف الشيء الذي تحرك، فقد علّمني أبي منذ صغري أن كل ما يرعبنا من أصوات وخيالات في الليل وقبل النوم تحديداً يكمنُ وراءهُ سبب منطقي لكننا فقط لم نكتشفه بعد، فاستجمعت شجاعتي ونهضت وقمت بدورة كاملة حول المولد، وكما كنت أخشى، لا شيء هنا، ولا شيء يمكنه التسبب في وقوعي كذلك.

بدأت أحس بالحرارة في رأسي رغم برودة الجو، لن أطيل البحث عن الأسباب المنطقية أكثر، ففتحت الباب وأطلقت قدميّ للريح

إلى أن أصبحت في منتصف ساحة المخيم، عندما بدأت أهدأ ثم استوعبت أن الصبيان قد توقفوا عن اللعب منذ فترة حين انتهاء تلك الجولة، وكانوا جالسين على الكراسي حول النار التي أوقدها الرجال وجلسوا حولها، يبدو أنهم لم ينتبهوا إلى عدم وجودي بينهم، فربما ظن الجميع أن مخبئي انكشفَ وخرجت أنتظر انتهاء الجولة حين يكتشف الصياد جميع المختبئين ويعلن عن انتهاء الجولة، وكانت تلك الجولة الأخيرة.. ثم قرروا الجلوس مع الكبار حول النار. اقتربتُ بهدوء وجلست، لم يسأل أحدٌ عن مكان وجودي في تلك الفترة، استنتاجي منطقي إذاً، يتصرّفُ الجميع كأنّ شيئاً لم يكن. ظللت صامتاً والرعب لم يغادر قلبي بعد، لكنني بدأت أهدأ تدريجياً من دون أن أنطق بكلمة عمّا جرى لي، ثم قررت الاحتفاظ بذلك لنفسي، لا أريد أن أكون ذلك الجبان الذي وجد لنفسه مخبأً ثم أصابه الرعب وبدأ يتخيل أشياء تجعله يهرب عائداً إلى الجميع، سأصبح أضحوكة لفترة، ولن يأخذ أحد ما رأيته في تلك الغرفة على محمل الجد، ولم أعترف بما حصل لأحدٍ حتى هذه اللحظة، لكنني أتهرب دائماً وأبحث عن أي حجة لكي لا أتولى مهمة إطفاء المولد الكهربائي في المخيم ليلاً قبل أن نغادر أو قبل أن ننام في الخيمة، أو على الأقل أبحث عمن يرافقني ولا أذهب لوحدي، فلا أحد يضمن لي عدم تكرار ما حصل ذلك اليوم.

لم أستفق من شرودي وتخيُلاتي إلّا مع اهتزاز السيارة على الجادة الترابية بعد مغادرتنا للطريق السريع. مخيمنا بعيد نسبياً ولا يوجد بالقرب منه الكثير من المخيمات، حيث اتفق الرفاق على ضرورة اختيار مكان هادئ بعيد عن ضجيج بقية المخيمات، فلا

معنى للتخييم في منطقة تعج بالمخيمات القريبة من بعضها حتى تكاد تبدو كأنها قرية مكوّنة من الخيام، فيشكّ المارّ بها أنها ليست مخيمات مؤقتة، بل بيوتاً دائمة، وربما يعتبرها بعضُ الناس ظرفة ولا يصدّقونها، لكن هذا قد حدث بالفعل. فصديقنا منصور الذي كان يدرس في الولايات المتحدة الأمريكية وبعد تخرجه بفترة زاره أحد أصدقائه وهو أمريكي الجنسية في الكويت، كانت تلك أول مرة يزور فيها الأمريكي الشرق الأوسط، وبما أنهم كانوا في فصل الشتاء فقد اصطحبه منصور إلى المخيم بعد خروجه من بوابة المطار مباشرةً، وبعد عدة ساعات ذهبوا إلى المنزل حيث كان منصور قد أعدّ غرفة الضيوف لإقامة صديقه الأمريكي. فقط عند وصولهم البيت سأله الأمريكي عن سبب الاختلاف الشاسع بين المنطقتين، ولماذا يسكن ناس في الخيام رغم امتلاكهم سيارات فارهة، فانفجر منصور ضاحكاً قبل أن يشرح له أن المخيمات للترفيه فقط ولا أحد يسكنها. يستذكر منصور تلك القصة في كل مرة أعارضُ أنا فيها نصب المخيم في موقع بعيد جداً، فرغم أنني أستمتع بالهدوء وبرؤية النجوم ليلاً بعيداً عن التلوث الضوئي، إلّا أنني لا أجد تلك المميزات تستحق عناء قطع كل تلك المسافة كلما ذهبنا إلى هناك.

مرت بضع دقائق قبل أن نصل إلى المخيم، المكان مظلم تماماً، جرت العادة أن نأتي قبل الغروب، وهو ما أفضله رغم معرفتي بالمكان، لكن الوصول في النهار ومقدرتي على رؤية كل شيء تحت ضوء الشمس يبعث شعوراً بالدفء، على عكس الوصول في الظلمة الحالكة وإيقاف السيارة في مكان تمركز المولد الكهربائي الصغير الهادئ، فمخيمنا الصغير لا يحتاج إلى مثل ذلك المولد العملاق

الأخضر المرعب، فنحمل المولد معنا في السيارة ولا نتركه عرضة للسرقة في البر. توقّف فراس تاركاً محرك السيارة يعمل وإنارتها موجهة إلى موضع المولد، فترجلنا من السيارة ونحن نحمل المولد الموضوع في مؤخرة سيارة الدفع الرباعي لنوصله بسلك الكهرباء ونشغّل المولد. عملية سهلة وبسيطة مع هذا المولد المتطور، إنه يُنير المخيم بأضوائه القليلة إنارة خافتة شاعرية تارةً ومرعبةً تارةً أخرى، ثم نبدأ بوضع قطع الخشب في حفرة الموقد لإشعالها. بقية الأصدقاء سيصلون بعد دقائق فقط، بعدها تبدأ ليلة شتوية جميلة نهرب من بردها بالتجمع حول النار والتسامر قبل تحضير العشاء وشواء قطع اللحم والدجاج المتبل. لم يكن الوصول في وقت متأخر نسبياً يشكل مشكلة لأننا سنبيث ليلتنا هنا ولن نعود إلّا بعد يومين كما يفعل الكثيرون في عطل نهاية الأسبوع. كم أعشق النوم في كيس النوم داخل الخيمة لأستيقظ في الصباح لاعناً النوم غير المريح! بيد أن هذا الشعور بعينه هو ما يعيد إلي ذكريات المخيمات الشتوية ويشعرني بمتعة قضاء ليلة برّية ليست كالليالي التي نقضيها بعيداً عن بيوتنا في فنادق فخمة راقية. النوم هنا يغير الأحلام نفسها، فتكون مغيرة أكثر من المعتاد، هذا ما يحدث معي على الأقل.

كما هي العادة ما إن نصل إلى المخيم حتى نقوم بفتح أبواب الخيام التي نكون قد أغلقناها بالحبال الصغيرة المثبتة على أطرافها ليتجدد الهواء داخل الخيام ونلقي نظرة على الموجودات غير الثمينة لكنها مهمة لبقائنا في المخيم، كبعض الطاولات الصغيرة والمفارش الأرضية وغيرها من تجهيزات المخيم. وكما هو متوقع لم

يظهر بعد ذلك اللص الذي يبحث بعيداً عن بقية المخيمات عن مخيم صغير لن يجد فيه أي شيء يستحق عناء السرقة. أمّا التجهيزات الأغلى ثمناً فنحملها معنا حين نغادر.. منصور مثلاً يجلب التلفاز الصغير نسبياً وجهاز البليستيشن ولا ينسى كذلك جهاز الواي فاي المتنقل لكي يستطيع اللعب عبر شبكة الإنترنت، نستهزئ به قليلاً ونكرر كلامنا الناقد له مثل: وهل يأتي أحد إلى الصحراء لكي يلعب بألعاب الفيديو أيها الطفل الكبير؟ لكننا في النهاية ننضم إليه عندما نشعر بالملل، خصوصاً عندما نقضي أكثر من يوم في المخيم.

بدأ فراس يصفّ الحطب الذي كان مخزناً في إحدى الخيام ليشعل ناراً وسط المخيم، حيث الكراسي الحديدية الثلاثة التي يكفي كلّ منها ثلاثة أشخاص، وُضعت قطع الحطب على شكل ثلاثة أضلاع حول حفرة النار. نقضي في هذه الجلسة الكثير من الوقت من دون أن نشعر بمرور الساعات، ربما التجمع حول النار هو طبيعية بشرية، فالنار من أهم مقومات تطور البشر في العصور القديمة ولا يمكن الاستغناء عنها، وفي الجلوس حولها في الشتاء لذة غريبة لا تضاهيها لذة التجمع حول المدفأة الكهربائية مثلاً حتى لو نشرت الدفء في أجساد من حولها، ربما لهذا السبب تم تصميم بعض المدافئ مع محاكاة شكل اللهب لتعطي بعض إحساس الجلوس قربَ النار.

بقينا دقائق نتأمل انتشار النار تدريجياً في قطع الحطب من دون أن ننطق بأي حرف إلى أن قطع الهدوء صوت سيارة منصور. انقلبَ المزاج إلى الضحك، والمزاح بمجرد وصوله فهو شاب خفيف الظل، مزعجٌ بعض الأحيان لأنه يفسد الهدوء المريح الذي نستمتع

به في البر، لكن إن طال الهدوء وأصابنا الملل فالجميع يسألون عن منصور. مرت الدقائق سريعةً حتى وصول السيارتين الأخيرتين، جراح وعامر في السيارة الأولى، يتبعهما خالد قريب عامر، أكبرنا عمراً، فقد بلغ الثالثة والأربعين قبل شهر تقريباً، أما عامر فهو في الخامسة والثلاثين ويصغره جراح بسنة واحدة، ويسعدني أن أكون أصغر الأصدقاء عمراً هنا؛ فهذا يشعرني باكتساب خبرات أكثر كلما عاشرت من هم أكبر سناً مني، حتى وإن كان فراس صديقي المقرب لا يكبرني إلّا بسنتين حيث سيبلغ الثلاثين قريباً. أما المشاكس منصور فقد سبقنا إلى الثلاثينيات رغم أنني أشعر أنه أصغر مني وما يزال مراهقاً لا همّ له في الحياة إلّا البحث عن الحب، والغريب أنه يرفض فكرة الزواج، ليس لأنه في طور البحث عن حب حقيقي، بل لأنه يرى في الزواج تقييداً قاسياً لا يجب أن يأسره إلّا بعد أن يُشبع نفسه من حياة المغامرة والتهور، ولست أراه يكتفي منها يوماً ما.

تمّ إفراغ السيارات من مؤونة تكفينا ليومين هنا، لانضطر فيهما إلى الرجوع إلى المدينة، يتكفل هذا بإحضار اللحوم لعشاء اليوم، وذاك بإعداد طعام الغد وبعده. أما الأهم من الوجبات الرئيسية فهي الحلويات والبطاطس المقلية المعلبة وما شابه، والمشروبات بالطبع. لا أفهم سر انفتاح الشهية بهذا الشكل العجيب في المخيم! أهو بسبب البرد أم شيء غيره؟ المهم أنّ أحداً لم ينسَ شيئاً مهماً كما يبدو، لهذه الليلة على الأقل، فغداً يمكننا شراء أي شيء ينقصنا من شاحنات البقالة القريبة التي تكون موجودةً في موسم التخييم في كل مناطق المخيمات تقريباً، ويقضي العامل أياماً في الصحراء ملازماً الشاحنة طلباً للرزق، ويبدو أنه رزق وفير في الواقع.

أفقتُ من سرحاني على صوت جراح يطلب مني المساعدة في إنزال وترتيب بعض الأغراض. هممت بلا كسل بالمساعدة، فيوم الحضور إلى المخيم ليس كيوم المغادرة.. النشاط والحماس يكونان في أوجهما، ثم عند الانتهاء من الترتيب نعود إلى النار التي خفتَ لهبها لنغذيها بمزيد من الحطب، ثم ترِدُ هي الجميل لنا بنشر الدفء حولها وتسخين الماء لتحضير الشاي والقهوة.

سرت رعشة في جسدي ذكرتني بأن أقوم فأحضر (الفروة) كما نسميها وتكون على شكل عباءة رجالية مبطنة بفرو كثيف قادر على أن يدفئك حتى في القطب الجنوبي، والكل يقتربون من النار ليهربوا من البرد القارس. هذا لا يبشر بالخير، فبعد برهة سنضطر إلى عدم إضافة مزيد من الحطب وسنتركهُ ليتحول إلى جمر نشوي عليه عشاءنا. عندها لن ينعم بالدفء سوى المحظوظ الذي يتولى عملية الشواء، لكن مثل هذه الأمور تزيد من متعة التخييم، لسنا هنا للبحث عن الرفاهية والراحة، سيتولى عامر مهمة الشواء، فهو تخصصه الذي لا ينازعه عليه أحد، كما لا نحتاج إلى السؤال عمّن سيطبخ لنا وجبة الغداء غداً، فالطباخ فراس تعلّم الطبخ خلال سنوات دراستنا في المملكة المتحدة (على عكس منصور الذي قضى سنوات في الولايات المتحدة من دون طبخ وجبة محترمة واحدة)، واكتشف فراس أنهُ يكاد يتغلب على والدته في الطبخ، وكلما نافسه أحد في هذا الأمر اتفق الجميع أنّ فراس هو الطباخ الأمهر بيننا. وهكذا تمضي الليلة في أجواء شتوية ممتعة ونملأ بطوننا التي لم يتسنّ لها أن تجوع بوجود الكثير من اللحوم المشوية الشهية.

بعد انتهائنا من التهام ما لذ وطاب، رجعنا إلى تشكيل جلسة تكاد

تكون دائرية حول النار. أضافَ منصور قطعاً من الحطب ليعلو اللهب مرة أخرى، وفي مواجهة الهواء يبقى المكان خالياً فلا أحد يريد الاختناق بالدخان، ومع امتلاء البطون تبدأ شتى أنواع الأحاديث لتدور بيننا، يكاد لا يفوتنا مجال علمياً كان أم دينياً أم فلسفياً لتبدأ النقاشات حوله كأننا في مؤتمر يجمع أفذاذ ذلك التخصص، وبعد القفز بين الأحاديث السطحية، طرحت أنا سؤالاً أثار حماسة الأجواء ليدلي كلّ برأيه حوله:

- أعرف أن هذا الموضوع يتكرر مراراً، لكن هل مرّ أحدكم بموقف جعله يجزم أنه واجه جنيّاً أو شبحاً أو نوعاً من السحر؟

علّق عامر بثقة: الكل يمرّون ببعض التجارب، لكن أن يجزم المرء بتدخل كائنات مثل الجن والأشباح فهو ضرب من ضروب الخيال يحركه خوف الإنسان من المجهول. الجني أوقعَ القلم من فوق الطاولة بعد أن كان مستقراً فوقها لأنك لا تعلم سبب تحريكه، شبح ما أطلق صوت استغاثة لأنه عالقٌ بين عالم الأحياء والأموات، تظن ذلك لأنك سمعت صوتاً لا تعرف له مصدراً وأنت مار بالقرب من المقبرة، وهكذا، فالشبح موجودٌ فعلاً، لكن في رأسك فقط .

اعترض خالد: أتّفق معك أن الخيال والوهم يتكرران كثيراً في قصص الجن والأشباح، لكن هناك بعض المواقف لو مررت بها ستغير رأيك السطحي هذا، أنت ذكرت أمثلةً لحالاتٍ لا يعرف الشخص تفسيرها فيقوم بإلصاقها بالجن والأشباح، أما أنا فقد رأيت بأم عيني مواقفَ لو حاولت تفسيرها ألف مرة بمختلف الأسباب المنطقية فلن أصل إلّا لتأكيد تدخل الجن في الحادثة.

فراس: أتّفق معك.

جراح: نعم كلامك صحيح، عامر لا يصدق شيئاً ويصر على تفسير الأمور تفسيراً علمياً منطقياً، يظن أنه محيط بكل أسرار الكون لأنه يقرأ قليلاً في علوم الفيزياء هههه.

رفع عامر يديه مشيراً بهما إلى أنه يطلب منهم الهدوء في التهجم عليه: هل تعلمون أن هناك دراسات أقيمت حول مثل هذه المواضيع؟ لقد توصل القائمون على الدراسات إلى وجود عشرات الأسباب المنطقية للأصوات الغريبة التي يسمعها الكثيرون من الناس في الليل. فبعد سكون بقية الأصوات وسيطرة الهدوء على المكان تستطيع أن تسمع بوضوح، فتبدأ أذنك بالتقاط الأصوات وتبدأ أنت بمحاولة تفسيرها. لا تنسَ أن غالبية الناس يعيشون في بيوت حديثة معقدة معمارياً وتكنولوجياً، فالمبنى نفسه يحتوي على العديد من الأشياء المتحركة وحتى الجدران تحتوي على مواسير المياه، ونظام التهوية من جهة أخرى، برودة هنا وحرارة هناك، تمدد وانكماش لبعض المواد، أضف إلى ذلك أثاثاً وأجهزةً منزلية، وهلم جرّاً، إن لم تلتقط أذناك وسطَ هذا التعقيد بعض الأصوات من حين إلى آخر فعليك فحص حاسة سمعك.

خالد: حسناً حسناً، أنا لم أقل لك إنك قد تسمع أصواتاً غريبة، أنا أتكلم عن رؤية حدث مستحيل، هل عليّ أن أفحص عينيّ عندها؟

عامر: هذا بدوره ليس مستحيلاً كذلك، رؤية ظل ما، ترى شيئاً خاطفاً يعبر بسرعة بطرف عينك، وغيرها من التوهمات، عليك أن تقدم دليلاً أفضل.

خالد: حسناً إذاً اسمع قصتي.

صمت الجميع لنستمع إلى قصة خالد الغريبة، فرغم أنها جاءت في خضم جدال حول صحة القصص أو عدمها، إلا أن قصص الجن يبقى لها نوع من الرهبة والتشويق في آن واحد.

خالد: مررت بتجارب متعددة لكن ليس فيها ما يشبه ما حصل في ذلك اليوم. كنت في العشرين من عمري تقريباً عندما كنا نسكن منطقة الجابرية، في ذلك العمر كان عدم الخوف من الجن هو أقصى مراتب الشجاعة، لذلك كنا نتحدى بعضنا بدخول البيوت المهجورة ليلاً والذهاب إلى الأماكن التي نسمع بأنها مشهورة بقصص الجن والأشباح، وقد دخلت بالفعل إلى أكثر من مكان مشهور بتلك القصص المرعبة وفي كل مرة تمضي المغامرة بلا حدوث شيء غريب، ومع كل زيارة كانت تزداد شجاعتي وأبحث عن بيت جديد أتحدى رفاقي لدخوله في منتصف الليل، إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم. كنت مع أحد أبناء الجيران جالسين على كراسي الانتظار في إحدى المدارس بعد أن كنا نتجول في المنطقة عصراً، وكان يرافقنا صديق آخر اسمه سالم، أعرفهُ معرفة سطحية على عكس ابن الجيران الذي كان مقرباً مني نوعاً ما. ومن بين الأحاديث وبدون مقدمات قال ابن الجيران: هل تعلم يا خالد أن بيت سالم مسكون؟

ثم وجه كلامه إلى سالم: إن خالد يحب دخول البيوت والمباني المهجورة التي تشتهر باتخاذ الجن مقراً لها، ولم يجد مكاناً حتى الآن تنطبق عليه الأوصاف التي نسمعها عن البيوت المسكونة بالجان.

اكتفيت بابتسامة فقال سالم: ليس هناك علاقة مباشرة بين كون

المبنى مهجوراً ووجود الجن، والعكس صحيح، فخذ بيتنا على سبيل المثال، نحن متيقنون من سكن الجن معنا على الرغم من أن المنزل لم يكن مهجوراً في أي فترة منذ تمّ بناؤه.

قطعت صمتي وعلّقت: ماذا تقصد بوجود الجن؟ أتستمع إلى أصوات غريبة مثلاً؟

سالم: ليت الأمر يقتصر على الأصوات، هل تصدق أننا اعتدنا على تكسير الأواني تارةً، وتحريك قطع الأثاث تارةً أخرى، لكن هذا فقط إن فعل أحد شيئاً يزعجهم.

ابن الجيران: نعم مثل عزفك على العود وغنائك صحيح؟

سالم: نعم صحيح، بل هناك أغنية محددة إن غنّيتها يستحيل أن أنهيها من دون أن يحصل شيء.

أطلقت ضحكة قصيرة أقرب إلى أن تكون استهزائية، فلم يكن الكلام مقنعاً البتة، الجني يغضب عند غناء أغنية محددة، ما هذا الهراء!

ابتسمَ سالم وعلّق: لا ألومك على عدم تصديقك، الأمر هزلي فعلاً، لا أعرف السر وراء تلك الأغنية بالتحديد، هل تستفز الجني أم صوتي القبيح يكون في أسوأ درجات نشازه في هذه الأغنية؟ لكني أؤكد لك أن كل حرف قلته لك هو حقيقة نعيشها في منزلنا.

ابن الجيران: ربما يريد أن يرى شيئاً بأم عينه ليصدق، لماذا لا نذهب إلى منزلكم ونرى هههههه.

أظن أن ابن الجيران لم يكن جاداً في اقتراحه، لكن سالم وافق

فوراً وأحرجه، ابن الجيران هذا رافقني في بعض المغامرات، لكن كان يتردد في بعض الأحيان عندما يكون المبنى المهجور مرعباً والظلمة حالكة داخله، أما الآن مع موافقة سالم وكوننا سنزور منزلاً مأهولاً بسكانه ولن ندخل إلّا إلى ديوان المنزل فلم أفهم سبب تردده إلّا أن يكون مصدقاً لادعاءات سالم، لكنه لم يجد بداً من الحضور بعد أن انقلب اقتراحه عليه.

سالم: يبعد بيتنا عشر دقائق مشياً، هيا بنا .

بدأنا بالتحرك وكانت الشمس قد بدأت تتلاشى وراء الأفق. دخلَ وقت المغرب وحينما نصل بعد عشر دقائق ستكون الشمس قد غربت بالفعل وحلّ موعد صلاة المغرب، ونحن بدل الوضوء والصلاة سنكون في حضرة الغناء لاستفزاز الجني. وصلنا المنزل ودخلنا الديوان ولم يذكّر أحدنا الآخرين بالصلاة، كأننا اتفقنا أننا في حال توضأنا وصلينا ستقل فرص ظهور الجني، فاكتفينا بانتظار انتهاء الأذان القادم من مئذنة المسجد القريب، ودخّن سالم سيجارة ثم حمل العود الذي كان في زاوية الغرفة وبدأ يدندن.

لم تكن الديوانية كبيرة فهي عبارة عن غرفة يتصل بها حمام والجلسة كلها عبارة عن مفارش أرضية. جلسَ سالم قرب الزاوية التي كان العود موضوعاً فيها وجلست أنا في الجانب المجاور من الجلسة، وجلس ابن الجيران بجانبه.

سألته في هذه اللحظة عن الأغنية التي لم يخطر ببالي أن أستفسر عنها مسبقاً، فأجاب إنها أغنية (يا ناسينا). استغربت الأمر قليلاً، كنت أتوقع أنها أغنية تحمل كلمات شيطانية أو مشجعة على الكفر أو أي

شيء غريب آخر، لكنها أغنية يا ناسينا للمطرب راشد الماجد، أغنية جميلة نستمع إليها كثيراً ولا تنفك القنوات التلفزيونية والإذاعية تشغّلها عشرات المرات في اليوم الواحد، هذا غريب!

بعد الدندنة قليلاً بدأ سالم بصوته -الذي صدقَ في وصفهِ سابقاً - يغني:

يا ناسينا .. يا ناسينا .. وش الي ذكرك فينا .. ترانا ما توقعنا بعد هالغيبة تجينا

فرددنا خلفه : يا ناسينا .. يا ناسينا

واستمر سالم في الغناء وانتهى من المقطع الأول من دون حدوث شيء. بدأت أشك بكل الكلام الذي سمعته وتوقعت للحظة أن كل هذا مقلب سخيف قام ابن جيراننا بتدبيره. وسط هذه الأفكار بدأت بالاندماج مع الغناء والعزف على العود رغم قبح صوت سالم، ثم بدأ بغناء المقطع الثاني.

تعذبنا كثير احنا .. ولا نمنا ولا ارتحنا .. وفجأة يلي ذابحنا .. تيجي بايديك و..

وعند هذه الجملة حدث ما صعقني وصعقَ حتى سالم المعتاد على وجود الجن في منزله! يبدو أن ردة الفعل هذه المرة كانت عنيفة حقاً، فعندما دخّن سالم السيجارة قبل قليل أطفأها عند انتهائه منها في منفضة سجائر زجاجية كبيرة وثقيلة كانت موضوعة على الأرض قبالته، بالتالي كان هو الأقرب إليها، لكنه عندما بدأ العزف لم يكن بإمكانه الوصول إليها من دون أن يميل إلى الأمام قليلاً، أما

أنا وابن الجيران فكانت بعيدة عنّا قليلاً، وعندما قال كلمة (تيجي بايديك) طارت المنفضة من أمامنا وأصدمت بالحائط خلف سالم مباشرةً وتهشمت، فوقعت بعض قطع الزجاج المهشم على سالم. أقسم لكم يا أصدقاء إنّ هذا حدث أمامي ولم يكن هناك أي مقلب مدبر، بل يستحيل تدبير خدعة بهذا الشكل. توقف سالم عن الغناء وهبّ واقفاً، أما ابن الجيران فقد وصل إلى باب الديوانية بقفزة واحدة وخرج راكضاً إلى الشارع، أما أنا فقد شهد سالم بشجاعتي المطلقة في مواجهة الجن، فقد نهضت من مكاني بهدوء وحملت هاتفي وهاتف ابن الجيران المحمول وكانا من نوع نوكيا، وخرجت ماشياً حتى إن سالم سبقني إلى الخارج. ما لم يعرفه أن هذا التصرف لم يكن لشجاعة مني بل كانت قدماي بالكاد تحملاني، وكنت مذعوراً إلى حد الارتجاف الذي لم يلاحظاه، بل لم أنم ليلتها إلى أن أشرقت الشمس! من بين كل مغامراتي كان هذا البيت الوحيد الذي واجهت فيه جنياً أستطيع القول إنه قابلنا بعمل عدائي عندما استفزيناه بتلك الأغنية.

انتهى خالد من سرد قصته، وتبعَ سكوته سكون لعدة ثوان مليئة بالتفكير والخوف، ثم بادرَ منصور بالتعليق: هل من الممكن مثلاً أن يكون ابن الجيران قد حمل المنفضة بسرعة وخفة ورماها بينما أنت مندمج مع غناء سالم؟ ربما مارسا عليك الإلهاء بالعزف والغناء لتمرير المقلب.

خالد: مستحيل هذا يا صديقي، لقد فكرت في الأمر مراراً، كان من المستحيل أن يلمس أحدهما المنفضة من دون أن ألحظ ذلك، كانت في الوسط على الأرض وكل من يحاول الاقتراب منها لا بد له

من أن يتحرك بشكل واضح حتى لو كنت موجهاً نظرك لجهة أخرى ستلاحظه بطرف عينك، فما بالك إن كانت المنفضة أمامنا وليست بعيدة عن نواظرنا؟ ثم إن القوة التي طارت بها ثم تهشمها على الحائط خلفهما يؤكد كلامي. كيف لأحدهما أن يأخذها ويرميها خلف ظهره بتلك القوة؟ أؤكد لك أنها ارتطمت بالحائط كأنها قذيفة مدفع حتى تركت أثراً واضحاً على الحائط لاحظته عندما قمت لأخرج. ليس هناك تفسير آخر فالجني فعلها بالتأكيد. مرت سنوات طويلة ولم أمر بذلك الحي، كنت أخشى مجرد المرور في ذلك الشارع المشؤوم، والحمد لله أنني لم أكن مضطراً إلى ذلك كون بيته بعيداً عن بيتنا قليلاً.

انتهت قصة خالد المرعبة وانقسمنا بين مصدق لها وباحث عن تفسير منطقي لأحداثها، لكن ما ذلك التفسير المنطقي الذي عساه يبرّر مثل تلك الحادثة؟! هل هو تيّار مكيف الهواء أم هو فأر يسكن الديوانية؟ كنتُ من بين المصدقين لتلك القصة بلا تشكيك.. ليس من طبع خالد الكذب لجلب بعض الانتباه والإعجاب بأحاديثه، بل إنني أحسست بصدق كلامه لأنه أكّد أنه في كل مغامراته السابقة في البيوت المهجورة لم يحصل معه أي حدث غير اعتيادي. وإن كان يريد تأليف القصص فسيكون لديه رصيد وافر من المغامرات.

لم تكد محاولات تفسير ما حدث تنتهي حتى قاطعهم جراح ليروي قصة من قصصه هو الآخر مع الجن، وعلى الرغم من تصديقي لرواية خالد إلّا أنني ابتسمت فور استلام جراح لدفة الحديث، الآن تبدأ القصص الخيالية عن منزلهم السابق الذي كان مسكوناً وعاش فيه مغامرات مرعبة، وأنا إن لم أجزم بأن جراح يؤلف تلك القصص

فسأعزوها إلى الوهم كونه يميل دائماً إلى عيش أجواء الرعب وتصديقها، وهو يؤكد أن مسكن الجن في بيتهم كان شجرة السدر بالتحديد، السدرة المسكينة التي يتهمونها باحتضان الجن دائماً ثم يقطفون (الكنار)(1) ويستمتعون بأكله دونما خشية من أن يقضموا إصبع جني أو أنف آخر رضيع مثلاً! لكن أسهل طريقة لتقنع الآخرين بوجود الجن في بيت ما هي وجود تلك الشجرة المظلومة في فناء أو حديقة المنزل.

جراح: لا تستغربوا من قصة خالد، هذا أقل شيء يفعله الجن إن انزعجوا من شيء ما، لقد عشت قصصاً كثيرةً في منزلنا السابق، حتى إنني اقترحت على أبي أن يقطع تلك الشجرة اللعينة، لكنه أبى ذلك. كان رأيه أن مضايقات الجن لنا قليلة ولم تتعدّ كونها مضايقات بريئة، فإن انتزعنا منزلهم فسينتقمون منا وسيتغير الحال من بعض المشاكسات الأشبه بالمقالب إلى إلحاق ضرر حقيقي بنا، وبالفعل تعايشنا معهم لسنوات قبل أن ننتقل إلى منزلنا الجديد.

سأروي لكم حادثتين لتفهموا الوضع، في تلك الفترة كنت ألتقي بأبناء الجيران ونلعب كرة القدم في الساحة الترابية المقابلة لبيتنا، وفي أحد الأيام وكما جرت العادة كنت ألعب الكرة عصراً في الساحة وبدأت الشمس بالغروب، كانت أمي توصيني بالعودة إلى المنزل عندما يحين موعد صلاة المغرب، فكان انطلاق صوت الأذان من المسجد عبارة عن صفارة نهاية المباراة، فأبناء الجيران كذلك يدعوهم أهاليهم إلى الدخول وأداء الصلاة. وفي ذلك اليوم وقبل أن ينطلق الأذان بقليل فُتح باب بيتنا الخارجي وكانت أمي مرتديةً ثوب الصلاة وتشير بيدها لي كي أدخل إلى المنزل. ربما نادتني ولم

أسمعها بسبب علو صوتنا وصراخنا على صوتها، لم ألاحظها في البداية لكن أحد أبناء الجيران نبّهني إلى وجود والدتي في الخارج ومناداتها لي، فتركت المباراة واتجهت إلى المنزل. في هذه الأثناء وعندما لاحظت والدتي تركي للعب وقدومي إلى المنزل أعادت الباب ليكون مواربأ كما تركته عند خروجي ودخلت. لم تمر دقيقتان قبل أن أكون في غرفة المعيشة ولم أجد أمي، صعدت إلى الدور الأول حيث غرفتها ووجدتها هناك بملابس البيت ولم تكن مرتدية ثوب الصلاة واستغربت لذلك، لماذا نزعت ثوب الصلاة الآن؟

سألتها: ماذا أردتُ يا أمي؟ هل احتجتِ شيئاً أم فقط تذكّرينني بالصلاة؟

أجابت: ماذا تقصد؟ لا أحتاج شيئاً شكراً لك.

قلت: لقد ناديتني للتو عندما خرجتِ من المنزل، وكنتِ ترتدين ثوب الصلاة.

ضحكت مستغربةً: ماذا دهاك يا جراح؟ أنا هنا طوال الوقت ولم أنزل إلى الدور الأرضي منذ وقت الغداء.

صمتُ وقلت لها: "ربما اختلط عليّ الأمرا"، وأنا متأكد أن ما حدث لم يكن إلّا أحد ألاعيب الجن الذين يسكنون السدرة، من المستحيل أن يكون مقلباً من أحد ما. لقد رأيتها بعيني، كانت أمي وقد دخلت إلى المنزل ولحقتها أنا إلى الداخل، لم يكن أحد في البيت سواها هي وأختي الصغيرة، لكن ما صدمني هو تشكل الجن بهيئة أمي بكل ذاك الإتقان. كانت هذه أول مرة يفعلونها، لكنها لم تكن الأخيرة.

بعد فترة من الحادثة كنت أريد قطف بعض الكنار من الشجرة، كنت أحب تلك الثمرة كثيراً وكانت الشجرة كريمة ولم تبخل علينا بالثمار، كان أبي يصعد إلى سطح الديوان الذي يقع بجانب الشجرة وقد ثبّت بعض قطع الخشب ليستطيع المشي عليها ويقترب من الشجرة العالية ويقطف الكنار. وفي ذلك اليوم كانت الثمار المقطوفة قد فرغت من الثلاجة، وقررت أن أقطفها بنفسي كون والدي خارج البيت وهو الوحيد الذي يتولى تلك المهمة، لأن والدتي كانت تمنعني من الصعود خوفاً عليّ من السقوط وتحذرني من عصيانها في هذا الأمر، لكنها الآن لن تنتبه إليّ وهي جالسة في غرفة المعيشة في الدور الأول تتابع أحد المسلسلات في التلفاز، فاقتنصت أنا الفرصة وصعدت إلى سطح الديوان بمساعدة سلم متنقل. هناك طريق آخر أسهل للصعود لكنه من خلال نافذة إحدى الغرف في الدور الأول حيث تجلس والدتي، فلن يكون مكاناً مناسباً للتسلل بطبيعة الحال. خطوتُ بحذر وببطء على قطعة الخشب التي توصلني إلى أغصان الشجرة، وبحذر وصلت إلى أول غصن يحوي الثمار وبدأت أقطف الكنار بيد وأخزّنه بيد أخرى.

لم أجمع إلا بضع حبات حتى لمحت المفاجأة بطرف عيني، لقد كانت والدتي واقفة فوق سطح الديوان تنظر إليّ بغضب، التفتُّ إليها بفزع واختلّ توازني وكدتُ أسقط لولا أنني اتكأت على الغصن، فقالت والدتي بصوت هادئ: ألم تحذرك والدتك من الصعود إلى هذا المكان؟

استغربت من حديثها عن نفسها بصفة الغائب، لماذا لم تقل ألم أحذرك؟! وسط ارتباكي وخوفي التفتُّ إلى الثمار التي سقطت مني

في الفناء تحت الشجرة، واعتدلتُ وتوازنت حتى أعود إلى السطح. عند رفع رأسي لم تكن والدتي موجودة، أسرعت إلى السطح لأتفاجأ بالنافذة التي تطل على السطح مغلقةً، نزلت إلى الفناء ولم أبدأ بتحليل الأمر إلّا عندما استقريت على الأرض! لحظة، والدتي كانت ترتدي ثوب الصلاة! وليس هذا وقت الصلاة، والأهم من هذا أنها من المستحيل أن تقفز من النافذة لتقف على السطح وتوبخني، خصوصاً وهي ترتدي ثوب الصلاة. لم تكن أمي لتفعلها أبداً لا بثوب الصلاة ولا بغيره، كان الجني متنكراً بنفس هيئة أمي، على شاكلة والدتي في المرة السابقة.. تجمّد الدم في عروقي من هول الاستنتاج، ركضتُ بأقصى سرعة متجهاً إلى غرفة أمي التي كانت تقرأ أحد الكتب، أبطأت وتصنعت الهدوء والتفتت هي بدورها إليّ مستفهمةً عن سبب ركضي بهذه الطريقة، فقلت لها: ألم تناديني يا أمي منذ لحظات؟. فنفت أنها أصدرت أو حتى سمعت أي صوت، برزّتُ الأمر أنني ربما توهمت مناداة أمي لي وأنا في غرفة المعيشة في الطابق الأرضي، وهذا ما أكّد لي تشكُّل الجني بهيئة والدتي، أو ربما كانت جنية، والطريف أنني أعتقد أنّ الجنية تلك تحب والدتي، ففي الحالتين لم تتشكل على صورتها فحسب، بل في المرة الأولى نادتني لقرب ميعاد الصلاة، وفي الثانية وبّختني لعصيان أمر أمي.

علّق عامر مازحاً: وكيف كنتَ تتعامل مع والدتك بعد هذه الحادثة؟ هل كنتَ تشك أحياناً أنها الجنية؟

جراح: في الواقع لا، لقد كانتا المرتين الوحيدتين اللتين تشكلت فيهما الجنية - إن كانت فعلاً جنية – بشكل والدتي، وقد كانا موقفين سريعين، أظن أن الوقت لو طال أكثر بقليل لكنت سألاحظ

الاختلاف.

عامر: لا أستطيع مجرد تخيل تشكل الجن على هيئة والدتي، سأعجز عن رمي رأسي بين أحضانها مرة أخرى!

جراح: ربما يكون كلامك صحيحاً لو كان التشكل متكرراً، لكن وقوع حادثتين في ظروف غريبة - خصوصاً وجودها فوق سطح الديوان - أمر غير منطقي أصلاً، لكن تصوّر أن يكون الجني قد تشكّل مرات ومرات - وأنا أظنه أمي بالفعل، ولم أكتشف الفرق - فإنها فكرة مرعبة.

انتهى جراح من سرد قصته ولم يستلم أحد دفة الحديث، يبدو أنهم يحاولون تذكر حادثة تستحق الذكر، فلا يريد أحد أن يروي قصة ترتبط بالجن ثم تكون ذروتها مجرد أصوات صدرت في بيتهم الهادئ ليلاً. كنت أتأمل في النار وفي تشكيلات اللهب العجيبة التي تصوغُ لوحدها لوحة جميلة، بعد ثوانٍ من التأمل رفعت رأسي ملتفتاً إلى اليسار، حان وقت القيام وجلب شراب ما من الصندوق الحافظ للحرارة. هممت بالقيام وعيني ما زالت متجهة نحو صندوق المشروبات، لا أدري ما الذي أوردَ على خاطري شرب عصير أو مشروب غازي في هذه اللحظة، لماذا لم أطلب من فراس كوباً من الشاي في هذا الجو البارد، وكأن شيئاً ناداني لألتفت إلى تلك الجهة. لم يكن الصندوق يشكو من شيء، لكن ما كان خلفه هو الذي أعادني إلى الالتصاق بالكرسي.

هل تبحث عن شيء؟ سألني منصور، أجبته بالنفي: لا، فقط أفكر أن أشرب شيئاً، لا عليك. كان صوتي مرتبكاً، ربما ظنوا أن ذلك من

تأثير قصة جراح، لكنه المولد الكهربائي اللعين.

ظللتُ أقنع نفسي أن ما رأيته لا يعدو كونه وهماً، بالتأكيد هو وهم، بعد قصتيّ خالد وجراح، التفتُّ جهة المولد الكهربائي ولا بد أن عقلي خدعني وجعلني أظن أنني رأيت كياناً أسودَ يمر أمام المولد. ليس هناك احتمال آخر، لن يختفي الكيان كل تلك السنوات ويظهر في هذه الليلة بالتحديد، لكن خوفي وعقدتي من المولد الكهربائي في المخيم وفي جو قصص الجن والرعب يؤجج الخيال ويجعله في أوج نشاطه.

عندها سألَ جراح عن مغامرات أخرى خاضها أحدنا ووجّه إليّ السؤال شخصياً: ماذا عنكَ أنت يا أوس؟ أليس لديك ما ترويه؟

قفزَ فراس ليجيب بدلاً عني: أظن أن أوس قد مرّ بتجربة ما على الأقل، ألم تقل لي مرة إنكَ تظن أنك رأيت جنياً عندما كنت صغيراً؟

ربما جاء وقت رواية حادثة المولد اللعين، لكن لا وألف لا، لن أجرؤ على ذكر القصة الآن، قررت أن أذكر أي قصة أخرى حتى إن اضطررت لزيادة بعض الأحداث التي لم تقع لزيادة الرعب في القصة، كذبة بيضاء صغيرة تعفيني من ذكر الكيان الأسود الآن، حتى لو كان ما رأيته مجرد وهم فلن أغذي هذا الوهم أكثر، فبدأت بقصتي الاحتياطية، لا شيئ يخطر ببالي في هذه اللحظة سوى البيت الأسود، حسناً لديّ قصة تستحق الذكر.

تحولت الأنظار إليّ لأبدأ بتسليم لساني لذاكرتي: كنت في الرابعة عشر من عمري كما أظن، ولسبب أجهله بقيَ البيت الملاصق لبيتنا غير مكتمل البناء، فبعد اكتمال بناء الأساس الأسود توقفت الأعمال

الإنشائية وبقي البيت من دون تشطيب نهائي، لا أبواب ولا نوافذ ولا ديكورات وأصباغ، مجرد هيكل أسود من الداخل والخارج مما يعطيه طابعاً موحشاً في الليل خصوصاً، بقيَ على تلك الحال لسنوات وتم إغلاقه بوضع سور حديدي من تلك الأسوار التي توضع حول الأعمال الإنشائية لمنع أي أحد من الدخول، لكن كون المنزل ملاصق لبيتنا كان هذا يعني سهولة دخوله إن خرجت من إحدى النوافذ المقابلة له في الدور الأول، فهناك يلتقي سطحا المنزلين الخدميين، هي أسطح منخفضة جانبية تكون فوق الدور الأرضي على جانب المنازل تُستغل في وضع أجهزة التكييف وغيرها من الأشياء، وكون السطحين متلاصقين فهذا يعني سهولة الصعود على سطح البيت الأسود ثم الدخول إليه عبر إحدى النوافذ.

كانت تدور الكثير من الأحاديث من قبل أبناء الحي بل وحتى الأحياء المجاورة عن كون البيت مسكوناً بالجن، لم أكن أصدق أياً منها بعد أن أكد لي والدي أنها أحاديث فارغة ليس إلّا، وهذا ما شجعني على دخول البيت أكثر من مرة مع أبناء أعمامي حين كانوا يزوروننا في بعض الأحيان، لكن دخولنا إلى البيت كان دائماً في الفترة الصباحية حيث تنير الشمس البيت. كنت أنا أصغر المغامرين ووجود أبناء عمي الأكبر مني عمراً يمدني بمزيد من الشجاعة لدخول البيت المهجور – إن كانت تصح تسميته بالمهجور فهو لم يُسكن بالأصل – وفي أحد الأيام حينما كنا نلعب كرة القدم في مواقف السيارات الخاصة بالمدرسة المقابلة للبيت الأسود، ركل أحدهم الكرة عالياً ولسوء الحظ سقطت الكرة داخل المنزل، والسور الحديدي يمنعنا من الدخول لأخذ الكرة، فأصبح الكل يشجعونني

على الدخول عبر الطريق السري المعهود، لكن المشكلة حينئذٍ أن أبناء أعمامي الأكبر سناً والذين أرافقهم في تلك المغامرات لم يكونوا معنا، فوقع الحِمل عليّ وحدي، والأدهى من ذلك أننا في الليل، الظلام حالك داخل المنزل. رفضت الدخول في البداية لكن الجميع يريدون لعب الكرة، وأغلب الموجودين كانوا من أبناء الجيران، إلّا ابن خالتي الذي في مثل عمري فقد كان يزورني وسيبيت في منزلنا تلك الليلة، فكان هو الوحيد الذي يستطيع مرافقتي إلى داخل منزلنا ودخول غرفة نوم أخي والقفز إلى سطح الخدمات.

لم يكن الانتظار إلى الغد والدخول في فترات النهار خياراً مطروحاً، لا نملك إلّا كرة واحدة والجميع يريدون استئناف اللعب، وافقت بعد أن قبلَ ابن خالتي أن يرافقني لنستعيد الكرة. لديّ لحسن الحظ مصباح يدوي قوي مناسب تماماً لمثل هذه المهمة، شعورنا كان متناقضاً حين فتحنا نافذة غرفة أخي وقفزنا إلى السطح. الرعب المصحوب بارتفاع الأدرينالين شعور ممتع بشكل غريب، حب المغامرة والتشويق هو ما يساعدنا على تحدي الخوف وعدم التراجع، المصباح يعمل كما يجب، يضيء جزءاً لا بأس به من زوايا المنزل، ها نحن نقفز إلى إحدى الغرف عبر النافذة، هدوء داخل من المنزل وأصوات الصبيان خارجه في مواقف المدرسة تصل إلى أسماعنا كأنهم أبعد مما هم عليه في الواقع. من حسن الحظ أنني دخلت هنا أكثر من مرة وأعرف شكل البيت من الداخل. توجهت إلى السلم وابن خالتي ملتصق بي ونتقدم بخطوات سلحفاتية، علينا النزول الآن إلى الصالة في الدور الأرضي والبحث عن الكرة التي لا نعرف أين استقرت بالضبط، فذلك البيت يمتلك تصميماً مميزاً، فقد

كانت الصالة في الدور الأرضي مكشوفة من الدور الأول الذي يطل عليها بما يشبه الشرفة الداخلية، ونوافذها الخارجية كبيرة للغاية مما سمح للكرة بالدخول، قبل الوصول إلى السلم مررنا بالشرفة التي تطل على الصالة فاقتربنا من طرفها وسلطت الضوء على الدور الأرضي، كانت الكرة أمامنا مباشرةً في الزاوية البعيدة من النافذة، كل ما علينا فعله هو النزول وأخذ الكرة ببطء وحذر، ننزل عتبة تلو الأخرى. وفجأة سمعنا صوتاً كأنه قطعة من الحديد تحتك بالأرض صادر من الدور الثاني فوقنا، التفتنا إلى بعضنا وتسمرنا في مكاننا من دون أن ننطق بكلمة واحدة. علّق ابن خالتي: أعتقد أن الصوت قادم من الخارج.

وافقته قائلاً: بالتأكيد، لا أحد في المنزل، ثم إن تصميم المنزل وعدم وجود أبواب ونوافذ يخدعنا في معرفة مصدر الصوت.

مع استمرارنا بالنزول صدرَ صوت آخر قريب منا في الدور الأرضي، ليس في الأمر توهم حول مصدر الصوت هذه المرة! سمعنا صوت احتكاك آخر كأنها قدمٌ تنسحب على الأرض ثم الذي أكّد لنا وجود شيء غير طبيعي في المنزل كانت الكرة التي تحركت. صدقوني لم نتوهم الأمر، لم تتحرك متراً أو مترين فقط، بل كانت ما زالت تتحرك وكأن أحداً ركلها باتجاهنا برفق. عندما انتبهنا إلى أن الصوت يقترب من نهاية السلم سلطت الضوء على الأرض لنجد الكرة قد وصلت إلى العتبة الأخيرة وتوقفت عندها، نزل ابن خالتي خطوتين كانتا تفصلاننا عن الكرة وحملها بخفة واستدارَ ليصعد وفعلت مثله.. صعدنا هذه المرة بسرعة وتوجهنا إلى النافذة إياها لنعود أدراجنا، ليصدر صوت احتكاك القطعة الحديدية من الأعلى

مرة أخرى، لكن بقوة أكبر هذه المرة مما جعلنا نتأكد أن الصوت صادر من الداخل هذه المرة. كنا متأكدين من عدم دخول أحد لإعداد مقلب لنا، فالسور الحديدي الخارجي يصعب تسلقه، ثم إن فعلها أحد - وهو الذي ركلَ الكرة - فمن الذي أصدر الصوت الآخر في الأعلى؟ لم يكن أحد يملك الوقت الكافي أصلاً لتنفيذ هذا المقلب، فدقيقتان لندخل إلى بيتنا ونقفز إلى البيت الأسود لن تكونا كافيتين. بعد هربنا إلى منزلنا ثم إلى الخارج بأقصى سرعة كان جميع أصدقائنا ينتظروننا في الخارج ولم يكن أي شخص منهم ناقصاً! مرة أخرى ليس هناك وقت كافٍ للعودة، عندها فقط تأكدت من شائعات وجود الجن في ذلك المنزل. لحسن الحظ أنه تمّ ترميمه فيما بعد وسكنت فيه عائلة الآن ولم نسمع أنهم اشتكوا من شيء. ربما ترك الجن لهم المكان، فقد سمعت أكثر من مرة عن مغادرة الجن للمباني بعد أن يشغلها البشر.

جراح: أو ربما أحسّوا بشيء لكنهم طردوا الجن بطريقة ما، بل من الممكن أنهم تعايشوا مع وجود الجن إن لم يكونوا يضايقونهم كحال منزلنا القديم مثلاً .

ثم التفتَ إلى عامر وأردفَ: هل كل ما مررنا به وهم يا سيدي المحقق الفيزيائي؟ أم إننا نكذب بكل بساطة؟

- إن كنتم مستمتعين بسرد تلك القصص، فلن نفسد الأجواء بمناقشة واقعيتها؟ لنترك هذا النقاش إلى وقت آخر.

- هل حصلتَ معك أنت حادثة غريبة ما؟

- ربما مررت بتجارب لم أفهمها، لكن لا أذكر حادثة مشابهة لقصصكم.

وسط هذا الحوار لمحت شيئاً يتحرك خارج إطار المخيم، لست متأكداً من حقيقة سواده، أهو أسود كالكيان اللئيم ذاته؟ أم هو الظلام الذي يحيط به فيعطيه ذلك المظهر! لم يكن بجانب المولد هذه المرة، إنه مخلوق ككلب أو كذئب يمشي على أربع. دققت النظر لأحاول اكتشاف ماهيته، فإن يكن كلباً يبحث عن صدقة من بواقي لحوم العشاء التي شمّ رائحتها فهو أمر مطمئن.

المفاجأة التي صعقتني هي أن هذا الكلب المزعوم ازداد حجماً وكبرَ أمام عيني تدريجياً ليصبح بحجم البعير تقريباً. وقفت مشدوهاً وقد بانت على قسمات وجهي آثار الصدمة والرعب، فسألني منصور عندما انتبه الجميع إلى ردة فعلي غير المعتادة: ماذا دهاك يا أوس؟

صرخت وأنا أشير إلى موضع الكلب ذي حجم البعير : انظروا هناك، ما هذا؟

وفي نفس الوقت الذي أشرت فيه بيدي إلى ذلك المكان هبطَ الجسم إلى الأرض كأنه انبطح حتى تلاشى ولم يعد ظاهراً، فالتفتَ الجميع من دون أن يلحظ أحد منهم أي شيء غريب. كنت في موقف يكره أي أحد المرور به، انقسم الأصدقاء بين مشكّك أو مكذّب لي بحجة أني أحاول إرعابهم بمقلب تافه بعد قصص الجن. وعامر كعادته يعزو الأمر إلى وهمٍ وخيالٍ متوقعين بعد سرد تلك الحوادث في هذا المكان والزمان بالتحديد. لم يأخذ أي أحدٍ منهم رؤيتي للكيان الملعون على محمل الجد.

صحت بهم غاضباً: إنه هو، اللعين نفسه، لقد تجنبت ذكر قصته بعدما لمحته بقرب المولد لكن اللعين يتربص بي بالتأكيد.

بدأت ملامحهم بالتبدل إلى الجدية، ليس لأنهم صدّقوا وجود الكيان لكن لقلقهم عليّ كما يبدو، فصراخي وانفعالي كان حقيقياً وليس مجرد تمثيل سمج، ولست أبرع في مجال التمثيل إلى درجة خداعهم بهذا الشكل. أجلسوني وأخذوا يدعونني إلى الهدوء، وتحرك خالد ليأخذ المصباح اليدوي القريب، كان مصباحاً قوياً كفيلاً بأن يكشف وجود أي شيء إن سلّطه عليه، وأخذ يجول في بقعة الضوء باحثاً عن أي شيء، وأخذ يوسّع مجال البحث أكثر ليغطي تلك الجهة من المخيم، لا شيء هناك.

بدأت أشكك بحاسة البصر لديّ، ربما توهمت بالفعل، ومن الممكن أنني أكذّب عيني لأُطَمئن قلبي الفَزِع، لكن ليس هناك فائدة ترجى من الخوف. بدأت أُقلب الأمر في ذهني، عندما ظهر الكيان أول مرة كنت صغيراً وكان هذا منذ سنين بعيدة، ربما توهمت شيئاً وأنا أتعثر في غرفة المولد الكهربائي، ولست أستطيع الجزم بصحة ذكراي تلك، ففي بعض الأحيان يخدعنا عقلنا حينما يضيف أحداثاً لم تحصل أو يمحو أشياء أخرى من ذاكرتنا، فنتخيل أننا نتذكر شيئاً ما ونحن متيقنون من حصوله بالشكل الذي نسترجعه من الذاكرة، لكن الواقع الذي مررنا به مختلف عن الذكرى نفسها، هذا شيء مثبت في علم النفس، فالعقل يسد بعض الثغرات التي تسقط من الذاكرة بأحداث يخلقها من تلقاء نفسه ليكمل الصورة عندما نستحضرها.

كل هذه التحليلات ساعدتني على الهدوء وطرد الخوف، لا يهم الآن الصحيح من الخاطئ، المهم أن يمر اليوم بسلام، ثم فلتتشوّه ذاكرتي بهذه الحادثة اللعينة إلى الأبد، فالذاكرة مجرد صور من

الماضي تخلو من التفاعل الحقيقي مع الحاضر، إلّا من بعض المشاعر، أستطيع التعامل مع هذه المشاعر لاحقاً، لكن الأمر يختلف عن الحاضر الذي تعيشه في نفس اللحظة.

هدأت بعد عدة دقائق من الهلع وحاولَ الجميع تغيير الأجواء بعد رواية تلك القصص المرعبة ليبحثوا عن نشاط آخر نمارسه، وبدلاً من الجلوس في المخيم اقترح فراس التجول مشياً مثلما نفعل كل مرة، سيزيد هذا من اطمئناني إلى عدم وجود شيء، والمصابيح اليدوية كفيلة بتوفير إنارة كافية حولنا وكشف أي حركة مُريبة. كنت أخشى أن ينقلب الأمر إلى السخرية وإلقاء النكات على خوفي وردة فعلي عندما تخيلت الكلب العملاق، لكن وعلى غير العادة احترمَ الجميع الموقف ولم يجرؤ أحد حتى على التلميح إلى وجود جبانٍ بينهم يتخيل أشياء غير موجودة خصوصاً بعد ما ادعى الشجاعة في قصته.. فقد دخلت المنزل الأسود وفي خضم الحدث المرعب وجدنا الكرة وأعدناها معنا وانتصرنا على الجني ذاك، هذه حكمة تُحسب لأصدقائي.

عشرون دقيقة من التجوال ثم العودة إلى المخيم، كل شيء هادئ. تأخّر الوقت واقتربنا من موعد النوم، فالساعة تجاوزت الثانية عشرة صباحاً وبدأ الجميع بالترنح والتثاؤب. أكره اللحظة التي تبدأ فيها جفوني بالتثاقل ثم أتذكر أنني لم أجهز فراشي بعد، صحيح أنه مجرد كيس نوم ملفوف على نفسه ويحوي داخله الوسادة والغطاء الدافئ، لكن كان يجدر بي بذل هذا الجهد البسيط مبكراً حتى إذا غلبني النعاس أرتمي فيه مباشرةً وأغط في نوم هانئ. قمت لأجهز الفراش وخلال دقائق كان الجميع يتهيؤون للنوم عدا خالد الذي

جهّز الشيشة للتدخين، ثم سينام عندما ينتهي منها.

دخلنا إلى الخيمة بينما بدأ خالد بتحضير الشيشة ليتسامر مع دخانها قبل أن يلتحق بنا للنوم، أمّا عامر فقد كان ينتظر الجميع لينتهوا من تحضير أكياس النوم ليطفئ المولد الكهربائي. بالتأكيد لن أتولى أنا هذه المهمة، لم أكن لأفعلها في الحالات الطبيعية لأفعلها اليوم بعدما رأيت من وهم أو حقيقة. انتهى الجميع من تحضير مكان نومهم، حتى خالد كان قد حضّر كيس نومه قبل شيشته، خرج عامر من الخيمة ليعلن نهاية الأمسية وأطفأ المولد، من الجيد أنني قد شحنت هاتفي ولن أحتاج إلى بطاريات الشحن كما يفعل جراح الذي لم يستغل فترة تشغيل المولد الكهربائي لشحن هاتفه. الهاتف الآن يمثل مصباحاً صغيراً بالإضافة إلى المصابيح اليدوية المتوفرة. كان الجو بارداً ويزداد برودة كلما توغلنا أكثر في الليل، ولا أدري لماذا يشعرني الظلام بالبرد أكثر، فما إن انطفأت الأضواء حتى أحسست أن الهواء بات أبرد بكثير وسرت قشعريرة في جسدي دفعتني إلى الاختباء في كيس النوم ملتحفاً ببطانيتي الثقيلة. أحاديث أخيرة تدور بيننا، تزيد من الإحساس بالنعاس بشكل جميل كأنها مخدر يدفعك إلى النوم أسرع. خفتت الأصوات في أذني بفعل دخولي تدريجياً في عالم الأحلام.

لا أعرف كم مضى على نومي، لكنّ هناك شيئاً يزعجني، لست أدري إن كنت قد حلمت بكابوس ما، أم أن الذي يزعجني هو النوم في كيس النوم وعلى الأرض القاسية بدل فراشي الوثير في المنزل، لكن في النهاية أياً كان ما يزعجني فقد نبهني من نومي، فتحت عيني فإذا بالسواد يغلف المكان. هل البطانية ثقيلةٌ إلى هذه

الدرجة؟! هنالك شيء غير طبيعي، حاولت رفع رأسي لأقوم وأبحث عن هاتفي فيكون مصدر ضوءٍ كافٍ، تأكدت عندها أنّ جاثوماً قد زارني وهو يمنعني من التحرك، دبّ الرعب في قلبي وحاولت مناداة الأصدقاء لمساعدتي لكن لا صوت يخرج من حنجرتي، ثم بكل غرابة هدأت من تلقاء نفسي وقررت الاسترخاء، ليس لشجاعة استجمعتها لكن النعاس دعاني إلى العودة إلى النوم، ثم ليكن الصباح كاشفاً عن خفايا الليل.

منصور

لا أمانع أن أصحو على صوت منبه الهاتف الذي ضبطته بنفسي، لكن أن يوقظني الهاتف بسبب اتصال أحدهم بي - أياً كان هذا المتصل - فهذا يثير حنقي، ماذا تريد هذه الحمقاء في الصباح الباكر؟ ربما لا تُعَدُّ الساعة الحادية عشرة صباحاً باكراً لكنه يعدُّ كذلك عندما أنام في المخيم. تعرف بثينة ذلك تماماً، لقد قلت لها مراراً ألّا تتصل في وقت باكر إن كنت في المخيم. أمسكت بهاتفي لألقنها درساً برسالة أهينها فيها قليلاً.. أووه يبدو أنني ظلمت بثينة، كانت ريما هي المتصلة، فتاة من إحدى الدول العربية تعرفت عليها مؤخراً، حسناً، جمالها يشفع لها، ابتسمت لا إرادياً حينما تذكرت ابتسامتها الخجولة، لا أظن أنني سأملّ منها مثلما أملّ من بقية الفتيات، حسناً ياسمين ترتقي إلى هذه الرتبة أيضاً، تمتلك سحراً في طريقة كلامها لا تشبهها فيها أي ممّن تعرفت عليهنّ، لا تمل أمي من محاولة دفعي للزواج، لكن كيف لي أن أعيش مع امرأة واحدة بعد كل هذه المغامرات؟ لن أستطيع الوفاء لحب واحد أبداً، ليس الآن على الأقل، ربما بعد أن أشرب من كؤوس الحب المتعددة أكثر فأرتوي إلى حد أستطيع بعده الاستقرار على كأس وحيد.

قمت لأخرج من الخيمة وأغسل وجهي وأتخلص من بقايا النوم في جفوني، لم يستيقظ أحد من الرفاق بعد. هذا جيد، أستطيع الاستمتاع بتغريد ريما الصباحي من دون مضايقة، لم أفكر بلقمة أرميها في بطني كما هي عادتي، فور انتهائي من دخول الحمام وغسل وجهي اتصلت بملاكي الجميل، هي أحدث علاقة بين

علاقاتي، مضى على معرفتي بها شهران فقط، تبدو لي مدة طويلة، فجمالها الأخّاذ رفع معاييري في البحث عن فتاة جديدة، أو ربّما هو تحفظها الذي يبقيني في حالة ترقب ومحاولات غير متهورة لإيقاعها في نهر التواصل الجسدي الجارف، فما إن تجلس على الحافّة لتبلل قدميها بماء الحب حتى تنزلق بعدها شيئاً فشيئاً إلى أن تجد نفسها وقد سحبها التيار بعيداً إلى حيث لا تستطيع العودة، غير أنّي لا يجب أن أتسرع في دفعها فتنتبه إلى كذبي، يجب أن تظن أنّها هي من تريد التقرّب مني أكثر. إمساكي بيدها وإرسالي سهام الوله من عينيّ بينما يمطرها لساني بوابل من كلمات الهيام لن ألحقه بأي محاولة لتقبيلها مثلاً، عندها ستكون هي متلهفة لتلك القبلة التي لن تكتمل أركانها في تلك اللحظة على الأرجح، لأنني سأرتدي بعدها قناع الخجل أو ربما الخوف عليها وسأتظاهر بكبت رغباتي الجسدية إلى ما بعد الزواج المزعوم.

هذه خطتي مع ريما فقط، بينما كل فتاة أخرى أعدُّ لها التحرك المناسب لنمط شخصيتها. في أغلب الأوقات لا أظهر كل هذا الضعف أمام الفتيات، بل على العكس تماماً، فبثينة مثلاً أعاملها بجفاء أكثر من تعاملي برومانسية معها، فتعود هي مثل الكرة التي أركلها على الحائط فترتد بكل قوة لتعود إلي، لكن ريما فتاة لم يسبق لها الدخول في علاقات غرامية حقيقية، إنها تبحث عن قصة حب سينمائية، فبجانب تسلطي عليها بحجة الغيرة والحب إلّا أن ذلك لا يشمل الإذلال والتعامل بكل حقارة كما أفعل مع بثينة، يبدو أنني أصبحت أحمل خبرة لا يستهان بها، فنجاحي في إدراك أهدافي مع الفتيات لم يكن سببه طولي الفارع ووسامتي فحسب، المظهر يفعل

فعله لكنه يصل إلى طريق مسدود إذا لم يُحسن صاحبه فن العزف على مزمار الهوى، مثل العازف الذي أنقذ القرية من الفئران وعندما أراد الانتقام من أهل القرية الذين لم يقدّروا عمله جعل أطفالهم يتبعونه إلى المجهول. بالتأكيد إن معزوفته التي استهدفَ بها الفئران غير تلك الموسيقى التي جعلته يجرّ الأطفال خلفه. على كل حال، اليوم مخصص للعزف لريما، وإن لم تتبعني اليوم فستفعل في الغد.

عزمتُ على مغادرة المخيم على الفور وبلا تردد، تعلم ريما حبي للبر وللتخييم، فإنّ قطعي للرحلة بعد أول ليلة والعودة إلى المدينة لتناول وجبة الغداء معها في أحد المطاعم بعد أن أمرّ على المنزل لأخذ دش سريع وتغيير ملابسي، ثم العودة إلى المخيم في المساء فقط لأنها اشتهت تناول الطعام معي، سيكون هو العزف على الوتر الحساس الذي يشد ريما والذي تحدثتُ عنه قبل قليل. ربما يظن بعضُهم أن الموضوع يقتصر على الكلام المعسول والغزل، لكن الفتاة تحب أن ترى الرجل يضعها في مقدمة أولياته، تحب أن تراه يتنازل عن أشياء يحبها لمجرد إرضائها، بل أحياناً تتعمد خلق تضارب بين نشاطاته التي يحب أن يمارسها ليُلبّي طلباتها التافهة التي ترميها عليه بغنجٍ مصطنع فقط لتستمتع باهتمامه بها على حساب متعته الشخصية.

هذا ما فعلته ريما عندما لم تطلب مني الحضور لكنها تدللت بقولها: والدي لديه اجتماع مهم في مقر عمله ولن يحضر على موعد وجبة الغداء، أما والدتي ففضلت الصيام وتركتني لأطلب طعاماً من أحد المطاعم، أو عليّ أن آكل بقاياً طعام الأمس، أيرضيك هذا يا حبيبي؟

- لن تفعلي أياً من هذين الخيارين، لماذا منصور موجود في حياتكِ إذاً؟

- لكنك في المخيم، ولن تعود قبل يومين.

- لن أطيل الكلام وأضيع الوقت، ساعتان وأكون جاهزاً وسترافقيني إلى مطعم يناسب مقام حبنا، ثم أعود إلى المخيم في الليل.

رفضٌ بدافع الحياء ثم تطير من الفرح. وخلال الساعتين اللتين أقضيهما في العودة من المخيم وأصل إلى البيت، أستحم وأغير ملابسي وربما أمر على إحدى محطات غسيل السيارات لأغسل السيارة المتسخة. هذه الفترة تقضيها ريما أمام المرآة لتتزين لي، ربما تشعر بأني خاتم في إصبعها، تومئ فأهبُ لألبي طلباتها، تمد يدها لتأخذ ما طلبت فأقبّل يدها قبل أن أسلمها الغنيمة، لكن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

لا تعرف الفتيات أن الشبّان يستمتعون بتدليل الفتيات ولا يعتبرون هذا إذلالاً، ولا يكون هذا الدلال دليل حبٍّ صادقٍ بالضرورة، ثم تكتشف الفتاة أنها عاشت في وهمٍ خادعٍ عندما لا ينفع الندم.

بعد قضاء حوالي عشرين دقيقة على الهاتف مع ريما، خرج عامر من الخيمة، لا أدري إن كان هو الوحيد الذي استيقظ من النوم، لكنني لن أضيع وقتاً في التأكد ثم البحث عن أعذار للمغادرة، سأرمي الكلام بسرعة على عامر و أخبره بأن عليّ العودة إلى المدينة لمساعدة والدتي في أمر طارئ ثم سأعود لاحقاً، أمر طارئ لكنه

ليس خطيراً. يجب أن يعذروني على مغادرتي وعليهم ألّا يجزعوا في نفس الوقت، فأنسب عذر هو ما أربطه بوالدتي التي لا يصح أن أرفض مساعدتها إن احتاجت ذلك، ولو علمت والدتي الهدف من عودتي فلن تمانع من استخدامه كذريعة للعودة أمام أصدقائي، شرط أن تخطب لي الفتاة التي أحبها بأسرع وقت. هي لا ترفض فكرة اختياري فتاة أحبها بنفسي لتخطبها لي بعد أن باءت كل محاولاتها لتزويجي بالفشل، أمّا أنا فكنت أرفض أن تختار هي لي فتاة لا أعرفها لأدخل إلى بيتها في خطبة تقليدية ثم أتخذ قرار الزواج في وقت قياسي. وأنا من ناحيتي أصبحث الآن أرفض أن أقدّم لها إحدى فتياتي كزوجة للمستقبل، بِتُّ مقتنعاً بتلك الوسيلة البدائية أكثر من الزواج من فتاة تقبل أن تأخذ رقمي وتحادثني ليالي وأياماً طوالاً من دون أن تتبيّن صدق نيتي في الارتباط بها.

اتصلت بريما في طريق عودتي لكن المكالمة هذه المرة لم تتعدّ الدقائق الخمس، ستذهب الآن لتستأذن والدتها للخروج مع صديقتها، ثم تبدأ في اختيار الفستان المناسب ثم تبدأ برسم المكياج الذي يبهرني، وكل هذا يصب في صالحي، فمن يُعتبر خاتماً في إصبع الآخر؟

عندما تنشغل فتاة عني فهو الوقت المناسب لقضائه مع فتاة أخرى، هكذا لا تحس إحداهن بوجود الأخرى، بعينة هذهِ هي الأقرب إليّ بعد ريما، تظن المسكينة أن والدتي تعرف كل تفاصيلها لأنني أخبرها عنها كل مرة، وتعرف والدتي بالطبع أنني أهيم بها عشقاً وأنها هي الفتاة المنشودة بلا شك، لذلك ستخطبها لي بعد فترة وجيزة حالما أنتهي من تجهيز مشروعي التجاري الوهمي، ذلك المشروع

الذي يبقيني مشغولاً عن بثينة فترات طويلة أقضيها مع شريكي، وقد اقترضتُ منها خمسة آلاف دينار، أو لنقل أنها شاركت بهذا المبلغ وحالما نفتتح المطعم سيكون لها نصيب فيه. بالطبع لا أستطيع أن أثبّت اسمها رسمياً في المشروع لأنها لم تصبح زوجتي رسمياً بعد، وحالما نتزوج سيكون اسمها من ضمن شركاء المشروع رسمياً. إنها لا تعرف ما هو المشروع بالضبط، كل ما تعرفه هو مطعم مميز بطعام لم يسبق لمطعم أن قدّمه في الكويت، وسنفتتحه في مجمع الأفنيوز الشهير. نجاحه مضمون بلا شك، ولم تُتعب المسكينة نفسها بالسؤال المنطقي الذي يخطر على بال كل من يسمع هذا الادعاء. لم تسأل عن طبق واحد من تلك الأطباق المميزة التي لا تقدمها المطاعم في الكويت، ولا عن مصدر هذه الأطباق! حسناً على الأقل أنا أعرف طبقاً واحداً من تلك الأطباق اسمه ريما، ومصدره من إحدى الدول العربية الشقيقة، فالعربي أفضل من الأجنبي في الأسلوب والتعامل بكل تأكيد.

ساعة كاملة في الطريق قضيتها في التحدّث مع بثينة، لا شيء مهم، تفرح هي باتصالي وتعبيري عن حبي واشتياقي، وأقضي أنا مسافة الطريق الممل بأفضل طريقة، فلست أشتهي الاستماع إلى الأغاني الآن، لأول مرة تسألني بثينة عن التطورات في المشروع. فاجأني سؤالها المنطقي، فقد سوّفتُ في الأمر كثيراً ومضى وقت طويل على استلامي الأموال منها، وليست تسأل بتشكك لكن بدافع الفضول فقط، أجبتها بتبشيرها بقرب الافتتاح، فقد أنهينا الاتفاق مع إدارة المجمع، ودفعنا الدفعة الأولى للشركة التي ستصمم ديكورات المطعم، بل وأعددنا خطة تسويقية ستجعل الناس يصطفون في

خطوط طويلة أمام المطعم ليسجلوا أسماءهم في قائمة الانتظار. وتطير الحمقاء فرحاً لأنها ستصبح فجأة -ـ وفقط بدفع خمسة آلاف دينار من دون بذل مجهود إضافي - شريكةً في مطعم ناجح يدر أرباحاً هائلة، حتى لو كانت حصتها صغيرة لكنها ستُعتبر أحد ملّاك المطعم، وزوجة مالك أكبر حصة فيه. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ المال والحب، غير أنها ستدرك في وقت متأخر أنها ركضت وراء سراب، ولن يكون ذلك الوقت بعيداً، فقد بدأت أعذاري بالنفاد، ولن تصمد الخدعة لوقت طويل، والأهم أنها لا تملك أي دليل على تسليمي الأموال، فقد دفعتها لي نقداً، وأنا أتجنب الحديث عن المال في محادثاتنا في الواتساب، لن يكون عندها غير البكاء وندب حظها العاثر الذي أوقعها فريسة لي، أو لنقل لتلُم غباءها، فأي عاقل يجب أن يعرف أن الموضوع كله عبارة عن خدعة، تدفع هذا المبلغ من دون أن تعرف أي تفاصيل أو تأخذ أي أوراق تثبت حقها، على الأقل ليس مبلغاً يكسر ظهرها لفترة طويلة، لنقل أنني علمتها دروساً قيمة في دورة تعليمية قيمتها خمسة آلاف دينار.

أنهيث المكالمة حالما وصلت إلى المنزل، تفاجأت والدتي بعودتي فقد أكدتُ لها أنني لن أعود قبل يومين. طلبت مني الجلوس لتتحدث معي قليلاً، ها قد جاءت جلسة أخرى من محاضرات الحياة: يجب ألّا تتأخر أكثر في الزواج، ستكبر كثيراً ثم لا تكون قادراً على تربية أبنائك، حياتك فارغة بلا معنى ولا هدف.. لقد حفظت كل المواعظ، على الأقل والدي استسلم للأمر الواقع وتوقّف عن الحديث في الموضوع، بل أصبح يدعو أمي إلى أن تتوقف عن إشغال تفكيرها بهذه المسألة.

أعادت والدتي السؤال عن سبب عودتي المبكرة بعدما طلبتُ منها تأجيل الحديث، فأنا مستعجل ولا أملك الوقت للحديث الآن:

- قل لي ما الذي أعادك من المخيم؟ اسمع يا منصور، كونك لا تريد الزواج الآن أو حتى لاحقاً هو أمر بيدك في النهاية وهو خيارك أنت فقط، لكن أن تضيع حياتك باللعب مع الفتيات ثم تجلب لنا الفضائح وتشوه سمعتنا النظيفة فهنا تكون قد تجاوزت حدودك وبدأت تُلحق الضرر بغيرك.

- ماذا تعنين يا أمي؟ أي فضائح؟

- أتظن أنني لا أعرف سبب عودتك؟ حسناً، اذهب وتعامل مع الفوضى التي سببتها ثم سيكون لنا حديث آخر.

- قولي لي ماذا تعنين؟ أي فوضى؟ لست أفهم شيئاً!

تركتني وذهبت من دون جواب بينما تسمّرتُ في مكاني حائراً، هل وصلت إحدى الفتيات إلى أمي وشكت أمري لها؟

بدأت أبحث عن تفسير لما سمعته من أمي، لم يمضِ على حديثي مع بعينة إلّا دقائق قليلة وعلاقتي معها على أحسن حال، أما ريما فتستعد للقائي بكل شوق، لم تتبقَّ إلّا ياسمين، فبقية الفتيات قطعتُ علاقاتي بهنّ منذ فترة طويلة ولا أعتقد أن إحداهن قد تمكنت من الوصول إلى أمي لتنتقم مني، كحال أغلب الفتيات يتقبلن الطعنة ويكتفين بالبكاء. وفي حال كانت الفتاة أصلبَ شخصيةً فتطلق للسانها العنان في شتمي وتهديدي بثأر لا تجرؤ على تنفيذه، أعرف هذا لأنني أتجنب الفتيات اللائي ألمس منهنّ عدم خوف من عائلة أو

سمعة أو أي قيد يحول دون تجرؤ الواحدة منهن على إلحاق الضرر بسمعتي. ليس هذا جبناً بل أعتبره حكمة ضرورية يجب أن يتحلى بها المخادع ذو العلاقات المتعددة.

أنا حالياً أشك بياسمين بطبيعة الحال، ولا أعتقد كذلك أن الأمر يقتصر على أحد رآني جالساً مع فتاةٍ ما ثم أخبر أمي. لن يكون رد فعلها غاضباً وعنيفاً هكذا، فهي أبدت استعدادها لخطبة الفتاة التي أختارها بنفسي، كانت قد تقبلت فكرة أن أحب فتاة ثم أطلب منها أن تخطبها لي، فلم يعد شرط اختيارها الفتاة مناسبة قائماً منذ تجاوزتُ السابعة والعشرين. على أي حال يجب أن أتحرى القصة قبل أن أستسلم لسؤال أمي بشكل مباشر عن الفضيحة المزعومة.

أرسلتُ رسالة عبر تطبيق الواتساب لياسمين أسألها عن حالها: ياسمين عزيزتي كيف حالكِ؟ أود أن أتصل لأسمع صوتكِ، لم نتكلم منذ فترة.

وانتظرتُ ردّها الذي لم يأتِ في نفس الوقت، فهي لم تدخل إلى المحادثة بعد. علاقتي مع ياسمين غريبة، ما جعلني أستبعد الشك بها تارة، وأعود لأضعها على رأس قائمة المشتبه بها تارة أخرى، نحن لا نتحادث ونخرج بشكل كثيف مثل ريما وبثينة، لكن مع هذا علاقتنا متينة. كانت ياسمين متزوجة لسبع سنوات قبل أن تطلب الطلاق من زوجها الذي كانت تحبه كثيراً لكنه فاجأها بالزواج من فتاة أخرى من دون سابق إنذار، لديها منه ولدان تتوسطهما بنت جميلة، أكبر أبنائها عمره خمس سنوات والصغير أكملَ عامين لتوّه، كانت قد خيّرته كما تدّعي بين خيارين، إمّا تطليق زوجته الجديدة

التي لم يتمّ زواجه منها بعد، فقد تمّ العقد الرسمي لكنها ما تزال في بيت أهلها، فلن يقع ضرر كبير عليها إن طلّقها، وإمّا تطليقها هي؛ فلن تستطيع الاستمرار معه بوجود ضرّة لها.. وما حطّمها هو تخلّيه عنها بكل سهولة عندما أصرّت على موقفها وطلّقها ليعيش مع زوجته الجديدة، وتركها تحمل مسؤولية الأطفال وحدها ليعيش هو شهر عسله الجديد.

كل هذه التفاصيل حدّدت علاقتنا، فهي كانت محطّمة وحيدة لم يمر على طلاقها سنة واحدة عندما تعرّفت عليها. لم تكن ترغب سوى بصديق يحمل همومها معها، فقدت الثقة بالحب والعشرة والزواج، فلعبث أنا ذلك الدور على أحسن وجه، أتعاطف وأدعم وأشجع، لا أحاول التقرب بل أحاول مساعدتها معنوياً أو حتى إن احتاجت مساعدة في بعض الأمور، فقد أخذت سيارتها أكثر من مرة لإجراء صيانة بسيطة لها وأرجعتها بأحسن حال، فكانت تقدر وقوفي بجانبها. أصبحت أمانها بعد أن فقدت الأمان، عندها بدأت في الارتماء في أحضاني من دون أن أحاول استدراجها واستغلالها، حسب قناعتها على الأقل.

ومع تأكيدي لها أنني لا أفكر في الزواج أبداً، وردة فعلها هي الأخرى إزاء تجربتها الفاشلة، ومسؤولية الأطفال الثلاثة الذين يعيشون معها ولا يراهم والدهم إلّا مرة واحدة في الأسبوع.. كانت العلاقة تعني عدم الحاجة إلى التواصل اليومي الدائم كما في بقية العلاقات، لكن عندما نتحدث في الهاتف أو نخرج في موعد نكون في أقوى حالات الانسجام، حتى إن وجودي معها أحب إليّ من مواعيد ريما الفاتنة وبثينة العاشقة، ربما قلّة التواصل بيننا هي

السر، أو ربما شخصيتها المرحة رغم كل المآسي التي تحيط بها جعلتها مريحة بالنسبة لي. ولا أنسى سقوط كل الحدود بيننا، فلم تكن لي عندها غاية لم أحصل عليها بعد.

قررتُ أن أترك أمي لتهدأ وأتعامل مع الأمر لاحقاً، فالآن لديّ موعد أستعد له. توجهت إلى غرفتي ثم أخذت حماماً سريعاً وبدأت أغير ملابسي، أمسكت بهاتفي وانتبهت إلى وجود رسالة على تطبيق الواتساب وصلتني عندما كنت في الحمام، إنها ريما، أرسلت رسالة تقول فيها : عندي لك مفاجأة.

جلست على السرير وأنا أحملق في شاشة الهاتف محاولاً تفسير كلمتها هذه، في أي وقت آخر كانت لتبعث في نفسي السعادة والحماس لرؤيتها ولمعرفة المفاجأة التي لا بد أن تكون سارّة، لكن بعد كلام أمي أثارت الرسالة الهواجس في نفسي! هل من الممكن أن تكون ريما قد تواصلت مع والدتي بطريقة ما؟!

لم أجرؤ على سؤالها عن المفاجأة، لا أريد أن يظهر عليّ الانفعال والقلق ثم لا تكون شكوكي في محلها وتكون الفتاة قد اشترت لي هدية أو قررت التقرب مني أكثر ربما. اكتفيت بإرسال وجه مبتسم ورسالة مختصرة أعلمها فيها أنني سأخرج من البيت بعد لحظات، فأجابت: أنا بانتظارك، سأنزل إلى السوق القريب من شقتنا لتقلني منه مثل ما جرت العادة.

غيرت ملابسي بسرعة والقلق يعتريني حتى بدأ جبيني بالتعرق رغم برودة الجو. كان يجب أن نلتقي بعد أكثر من ساعة لكن ريما عجّلت اللقاء كما يبدو، بل إنها لم تسألني إن كنت أستطيع الخروج

معها الآن أو إن كنتُ سأمر على محطة لغسيل السيارات كما أخبرتها سابقاً، ربما افترضت أنني انتهيت من كل شيء عندما قلت إنني سأخرج من المنزل الآن، أم أنّ وراء الأكمة ما وراءها! إن كانت هي التي تواصلت مع أمي فلن تفشي لي بكلمة من هذا إلّا عند مقابلتي، سترغب في رؤية ردة فعلي على مفاجأتها بالتأكيد، لكن إن كان الأمر كذلك فلماذا أبلغتني بوجود مفاجأة، أم أنّ هذا كذلك ضمن خطتها للتلاعب النفسي بي؟!

خرجت من المنزل بدون مواجهة أمي متجاهلاً فضولي القاتل، ولم أتصل بريما إلّا بعد مضي بضع دقائق على تحركي بالسيارة، ربما يساعدني هذا على ضبط أعصابي والتحدث بأريحية من دون أن تشعر ريما بشيء. أنزلتُ حاجب أشعة الشمس الأمامي وفتحت غطاء المرآة، نظرت إلى وجهي المضطرب وأخذت نفساً عميقاً، أظنني أبالغ في ردة فعلي، لا أدري لماذا أهتم بالأمر إلى هذه الدرجة على غير عادتي، واتصلت بريما:

- أهلاً يا حبيبي، أنا في انتظارك في المطعم، الطاولة التي أجلس عليها مناسبة وبعيدة عن أعين الناس في الطرف البعيد من المطعم.

ابتلعت ريقي وأنا أتلقى هذا الخبر، رغم أن صوتها يمتلئ سعادةً، إلّا أنني لم أتوقع هذه الخطوة. لماذا سبقتني إلى المطعم بهذا الشكل، لست أظن أن هذا من عاداتها، لقد كانت تنتظرني دائماً لأقلها عندما نخرج معاً، ليس عليّ التشكيك كثيراً على كل حال، فهي قد ذكرت إنها تحضّر لي مفاجأة، ربما يكون الأمر إيجابياً، أرجو ذلك حقاً.

- ما بالك يا حبيبي، لماذا أنت صامت؟

- لا شيء يا عزيزتي، لم أتوقع ذهابك إلى المطعم مبكراً وانتظاري هناك، عشر دقائق وسأكون معكِ.

- حسناً إذاً، قُذ بحذر فأنا أخشى عليك من مخاطر الطريق.

- حسناً لا تقلقي، كأنك تريدين إغلاق الهاتف؟

- نعم سأغلق الخط وأنتظرك.

أنا أحب المفاجآت عادة، لكن ليس بهذه الطريقة، ليس عندما لا أكون متأكداً من كونها مفاجأة سعيدة أم ستكون ضربة تنزل على رأسي بدون أن أحسب لها حساباً، ثم إنني أكره ترقب المفاجأة حتى لو كانت سعيدة. لمَ قد يقول لك أحدهم إنه يحضِّر لك مفاجأة؟ أهم شروط المفاجأة عدم العلم بها، فلتفاجئني في نفس اللحظة من دون ترقب وانتظار، سحقاً لهذا الشعور!

لم أنتبه إلى أنها طلبت إغلاق الخط على غير عادتها كذلك، لا شك أنها تحضر شيئاً لي قبل أن أصل، إنني أسرف في التفكير، وأغلب الظن أن كل وساوسي خاطئة. لقد زرعت أمي الشك في نفسي، يجب عليّ كبح هذا الشعور، أمي تميل إلى المبالغة دائماً، سأصل وأرى.

رافقتني ريما إلى هذا المطعم أكثر من مرة، إنه مناسب جداً لنا، مطعم هادئ وراقٍ، فيه بعض الزوايا المخفية بفضل بعض الأعمدة، لا شك أن ريما جلست في إحدى تلك الزوايا. كان المطعم شبه فارغ، لم أكن أتوقع هذا الهدوء، صحيح أنني ذكرت أنه مطعم هادئ، لكن في

عطلة نهاية الأسبوع وفي هذا التوقيت لا يكون هذا الهدوء متوقعاً، ثلاثة أرباع الطاولات فارغة، هذا غريب! حتى إنني فكرت لوهلة أن ريما حجزت المطعم بالكامل، والطاولات القليلة المشغولة ليست إلّا جزءاً من المفاجأة، لن تكون هذه الفكرة صحيحة بالتأكيد.. بدأت أقترب ببطء من طاولة ريما بعدما لمحتها، ابتسمت ابتسامة عريضة حالما رأتني ووقفت تستقبلني، كان الهدف من وقوفها كما يبدو هو إبراز فستانها الأصفر الذي يبرز مفاتن جسدها.. أبهرتني زينتها الصارخة، هي مفاجأة سارّة بالتأكيد، طار كل الخوف من قلبي بعد رؤيتها بهذه الهيئة.

- لم أتردد لحظة واحدة في ترك المخيم من دون سابق إنذار لأكون معكِ، تبدين فاتنة بهذا الفستان يا حبيبتي، أنا عاجز عن التعبير، إنني منبهر، أنا ....

- لمَ أنتَ مرتبك هكذا يا حبيبي؟ بالمناسبة، ليس الفستان هو المفاجأة، إنما هو مجرد مقدمة.

- مقدمة؟ ما الذي ينتظرني إذاً؟

- لنقل إنك ستنبهر أكثر. قالتها وهي تمد يدها لتمسك يدي وتسحبني ناحية الكرسي وتُجلسني بجانبها وأردفت:

- لن تجلس على الكرسي المقابل اليوم، المطعم ليس مزدحماً كما ترى، أريدك قربي.

- حسناً يا عزيزتي، لكن أليس هذا غريباً؟ لم أتوقع أن يكون المطعم فارغاً بهذا الشكل، إنه يوم الجمعة والناس ينتظرون لبعض الوقت

بعد تسجيل طلباتهم في قائمة الانتظار للحصول على طاولة في مثل هذا التوقيت، ما الذي اختلف اليوم؟!

- ربّما عزف الناس عن الحضور إلى هذا المطعم، هذا أفضل لنا بالنتيجة، لمَ أنت متضايق؟

- لستُ متضايقاً، لكنني مستغرب، على كل حال هذا أفضل بالتأكيد كما ذكرتِ، هيا لنطلب الطعام.

- لقد طلبت كل شيء مسبقاً .

نظرت إليها ببلاهة من دون أن أعلق، بل بدأتُ أخشى أنني نسيت مناسبة مهمة، كزوج نسيَ ذكرى زواجه أو يوم ميلاد زوجته، لكن لم يمضِ على تعارفنا سوى أشهر فلن يكون اليوم ذكرى لقائنا، وليس اليوم هو يوم ميلادي، هل هو يوم ميلادها؟ لا أستطيع التذكر أي يوم هو بالضبط، لكنني متأكد أنه ليس في هذا الشهر، فعندما تعرفت عليها كانت قد احتفلت بعيد ميلادها قبلها بأسابيع قليلة كما قالت، ثم إن كان يوم ميلادها فأنا من يُفترض بهِ تقديم مثل هذه المفاجأة.

- أعلم أنكَ متفاجئ، ليس هناك مناسبة مهمة اليوم، لكن لنقل إننا سنصنعها لنحتفل بعدها بذكراها.

- أنا سعيد بكل ما يحصل يا عمري، على الرغم من عدم فهمي لما يدور، قولي لي ماذا سنصنع؟

- لا عليك، لنتناول الطعام، ثم نخرج من هنا وترى بأم عينك.

أشارت إلى النادل فلم تمر لحظات قبل أن يملأ الطعام الطاولة. إنني أعشق الأكل الشامي، هي تعرف هذا ولهذا اختارت هذا المطعم

المفضل عندي من بين المطاعم الشامية. لقد استخدمتُ هذا المطعم لأتقرب منها في بداية تعارفنا، هي من بلاد الشام، بلاد طعامي المفضل، سأكون أسعد إنسانٍ عندما تطبخ لي زوجتي الشامية أشهى أصناف مطبخهم العريق، كما تصدّق ريما بالطبع.

كانت وجبة من خيال، ريما تطعمني بيدها وأطعمها أنا بيدي كذلك، كزوجين في شهر العسل، حتى بدأت فكرة الزواج منها بالفعل تتسلل إلى عقلي، إن كانت هذه لعبة تفعلها ريما لخداعي فيبدو أنها ناجحة، بدأت أتأكد من أن المرأة الشامية تدلل زوجها أكثر من الزوجة الخليجية كما يقول بعضهم، لكنه شعور مؤقت سينتهي قريباً، ما زلت في حالة الانبهار بمفاجأة ريما، بل بمقدمة مفاجأتها.

لم يكن مفاجئاً أن تكون ريما قد دفعت الحساب مقدماً، فمن يرتب كل هذا لا يسمح للطرف الآخر بالدفع، وكوني أنا الرجل هنا وسأطلب الحساب حالما ننتهي من الطعام فقد أنهت ريما كل هذا مقدماً. أبلغني النادل بابتسامة ودودة أن الحساب مدفوع، تصنّعت بعض الرفض لفعلها، أنا من يجب عليه أن يدفع، لن أفوّت فرصة تصنّع الشهامة هذه وقد زاد تعلق ريما بيدي في هذه اللحظة، إنني خبير في التعامل مع النساء حقاً، لا أنكر أنني عشت لحظة الزهو هذه.

- سنركب السيارة الآن ولن تُرجعني إلى المنزل، سأقول لك إلى أين تتجه.

- كما تأمر حبيبتي.

لم أعترض هذه المرة ولم أستفسر، لتفاجئني كما تريد. بدأت ريما توجهني في الطريق من دون أن تذكر الوجهة.. أنعطف يميناً ويساراً

كما تقول، حتى اقتربنا من فندق راقٍ ذي خمس نجوم. فهمتُ أن الفندق هو وجهتنا فالتفتُّ ملقياً نظرة استفسار، ماذا نفعل هنا؟ أسأل نفسي علّ ريما تفهم أيضاً السؤال من نظراتي:

- إن كنت مستعجلاً على العودة إلى المخيم، فأنت مخطئ.

- فليذهب المخيم إلى الحجيم.

- جيد، هيا بنا لندخل، أنا لك وأنت لي.

- ندخل إلى أين بالضبط، مقهى الفندق؟

- المقهى؟ هههههه، لن أحضرك إلى هنا من أجل مقهى فقط، أتمنى أن تكون مستعداً.

قالت هذه الجملة في اللحظة التي ركنت فيها السيارة ثم أطلقت ضحكة فيها غنج لا يخلو من شقاوة، وترجلت من السيارة وسبقتني إلى مدخل الفندق وهي تلتفت مبتسمة كلّ عدة خطوات. بدأت دقات قلبي بالتسارع، رغم أنها لن تكون المرة الأولى التي أختلي فيها بفتاة ثم أنال منها ما أشتهي، لكن هذه المرة المسألة مختلفة تماماً، أشعر أنني أنا من يبتلع الطعم، لم يسبق لفتاة أن استدرجتني إلى مثل هذا الموقف. بدأت أمشي بخطوات مترددة وقد دخلت ريما إلى الفندق، رفعت رأسي بعد أن كنت مطرقاً إلى الأرض لهوانٍ أفكر في هذه المفاجأة.. تسمرت فجأةً في مكاني، ماذا يفعل كلبٌ أسود ضخم أمام المدخل؟ لم يكن هنا قبل لحظات، إنه يلهث ملقياً لعابه على الأرض وهو ينظر إلى عينيّ مباشرةً، كأنه يتهيأ للانقضاض عليّ، لا بد أن يحضر أحد موظفي الأمن في الفندق ليطرده بعيداً، لكن

لا أحد هنا. نبحَ الكلب فارتعشتُ، ثم تغيرت عيناه إلى اللون الأحمر القاتم، وتحوّل لعابه إلى اللون الأسود وأخذ ينصبُّ على الأرض صبّاً كأنه زيت مستعمل فاسد في ماكينة سيارة.

تراجعتُ حتى التصقت بسيارتي وأنا أعجز حتى عن الصراخ لمناداة حراس الأمن في الفندق، مددت يدي إلى جيبي لأخرج مفاتيح سيارتي لأحتمي فيها، ومن شدة ارتباكي لم أنجح حتى في إدخال يدي إلى جيب بنطالي، فأنزلت رأسي لأرى أين تقع فتحة الجيب اللعينة. أخرجت مفاتيحي أخيراً لأرى الكلب بشكله الأول، بلا عيون حمراء وبلا لعابٍ أسودَ يلوث الأرض، وخرجَ أحد العمال يصرخ على الكلب الذي كان للتو وحشاً مرعباً واستدارَ الآن ليهرب من العامل بكل جبن، بل كان يبدو أصغر حجماً الآن! هل يُعقل أن كل ما رأيته وهمٌ صنعه عقلي؟ لست ممن يخافون الكلاب فيعظمون الموقف عندما يقابلون أحدها. بدأت أمسح العرق عن جبيني وأتنفس لأستعيد هدوئي، لا أريد لريما أن تراني وأنا بهذا الحال.

- تفضل يا سيدي. قال العامل

- أنا لا أخاف الكلاب، لكنني استغربت وجوده هنا، ليس من اللائق وجوده عند المدخل أليس كذلك؟

- بالتأكيد يا سيدي، أؤكد لك أنها المرة الأولى التي يحضر فيها كلب إلى هذا المكان، لا يوجد كلاب ضالة في هذه المنطقة، تفضل يا سيدي نحن في خدمتك.

- شكراً لك.

أتاحت لي تلك المحادثة القصيرة استجماع قواي قبل الدخول إلى بهو الفندق، دخلت إلى البهو وأنا أجول بعينيّ باحثاً عن ريما لأجدها قد أعطت ظهرها لمكتب الاستقبال للتو، رفعت بطاقة بيدها وهي تشير إليّ مبتسمة. كل شيء واضح لكنني ما زلت تحت تأثير الصدمة، ما زلت لا أصدق أن ريما تنوي تسليم نفسها لي فقط، بل حجزت غرفة في فندق فخم كلّفها مبلغاً طائلاً بالنسبة إلى حالتها المادية لتكون لحظتنا هذه مميزة في نظرها. يبدو أنها تعيش لحظات عشق خالص أعماها عن أي احتمال لتلاعبي بها، ابتسمتُ بدوري واقتربت مني قائلةً:

- هل ستبقى واقفاً هنا، هيا يا حبيبي، المصاعد في هذه الجهة.

أمسكت بيدي تسحبني إلى المصعد، ثم بدأتُ في الخروج من جو الصدمة وبدأت أحتفل في داخلي بهذا الانتصار. لقد وصلت إلى مرحلة جديدة من الهيمنة على الجنس الناعم، سأجلس جلسة الملك على عرشه حين أحدث الرفاق عن أحداث اليوم، لن يلومني أحد منهم على مغادرتي المخيم صباح اليوم، سأعترف لهم بأنني لم أتردد لحظة في تركهم في المخيم وسيعذرونني بدورهم، فأنا لم أفضل فتاةً عليهم لأجل موعد تقليدي.

صعدنا إلى الدور السادس وريما متعلقة بيدي بكلتا يديها مسندة رأسها على كتفي. حسناً سأكتفي من نَسب البطولات إلى نفسي، إن ريما تعرف كيف تثير مشاعري نحوها بأنوثتها الصارخة، فتجعلني أنسى مسألة استغلالها وخداعها وأقتنع أنني أعشقها بدوري.. لكن النهاية لن تكون كما تشتهي، فلحظات الحب هذه لا تعني وقوعي في

الفخ الأكبر.

- يا حبيبي منصور، أنا في قمة سعادتي، سيكون اليوم تتويج حبنا وسأكون لك وحدك.

- أعترف لكِ يا حبيبتي أنني لم أكن لأتوقع هذه المفاجأة ولو جعلتني أحزر لمئات المرات، أنا سعيد كذلك، سأكون أنا لك وحدكِ.

لحظات وكانت ريما تمد يدها بالبطاقة لتفتح باب الغرفة، أو بالأحرى الجناح، مفاجأة أخرى! هي لم تكتفِ بحجز غرفة عادية بل اختارت جناحاً فخماً يتكون من غرفة جلوس متصلة بغرفة النوم. أجلستني ريما على الكنبة التي يبدو أنها مصممة لشخصين لكنها تكفي أربعة أشخاص بسهولة، انحنت ريما وهمست في أذني:

- انتظر هنا، سأدخل إلى الغرفة لبعض الوقت، لا تحاول الدخول ورائي.

- كما تأمرين يا أميرتي.

دخلت ريما وبدأتُ أتأمل غرفة الجلوس التي لم أنتبه إليها كثيراً عند دخولي، هناك كنبة أخرى لشخص واحد على يساري، تقابلها طاولة خشبية داكنة والتلفاز معلق على الحائط المقابل لي المغطى بالخشب الذي يشكل بعض الأرفف المليئة بقطع الزينة التي لا جدوى منها سوى ملء الفراغ وإعطاء انطباع الفخامة على المكان، ثم هناك طاولة أخرى أشبه بطاولة طعام صغيرة تحيط بها أربعة كراسٍ، والستائر الثقيلة التي إن أغلقتها لن يعبر شعاع واحد إلى داخل الغرفة. لحظة، إنني أشمُّ رائحة غريبة، كريهة كرائحة حريق، ليس

حريقاً عادياً بل كأنّ هناك طعاماً فاسداً ومحترقاً في نفس الوقت. قمتُ من مكاني أستطلع الأمر، لست قادراً على تمييز مصدر الرائحة، لا دخان ولا شيء يبدو خاطئاً لكن الرائحة تزداد تركيزاً.

هناك دورة مياه بجانب المدخل، ربما هذا هو مصدر الرائحة، دخلت إليها لكن كل شيء على ما يرام، بل إن الرائحة قلّت بشكل كبير عندما دخلت إلى الحمام: كيف لمثل الرائحة الكريهة أن تصدر في مثل هذا المكان؟ سألت نفسي، عدتُ إلى الغرفة ووقفت مستغرباً، لقد قلّت الإضاءة بشكل كبير فأصبحت الغرفة باهتة، لم تكن الأنوار مضاءة منذ البداية فقد كانت الغرف مضاءة بضوء الشمس الداخل من النافذة الكبيرة، كأنّ غيوماً كثيفة عبرت السماء وحجبت نور الشمس فجأة بعد أن كان الجو صحواً قبل لحظات. تقدمت خطوتين نحو منتصف الغرفة ثم عجزت قدماي عن التقدم أكثر، ما هذا الذي أراه؟ هناك نصف وجه يبرز من وراء الستارة، لا أستطيع تبيُّن ملامحه بوضوح كون الضوء الخافت الوحيد في الغرفة يدخل من خلفه، لكن ابتسامة مرعبة أخذت تشق فم ذلك الوجه العملاق، فمه كبير بشكل غير منطقي وأسنانه كأنها مدببة، وعيناه حمراوان كعينيّ الكلب اللعين تماماً. هل أنا أهلوس ثانيةً؟ ارتجفتُ وجاهدت لأطلق صيحة منادياً ريما، بالكاد يخرج الصوت من حنجرتي الجافة، أغمضت عيني وصرخت بصوت أعلى: رييماا!!.

فتحت عيني لأرى الوجه قد اختفى، لكن الإضاءة الخافتة على حالها، والرائحة تزداد نتانةً، لماذا تتجاهل تلك الحمقاء ندائي! فجأة دفعتني يد من ظهري لأسقط على وجهي، أحاول النهوض فلا أقوى على ذلك من شدة الخوف.. تسلقت الكنبة بمشقّة وأنا

أشهق بصعوبة.. لم يكن هناك أحد في الغرفة، الهلوسة لا تفسر الدفع من الظهر بهذا الشكل. تحرّك مقبض باب غرفة النوم أخيراً، إمّا أن تنقذني ريما من هذا الكابوس أو نهرب معاً إلى خارج هذا الفندق الملعون. فُتح الباب ودخلت، يا إلهي، إنها ليست ريما.

- أمي؟! ما الذي؟ أين؟

تقدمت أمي نحوي وصفعتني صفعة لم أتلقّ مثلها منها مذ كنتُ طفلاً، أمي لا تضربنا أبداً، اللعينة ريما، لقد أحضرت أمي إلى هذا المكان، كيف ومتى وقد استلمت مفتاح الغرفة للتو؟

- أدخلنَ يا بنات. قالتها أمي بغضب

- يا بنات؟ أيّ بنات؟

دخلت ريما إلى الغرفة تلتها بثينة، ثم ياسمين، إنها مؤامرة متكاملة، ليتني بقيت مع أمي في البيت أسألها عن سبب غضبها ولم أخرج لملاقاة الشيطانة ريما، لقد أسقطتني في شرك لم أحسب حسابه، لقد ابتعلتُ الطعم حقاً، لكن ليس الطعم الذي تخيلته. لن أكونَ زير النساء الذي سيتباهى الليلة أمام رفاقه بمغامراته النسائية.

- هيا يا حبيبي، قم لنحتفل .

قالتها ريما وأخذت ترقص أمامي بكل خبث، اقتربت ياسمين مني وقالت:

- لم الخجل يا عزيزي، دعنا نلعب بوضوح.

- لتتزوجنا كلنا في ليلة واحدة، لم لا؟ عقبت بثينة مستهزئة.

التزمث الصمت ولم أعرف كيف أرد أو على مَن أرد أصلاً! أمي واقفة تراقب بصمت، ريما المجنونة تتمايل راقصةً كأنها تحتفل حقاً، لا يبدو على أي من البنات الغضب، لا تبدو على أي منهن الغيرة من الأخريات، كأنهن اتفقن على الانتقام مني من دون الحقد على بعضهن، فهنّ ضحاياي أنا وحدي ولم تسرقني واحدة من أحضان الأخرى، لكن والدتي من ناحية أخرى كانَ الشرر يتطاير من عينيها، لقد تكلمت عن السمعة والفضائح التي أتسبب بها عندما كنا في المنزل، ولا بد أنها تشعر كذلك بالحرج من الفتيات اللواتي تلاعبَ ابنها بهن، لكن الغريب أنها تعاونت معهن وحضرت إلى الفندق، ربما تريد التأكد من أنني مستعد للدخول إلى غرفة الفندق والاختلاء بفتاة لا تحلُّ لي، ربما كانت متعلقة بأمل رفضي للدخول إلى هنا. بالتأكيد وضعت لي الأعذار كما تفعل كل أم قبل أن تصطدم بوقاحتي التي لا تتناسب مع تربيتها لي.

صاحت بي أمي:

- ثلاث فتيات يا منصور؟ ماذا كنت تنوي؟ هل اللهو مع واحدة لا يكفيك؟

- لا يا أمي، أنا لا ألهو، إنما كنت أتأكد من اختياري، كنت فقط أريد أن...

قاطعتني بغضب:

- اخرس، تريد التأكد بعد أن سرقت مال بعينة؟ تريد المقارنة بعد ما خدعت ريما ووعدتها بالزواج حتى إذا سلمت نفسها لك لم تتردد وعدتَ من الصحراء لتأخذ شرفها يا وقح.

- أنا لم أكن أعلم شيئاً عن الفندق أقسم لكِ، لقد كان موعداً عادياً في المطعم، قولي لها الحقيقة يا ريما.

لم ترد ريما، وعقّبت ياسمين على كلامي بدلاً منها:

- لا تحاول أن تدّعي أنك لم تكن تريد ذلك، لقد كنت تعترف لي أنك لا تريد الزواج، وأن ما بيننا هو مجرد علاقة مؤقتة ستنتهي في يوم من الأيام، لم أمانع أنا ذلك فأنا كنت أريدك بجانبي فقط من دون التفكير في المستقبل، لكنني لم أتخيل أنك تستغل الفتيات بهذا الشكل، ألم أكن أنا كافية لك؟

يبدو أنه لا فائدة من التبرير فالتزمت الصمت، توقفت ريما عن الرقص وقالت:

- لقد وعدني بالزواج، كنت أظنه يهيم بي حباً.

- لقد وعدني ذات الوعد، لكنه أضاف إلى سرقة قلبي سرقة أموالي، لقد صدّقت كذبته بشأن مشروعه التجاري، لا بأس سننتقم منه الآن.

تذكر بثينة الانتقام بدلاً من مطالبتي بإرجاع أموالها، بل أحسست من نبرة صوتها عندما تحدثت عن الانتقام أنها مستعدة لدفع خمسة آلاف دينار أخرى لتنتقم مني انتقاماً يوجعني كما أوجعتها. استسلمت للأمر الواقع، كان لا بد من أن ينكشف تلاعبي بهن في يوم من الأيام، لكن ما عساهن يفعلن؟ لو كان بيدهن أن ينتقمن مني كما قالت بثينة ما كنّ لجأنَ إلى أمي لتعينهنّ عليّ. هدأت أعصابي بعد أن خطرت ببالي هذه الفكرة: ثلاث فتيات يائسات مكسورات، سحقاً

لهن، أمي ستنسى ما حصل ولو بعد حين، انا ابنها في النهاية ولن تسعى إلّا إلى قرصة أذن تؤدّبني بها.

اطمئناني النسبي أعادَ إلى ذهني التركيز على الرائحة النتنة، كيف لا تعلّق أي منهن عليها:

- ألا تشممنَ هذه الرائحة النتنة؟

- إنها رائحتك أنت أيها القذر.

قالتها بعينة فور انتهائي من جملتي، أتفهّم كونها أكثرهن حقداً عليّ، فأنا سرقت مالها فضلاً عن قلبها.

- أنا أتكلم بجدية، هناك رائحة نتنة، ثم أين ذهبت الشمس؟

- علمنا أنك وقح، لكن لم أتخيلك بهذه الوقاحة، أتحاول التهرب من عارك بهذا الشكل السخيف؟

أخيراً نطقت ريما، لكن لأول مرة تهاجمني بهذا الشكل، لا يهم أي شيء، لقد امتلكن القوة بفضل عنصر المفاجأة التي صعقنني بها، لكن إلى أي مدى من الحقد يمكن أن يصل هذا الفيلم السخيف؟! وقفت وقلت بحزم:

- اسمعنني جيداً، لقد انكشف كل شيء، وأنا لا أكترث لذلك، ما تظنّ أنفسكن فاعلات؟ تُحضرن أمي إلى جناح في فندق فاخر وتنشرنَ الرائحة النتنة في الغرفة وتحاولن إرعابي بقناع ما؟

حاولتُ خلق عذر منطقي لما حدث غير أن أكون قد تخيلت شيئاً غير موجود، لكن هذا لا يفسر وجود الكلب الأسود عند المدخل،

سأكتفي بما قلت وأتجاهله، كأنه لم يحدث.

- ماذا تردنَ مني الآن؟

- يا منصور يا ولدي، لا تكابر على خطيئتك، أتظن أنهن من يردن منك شيئاً الآن؟ أنت الذي تحتاجهن وليس العكس، ليتك تصحو من غفلتك.

لقد بلغت أمي مبلغاً من التعاطف معهن أنساها المنطق البسيط، ربما مجرد فتاة من عائلة مقيمة بسيطة لا تملك أن تضرني بشيء، بعينة الساذجة لا تملك أي إثبات على تسليمها المال لي، فلتجرب حظها في رفع دعوى قضائية ولتحاول أن تثبت ادعاءها، هذا إن تجرأت أصلاً على مصارحة أهلها بما حدث، أما ياسمين فجلُّ ما يهمها هو حضانة أبنائها التي ستخسرها لصالح طليقها إن انفضحت علاقتها غير الشرعية بي، لهذا أحضرن أمي، هنّ يعرفن أنهن لا يملكن أي شيء ضدي، لكن أمي طيبة القلب وتعاطفت معهن.

- خسارة، ضاعت أموالكن على استئجار هذا الجناح من دون أن تجنين أي فائدة، فعلاً أنتنّ ناقصات عقل. آسف يا أمي لكنك وافقتِ على هذه الخطة السمجة، لماذا لم تجتمعنَ في البيت مثلاً وتواجهنني عند دخولي، يا للنساء!

- كفى يا منصور، سترافقنا الآن لنذهب إلى مكان أفضل ونحل الموضوع حلاً يرضي جميع الأطراف، باستثنائك أنت على الأرجح.

- حسناً سأذهب معكن حيث تردن، هيا بنا.

كنت أريد الخروج من الفندق اللعين، فما يزال هناك مقدار من

الرعب في قلبي بسبب ما رأيته هنا، الكلب ثمّ الوجه المرعب المقنّع، لم يكن قناعاً بالتأكيد، لم أكن أنا نفسي مصدقاً لذلك التفسير.

- سنستقل سيارتكَ، لكنني أنا سأقود السيارة.

أمي ستقود! لا بأس، فليكن لها ما تريد، ربما أُسايرها قليلاً فهي الوحيدة التي يهمني رضاها هنا. خرجنا من الغرفة وأحسست بهواء نظيف أخيراً يدخل إلى أنفي، هواء لا تلوثهُ تلك الرائحة المقززة. كانت أمي تتصدر الموكب بعد ما أخذت مفاتيح سيارتي، بثينة عن يميني وريما عن يساري، وياسمين تسير ورائي، خرجنا من باب الفندق وتوجهنا إلى السيارة. كانت السماء غائمة بالفعل، لا أدري كيف تجمعت الغيوم خلال لحظات بعدما كانت السماء رزقاء صافية!

سألتُ أمي فور تحرك السيارة:

- أين نحن ذاهبون يا أمي؟

- سترى.

- ماذا تعنين؟ ماذا تردن مني الآن؟ حسناً لقد كذبت وكنت لعوباً، ثم ماذا؟ كل الشباب هكذا.

- كلهم؟

- أغلبهم، نصفهم، لا يهم، ما المطلوب مني؟ إن وجود أمي في صفّكنّ لن يغير شيئاً.

- وبثينة التي سرقتها؟

- لماذا صدّقتِها يا أمي، لا تملك أي إثبات على ادعائها، إنها كاذبة.

- حسناً، ليس المال غايتها على كل الحال.

- تريد الزواج مني إذاً؟ هاهاها، أوصلث إلى هذه المرحلة من اليأس؟

خرجت بثينة عن صمتها وصاحت بي:

- بل أريد الانتقام.

- ونحن كذلك. تجاوبت معها ريما وياسمين.

بدأ الاطمئنانُ والثقة اللذان امتلأث بهما يغادران صدري وعاد الضيق ليسيطر عليّ، كأن الأوكسجين بدأ بالتناقص داخل السيارة. كانت أمي تقود السيارة وبثينة بجانبها، وأنا في الخلف، ريما عن يميني وياسمين عن شمالي، كأنني سجين يخشينَ هروبي. لقد استخففث بجلوسهنّ حولي هكذا كأنهن قادرات على منعي إن أنا حاولت الهروب، يمكنني بكل بساطة حال توقف السيارة أن أمد يدي وأفتح الباب وأدفع إحدى الفتاتين ضئيلتي الحجم.. ستكون ريما بالتأكيد فهي أصغر حجماً من ياسمين، وأدفعها خارج السيارة لأخرج، ولن تستطيع ياسمين التشبث بي بشكل كافٍ لتثبيتي على المقعد. هممت بتطبيق خطتي بالفعل، توقفنا عند شارة مرور خالية من السيارات، لن أنتظر حتى نذهب إلى مكان تنتظرني فيه مفاجأة أخرى، مددت يدي وفتحت قفل الباب بسرعة ثم طالت أصابعي مقبض الباب محاولاً فتحه.

ريما بكل رقّتها ودلالها، ذات الأصابع الدقيقة واليد الناعمة تحولت إلى وحش كاسر، لم أفهم كيف تمكنت من سحب يدي والضغط

عليها ودفع أصابعي إلى الخلف لأصرخ من شدة الألم، وياسمين لم تكتفِ بالضحك، بل كان الضحك يصاحب سحبها ليدي الأخرى وتثبيتها بشكل مؤلم بدورها. لا يمكن أن تمتلك الفتاتان هذه القوة! غضبتُ وصرخت وقررت ضربهن، لا بد أنني استهنت بقوتهن لكن الآن سأريهن قوتي وأوسعهنّ ضرباً. نجحتُ في سحب يدي اليمنى وحاولت خنق ريما ريثما أتمكن من سحب يدي اليسرى من قبضة ياسمين، لكن قبل أن أحكم قبضتي على رقبتها التفتت ناحيتي وكوّرت قبضتها لتسدد لي لكمة على وجهي أصابتني بعمى لحظي، كأن فلاشاً قوياً أومضَ في عيني، وبدأت أحسّ بالدم يسيل على شفتي العليا، ثم انقلبت خطتي ضدي وخنقتني ريما وياسمين تثبت يديّ. أمي ما زالت تقود السيارة كأنّ شيئاً لم يكن، أما بثينة فكانت تراقب ما يحصل مستعدة للتدخل ربما. بدأت قواي تخور، أشعر بنعاس غير النعاس المألوف، كأن دماغي يتخدر رغماً عني. أحاول الصراخ والاستنجاد بأمي لكني لا أقوى على إطلاق أدنى صوت، يا للهول! إن عين بثينة تتغير، انقلبت إلى اللون الأحمر الداكن كعين الكلب والوجه الضاحك الذي رأيته خلف ستارة جناح الفندق. إنني لا أهلوس، أدرك هذا الآن رغم أنني في أضعف حالة.

ازداد الظلام تدريجياً حتى لم يبق ما أستطيع رؤيته إلا وجه بثينة المرعب. ابتسمتْ وظهرت أسنانها المدببة وبدأ اللعاب الأسود إياه يسيل، مدّت يدها لتتحسس وجهي بأصابعها الطويلة، بدأت تجرح خدي بأظافرها، بل بأنيابها الحادة، إنها شيطان بالتأكيد، جنية لا شك، لهذا قالت إنها لا تريد المال، ما عساه يفعل الجني بالمال؟

قالت أمي، أو الجني المتشكل على هيئة أمي: وصلنا.

جاهدت كي أحرّك رأسي وأحاول الالتفات واستطلاع المكان، إننا في البر، أي بر هذا الذي وصلنا إليه بهذه السرعة؟ نزلت أمي من السيارة وتبعتها بقية البنات، صاحت بهن: أخرجنه. تحركت ريما إلى الباب الآخر لتسحبني إلى خارج السيارة بمساعدة ياسمين وأنا لا أملك أدنى طاقة على الحركة. أمسكتا بكتفيّ وغرستا مخالبهما فيهما وسحبتاني إلى خارج السيارة مع بدء نزف الدم جراء الجروح. سقطت رجلاي على الأرض وسحبتاني عدة أمتار قبل أن تتركاني على الأرض، أدرتُ وجهي إلى اليسار لأتفاجأ بالمكان. يا إلهي، إنه مخيمنا لماذا نحن هنا؟ وكيف وصلنا إلى المخيم في هذا الوقت القصير؟ لقد فقدت الإحساس بالوقت كما يبدو.

- فراس، خالد، عامر .

بدأت أنادي الشباب لعلهم يساعدونني، يُفترض أنهم موجودون، لكنني لا أرى أي أثر لهم، اقتربت أمي مني وأخذت تنظر إليّ باشمئزاز وهي واقفة فوق رأسي.

- أمي، أرجوكِ ساعديني، أنا ابنكِ مهما أخطأت.

لم ترد على توسلاتي، انحنت عليّ وأمسكت برقبتي، يدها بشرية على الأقل وليست مثل يد الجنيات اللواتي معها. بدأت تخنقني، وبدأت أشهق لأسحب بعض الهواء إلى رئتي، لم تخنقني بشكل كامل لكن الهواء شحيح، بدأت الدنيا تظلم حولي، إنني أفقد وعيي. تركت أمي رقبتي لكنني ما زلتُ مختنقاً، أغمضت عينيّ واستسلمت للنوم.

جراح

يجب أن أعود حالاً، هناك مشكلة في كراج تصليح السيارات الذي أملكه، لقد أرسلَ إليّ مدير الكراج رسالة صوتية على تطبيق الواتساب لكنني لم أفتحها إلّا الآن بعد أن استيقظت من نومي، هناك زبون غاضب كان يفترض به استلام سيارته بعد إصلاحها بالأمس، وقد حضر بالفعل لاستلامها لكنه اكتشف عدم إصلاح الخلل بالشكل المناسب، فما زالت السيارة تعاني من عطلٍ ما، أو بالأحرى هي تعاني من مشكلة مختلفة غير التي كانت تشكو منها في البداية، فاتهمنا الرجل بأننا السبب في تعطل سيارته بسبب إهمالنا، وهو ما لن أسمح به، فالكراج له سمعته التي يجب أن تظل ناصعة بين الناس لا تتلطخ بمثل هذه الأخبار، فأهم ما يميز كراجاً عن البقية هو سمعته بين الزبائن.

الكراج يبقى مغلقاً إلى فترة العصر في يوم الجمعة، وهذا ما يعطيني بعض الوقت بعد أن استدعيت اثنين من العمال للحضور باكراً مع مدير الكراج والعمل على إصلاح السيارة بعد صلاة الظهر، وسأشرف عليها بنفسي لتكون جاهزةً للاستلام ليلاً .

- صباح الخير يا أبا محمد، معك جراح مالك الكراج، أود أن أعتذر منك على الخطأ الذي حصل في سيارتك وأؤكد لك أنني سأشرف على إصلاح الخلل بنفسي وستكون جاهزةً عصر اليوم، لا شك أن الخلل الذي حصل هو إعادة تركيب قطعة من القطع التي اضطررنا إلى فكها لنصل إلى العطل الرئيسي عند إصلاحه، ما يعني أن المشكلة بسيطة ولا تحتاج إلّا إلى إعادة ضبط القطع الميكانيكية

وكل شيء سيكون على ما يرام، لا تقلق، سلام.

أرسلت لصاحب السيارة هذه الرسالة الصوتية حسب المعطيات التي أفادني بها مدير الكراج، سيقدّر العميل بالتأكيد تواصل صاحب الكراج معه وليس المدير الذي تشاجرَ معه بالأمس، لقد اكتسبت خبرةً لا بأس بها في التعامل مع الزبائن من خلال هذا العمل. أغلب الزبائن يسهل إرضاؤهم، حتى عند وقوع مشاكل مثل هذه، والذي لا يعرفه أغلب الناس فإن من يصرخ ويتشاجر ويتوعد هو أسهل إرضاءً من باقي الزبائن، عليك فقط أن تعرف كيف تمتص غضبه في البداية، ثم توهمه بالانتصار، البداية تكون مع الميكانيكي ثم يصل الزبون إلى مدير الكراج ليصب عليه جام غضبه ويتهمه بالتقصير ويتوعده بالشكوى والانتقام، ثم يأتي دوري لأتدخل وأستعلم عن سبب الفوضى، فأغضب أنا بدوري مؤيداً له وأكمل مسلسل الصراخ على مدير الكراج والميكانيكي اللذين يعرفان هذا الأسلوب مسبقاً ويتحملان التوبيخ أمام الزبون حسب الاتفاق بيننا، ثم تأتي الوعود بإصلاح الخلل أولاً وبإجراء أعمال إضافية مجانية للسيارة كاعتذار وتعويض، أعمال لا تكلفنا شيئاً ثم يخرج الرجل ويحكي قصة تأديبنا في كل ديوانية، حتى إن بعض أصدقائه سيأخذونه معهم عند استلام سياراتهم من الكراجات في أي مناسبة لاحقة.

التعامل مع الناس فن لا يتقنه الجميع، بل لا يدركه إلّا قلة قليلة وأنا منهم بالطبع. لم أقدم بعد أي وعود لأبي محمد عن أعمال إضافية سنقوم بها تعويضاً له، هذا يعتمد على تجاوبه معي، والذي أظنه سيرضى بسرعة، خصوصاً أن مدير الكراج اكتفى بإرسال المشكلة على الواتساب ولم يتصل بي، ونجح في إقناعه بإصلاح

الخلل خلال يوم واحد.

سأتجه إلى الكراج مباشرة، يجب أن يكون العمال قد وصلوا الآن، مررت على مقهى لآخذ كوباً من القهوة السوداء قبل أن أصل إلى الكراج، ارتشفت رشفة، مقهى جيد، ليس الأفضل لكنه يفي بالغرض، أشعلت سيجارتي وأكملت طريقي إلى الكراج، دقائق وكنت واقفاً مع مدير الكراج أستفسر منه عن العطل:

- ألم تجد يوماً أفضل من اليوم لتصنع لي مشكلة كهذه؟ خبرتك أكبر من هذا يا جلال، ما الذي حصل بالضبط؟

- ولو يا كبير، أنت تعرف أنني لا أقع في أخطاء تافهة، لكن الدينمو تعطل فجأةً، كان كل شيء على ما يرام بالمناسبة، لهذا اكتفيت بإعلامك بالمشكلة عبر الواتساب ولم أتصل، كل شيء كان تحت السيطرة، ما كنت سأزعجك أصلاً لولا إصرارك على معرفة كل مشكلة صغيرة تحدث.

- أي سيطرة والسيارة تعطلت وسط الشارع، ثم إنك تعلم أنني أفضل التعامل مع الأمر بنفسي، تعرف انعكاس ذلك على الزبائن، لست أقلل من قدرتك على التعامل مع الأمر، لكن أخبرني كيف حدث هذا العطل؟ ألم تختبروا القطعة جيداً؟

- بلى، اختبرناها كما هي عادتنا وكانت تعمل بشكل ممتاز، لكن بعد استلام الزبون السيارة وخروجه بربع ساعة تقريباً ظهرت المشكلة وعاد إلى الكراج. لقد انطفأت السيارة أكثر من مرة، لكن لحسن الحظ كان قريباً ونجح في العودة من دون الحاجة إلى قطر السيارة. لقد تعاملث معه بأفضل شكل لا تقلق.

- ألا تظن أنه شك بشيء؟

- لا أبداً، لا يبدو عليه أنه خبير في أمور السيارات أصلاً.

- جيد، لو كان خبيراً لعلم أنه لا حاجة لفك دينمو السيارة عند إصلاح تسريب زيت بسيط، لكن أتدري؟ أنت أحمق.

- لماذا؟

- كنت تستطيع تبرير عطل الدينمو، إنه يعلم أن المشكلة عبارة عن تهريب زيت من الماكينة، وهذا الزيت بطبيعته يسقط على شكل قطرات من رأس الماكينة، التبرير المناسب كان سقوط الزيت على الدينمو بشكل متكرر مما سبب تعطل الدينمو، بهذا لا نكون أخطأنا في عملنا، بل سنكون كسبنا عملاً آخر وهو تبديل الدينمو على حسابه بدل إرجاع الأصلي.

- حقًا إنك أستاذ، لا يمكنني التفوق عليك.

- هيا باشروا العمل، سأذهب الآن وأعود بعد وجبة الغداء، سيحضر الزبون عند الساعة الرابعة أليس كذلك؟

- نعم ولا أظن أنه سيتأخر، يريد استلام سيارته بأسرع وقت.

- ممتاز، سأكون في المخيم عند الغروب إذاً.

تفحصت السيارة قبل أن أغادر لأتناول وجبة الغداء في مكان ما قبل أن أرجع لأقابل صاحب السيارة وأسحره ببعض الكلمات وبتحوير القصة قليلاً. سأجعله يشعر بالامتنان بدل السخط، وكلما قلّت معرفة الزبون بالميكانيكا سهل خداعه أكثر. ينفّذ أغلب

الميكانيكيين سرقاتهم ونصبهم من دون اهتمام لشعور الزبائن. المهم عدم اكتشاف الزبون السرقة بشكل واضح، لا يهم إن خرج غاضباً يتهمهم بإفساد سيارته، طالما أنه لا يملك دليلاً يواجههم به، تكون الأعذار دائماً هذا العطل كان موجوداً مسبقاً لكنه لم يبرز، لم نلمس تلك القطعة أثناء عملنا على السيارة، لقد كانَ تزامن تعطّلها مصادفة لا دخلَ لنا بها. والمزيد من الأعذار التي يقسم الزبون بعد سماعها بعدم الرجوع إلى هذا الكراج حتى لو صدّقها على مضض. لكنني لا أنفّذ سرقاتي بهذا الغباء، أنا أكسب الزبون الذي أسرقه، أجعله يؤمن إيماناً خالصاً بكفاءتي وأمانتي: "حصل خطأ يا سيدي وهذا وارد، لكنه لن يمر مرور الكرام، سنتحمل جميع الأضرار وتخرج سيارتك بأفضل حالاتها"، مع بعض الهدايا البسيطة التي تسعد الزبون الساذج.

إن لم يكن واضحاً كيف أسرقهم، فهذا عمل دارج في بعض الكراجات، نحن نصلح الأعطال التي يشتكي منها الزبون، وننفذ ضربتنا في مكان آخر، فهناك مستودع صغير لدينا لقطع الغيار المستعملة والجديدة المقلدة بجودة منخفضة وتُشابه القطع الأصلية تشابهاً شبه تام. وكراجي متخصص بالسيارات الفارهة بالإضافة إلى السمعة الطيبة الناتجة عن كفاءتنا في إصلاح الأعطال بأسعار مناسبة بالنسبة إلى تلك السيارات. يقوم الميكانيكي بتفحُّص السيارة وقِطَعها شبه الجديدة، ثم نقوم باختيار قطعة أو أكثر يصعب اكتشاف تغييرها، ونستبدلها بتلك المقلدة الرخيصة، فيخرج الزبون راضياً بإصلاح سيارته غير عالم بما حدث من استبدال تلك القطع. فتلك القطع المقلدة الجديدة أو حتى المستعملة تقوم

بالمهمة على أكمل وجه، لوقت معين بالطبع، ثم سيعود الزبون مرة أخرى عند تعطلها لنقوم بإصلاحها. وفي أغلب الأحيان يختار الزبون قطعاً أصلية، فإما يشتريها بنفسه ويجلبها لنا لتركيبها فنقوم بتركيبها بدون تلاعب، أو يشتري القطعة الأصلية المستعملة من مستودعنا، فنحن نستورد تلك القطع الأصلية المستعملة استعمالاً خفيفاً وهي بحالة ممتازة، أو هكذا نقنع الزبائن، وهنا يقع أحياناً ما يثير السخرية، فيشتري الزبون القطعة التي سرقناها منه في مناسبة سابقة.

وصلت إلى مطعم قريب يبيع الوجبات السريعة، وجلست لأشبع بطني في وقت قصير، فالساعة قريبة من الرابعة ولست أهتم بتناول غداء دسم، فالعشاء الشهي ينتظرني في المخيم. ربما لم يكن الأمر يستحق عودتي من المخيم، فمدير الكراج والميكانيكي سيقومان بالمهمة على أكمل وجه، لكن ضمان عودة الزبون هذا إلى الكراج يحتاج إلى هذه المعاملة الخاصة، ثم إن أوقات الظهيرة في المخيم مملة عادة. لن يفوتني شيء مثير على كل حال. قلتها مخاطباً نفسي وأنا أحمل ساندويش البيرجر لأقضمه مطمئناً إلى ازدهار أعمال كراجي الحبيب.

دقائق أنهيت خلالها طعامي وقمت لأعود إلى الكراج، خرجت من باب المطعم مستغرباً وأنا رافع رأسي إلى الأعلى، فقد انقلب الجو بسرعة غير منطقية، لم أكن أعلم أن السماء ستكون غائمةً اليوم، ربما ستفسد الأمطار ليلتنا في المخيم. أرجو أن تكون أمطاراً خفيفةً وتنتهي بسرعة. ركبت سيارتي وحاولت إدارة المحرك، أسمع صوت جهاز تشغيل المحرك، لكن المحرك لا يعمل: ليس وقتك الآن. قلتها

متذمراً، فسيارتي حديثة وبحالة ممتازة بطبيعة الحال، فأنا أقوم بفحوص دورية عليها في الكراج، لكن كوني مهندساً ميكانيكياً وصاحب كراج لا يعني أنني لا أتعرض إلى أعطال في سيارتي. من الواضح أن البنزين لا يصل إلى المحرك بشكل جيد، هذا أرجح تفسير لما يحصل، ربما مضخة البنزين لا تعمل، إنها حديثة لكنها تعطلت، اللعنة!

ليس هذا وقتاً مناسباً لتعطل السيارة، وإن كان ليس هنالك وقتٌ مناسبٌ لتعطل السيارة بكل الأحوال، لكن هذا الوقت أسوأ من غيره بالتأكيد، لن أترك السيارة مقابل المطعم، فلن أعود لأحركها إلّا في يوم الأحد بعد العودة من المخيم، لا بد من قطرها إلى الكراج حيث سأحاول إصلاحها بسرعة هناك، إن كانت المسألة فعلاً تعطل مضخة البنزين فهو أمر بسيط لن يأخذ أكثر من ساعة عمل في الكراج، لنأمل أن يكون الوضع كذلك فعلاً .

اتصلت بسيارة القطر التي نتعامل معها عادةً، ستكون هنا خلال عشرين دقيقة. جيد أن الأمور تنحل بسرعة بعد أن تتعقد، سأغير رأيي بموضوع الوقت المناسب لتعطل سيارتي، إنني قريب من الكراج، سيارة القطر ستصل خلال وقت قصير، الميكانيكي موجود في الكراج فلن أضطر للعمل بيدي، وكنت أنوي المرور على الكراج مسبقاً. ابتسمت ابتسامة ارتياح غير معترض على تعطل السيارة، على عكس شعوري السابق قبل دقيقتين.

أشعلت سيجارة وانتظرت بجانب السيارة. اقتربت سيارة وتوقّف بجانبي وترجّل منها شخصان وتوجها نحوي:

- هل تحتاج أي مساعدة؟

- كل الأمور على ما يرام، سيارة القطر قادمة في الطريق.

- دعنا نلقي نظرة، ما المشكلة؟

- شكراً لك لا داعي لذلك، أنا مهندس ميكانيكي وصاحب كراج، سأحمل السيارة إلى الكراج وأصلحها.

- باب النجار مخلوع يا صديقي، هاهاها.

- حتى الطبيب يُصاب بالمرض، هاهاها.

- ليست تلك المشكلة، إنما المشكلة عندما يكون النجار غشاشاً، يغش زبائنه بنوع الخشب، أليس كذلك؟

قاطعت الرجل بقولي:

- ماذا تعني؟

- أعني أن كل مهنة فيها مجال للتلاعب، ولا يسهل على غير ذي الدراية بذلك المجال كشف التلاعب، أليس كذلك يا حضرة المهندس؟

- لستُ أفهم ما الذي ترمي إليه!

- على العكس تماماً، أنت تفكر بالشيء الذي أقصده بالتحديد، لكنك تضع احتمالاً ساذجاً أن يكون الحوار هذا مجرد صدفة غريبة.

- هل تعني أنني أتلاعب بالسيارات في كراجي؟ أنا لا أسمح لك أن توجّه مثل هذه الإهانة، هل تعرفني يا أخ أم أنك توقفت لمساعدتي

بالفعل؟ كيف علمت أن سيارتي معطلةٌ أصلاً؟ فغطاء المحرك ليس مفتوحاً، ليس هنالك ما يدل على عطل، سيارتي متوقفة في موقف رسمي مقابل المطعم، ولا أظن أن تدخيني لسيجارة بجانب سيارتي تعني طلب المساعدة من المارة!

- يا له من تحليل! كلامك سليم يا صديقي، لكن تأمّل جيداً، ألا تتذكر هذه السيارة؟

- حسناً حسناً، لقد فهمت الآن، لقد أصلحتَ سيارتك في كراجي وتعطلت سيارتك مرة أخرى، وتظن أنني غششتك.

- لا أظن ذلك، بل أنا أعرف ذلك يقيناً.

- لم يكن عليك فعل كل هذا، أتلاحقني؟ كنت تستطيع الاتصال أو المرور بالكراج وسنعمل على اكتشاف الخلل، إن كان خطأً منا فتأكد يا سيدي أننا سنصلح الخطأ ونعوضك كذلك، الأخطاء واردة في هذا المجال لكننا لسنا غشاشين، هل تستطيع شرح مشكلة السيارة بالضبط؟

- وهل تشمل الأخطاء استبدال القطع الأصلية السليمة للسيارة بأخرى مقلدة؟

- يستحيل أن يحصل هذا، الكراج مراقب بالكاميرات على مدار الساعة، وإن حاول أحد الميكانيكيين التلاعب فسنضبطه، لقد وجهتَ لي إهانة يا سيدي، لكنني على الرغم من هذا أتفهم موقفك بل وأدعوك إلى الحضور إلى الكراج لمراجعة فيديو كاميرا المراقبة، كل شيء سيكون واضحاً أمامك، وستخرج راضياً، أعدك بذلك.

- حسناً لا بأس، هل ترافقنا؟

- لا داعي لذلك ستصل سيارة القطر الآن، سأستقلها إلى الكراج، ونلتقي هناك.

يظن ذلك الأبله أنه كشف تلاعبي، أنا لا أذكره أصلاً، فالكثيرون من الزبائن والسيارات تدخل الكراج يومياً، وأنا أذكى من أن أضع كاميرات مراقبة على كل منطقة صيانة ثم نقوم بالتلاعب بكل وضوح أمامها. هناك خطوات لإصلاح السيارات، أولاً تدخل السيارة إلى منطقة التسليم حيث تنتظر السيارة دورها للولوج إلى منطقة الصيانة المقسمة إلى محطات متعددة كل منها تراقبة كاميرا مراقبة. وبعد الإصلاح نحرك السيارة إلى منطقة الاختبار، هناك حيث لا يوجد إلّا كاميرا مراقبة واحدة لا تكشف كل المنطقة، نقوم باستبدال القطع في الزوايا غير المكشوفة، ثم منطقة التسليم حيث تنتظر السيارة صاحبها ليستلمها ويغادر الكراج. أنا جاهز لمواجهة مثل هذه المشاكل.

بقيَ الرجل واقفاً بجانب سيارته يحدق فيّ بحقد، يبدو أنه يخشى هروبي منه، ما فائدة الهرب وهو يعرف الكراج؟ إن انتظاري بهذا الشكل لا فائدة منه سوى إرهابي وإيصال رسالةٍ مفادها أنني تحت مراقبته. لم أعر نظراته أي اهتمام لأردّ له رسالته بثقتي بنفسي وبسلامة موقفي، بل بادرته بابتسامة بعدما اتصل سائق شاحنة القطر ليؤكد قرب وصوله ويستفسر عن مكاني بالضبط وقلت: ها هي الشاحنة وصلت، نلتقي في الكراج.

أخذ يراقب عملية رفع السيارة على الشاحنة وبدأ بالتحرك وراءنا.

يظن الأحمق أنه بفعله هذا سيغير شيئاً. لقد تعاملت مع من هم أكثر منه خبرةً، أقول هذا على الرغم من عدم معرفتي بخبرة الرجل في المجال، لكن على كل حال لقد مررت بمواقف كاد يستحيل الخروج منها بلا فضيحة، واتهام الزبون لنا بذات الاتهام، وكان يؤكد أن قطعةً في سيارته يفترض بها أن تكون على حالها منذ خروج السيارة الجديدة من الوكالة التي اشتراها منها، لكنها تبدلت إلى قطعة مقلدة قبل أن تعطب. عرضتُ على الزبون فيديو العمل على السيارة فاعتذرَ عن اتهامنا بالتقصير وذكر أنه أدخل سيارته في السابق إلى كراج آخر، ثم استُبدلت له تلك القطعة بسعر رمزي زهيد كتأكيد على حرصنا على إرضاء زبائننا. أصعب حالة تكون عندما يعتمد الزبون على كراجنا فقط لإجراء الصيانة بعد تنفيذها في الوكالة قبل ذلك، فيصعب التصديق بطبيعة الحال أن الوكالة قامت بعملية التلاعب هذه، لم تحصل حالة مثل هذه حتى الآن، لأنه من النادر أن يعتمد شخص على كراج واحد فقط، فالنصيحة المنطقية الدارجة هي البحث عن أكثر من كراج قبل اعتماد أحدها، فيكون الشخص قد زار عدة كراجات لإجراء صيانة وإصلاحات، ناهيك عن الحوادث التي تتعرض لها السيارة ويتم إصلاحها، فحتى كراجات الحدادة التي تصلح تلك الحالات يمكنها التلاعب بالقطع. أرجو ألّا تكون هذه أول حالة لسيارة لم تدخل إلى كراج آخر لإجراء صيانة ما، فالسيارة حديثة الطراز.

وصلنا إلى الكراج وبدأ سائق الشاحنة بإنزال سيارتي في مكان مناسب ليستطيع الميكانيكي العمل عليها. دخل الرجل بسيارته كذلك، إن السيارة تبدو على ما يرام، ولم يقل لي ما هو الخلل الذي

تعاني منه، لقد ذكر مسألة استبدال القطع ولم يذكر وجود خلل، ربما انتبهَ إلى القطعة المقلدة فحسب. ناديث الميكانيكي الذي انتهى من إصلاح سيارة عميل الأمس إياه وأمرتهُ بالعمل على سيارة هذا الزبون أولاً. على الرغم من أننا لا نفتح رسمياً في هذه الساعة، أوقات عملنا الرسمية تبدأ في الساعة الرابعة، بعد نصف ساعة تقريباً، واقتربت من الرجل وسألته:

- ما المشكلة بالضبط؟

- وهل يجب عليّ أن أشرح مرة أخرى؟ أرجغ لي القطع التي سرقتها.

- إنني أطلب منك بكل احترام أن تلتزم بحدود الأدب يا أخي، أنا متأكد من وجود سوء فهم في الموضوع، على كل حال أعطني دفتر السيارة لأبحث عن معلوماتها في نظامنا الآلي وسنبحث عن التفاصيل وأستطيع عندها أن أسترجع تصوير فيديو المراقبة، نحن نحتفظ بالتسجيل لسنة كاملة.

- لقد كانت السيارة تعاني من خلل في نظام التوجيه لعجلة القيادة، وقمتم باستبدال القطعة تلك، لكنني اكتشفت لاحقاً أن أكثر من قطعة ميكانيكية هي قطع مقلدة، وكما ترى سيارتي حديثة، ولم يضع أحد يده عليها غيركم، فقد كانت السيارة تحت كفالة الوكالة قبل ذلك وكنت ملتزماً بالصيانة لديهم، تلك هي الوكالة المعتمدة ويستحيل أن يكون التلاعب قد حصل من قبلهم.

حدث ما كنت أخشاه بالضبط، بدأت أحس بحرارة في الجو، فسيصعب تبرير هذا الموقف،لم يذكر الرجل القطع المغشوشة لكنه

ذكر أنها أكثر من قطعة، أنا لا أتذكر هذه السيارة بالتحديد، لست من وجّه العمال إلى تبديل القطع منها، بل إن مدير الكراج يعلم تماماً بأهمية السؤال عن تاريخ السيارة وتسجيله بحجة أن يكون ذلك مرجعاً لصيانة السيارة. فعند إدخال أي سيارة يسأل الموظف الزبون عن تاريخ صيانة السيارة، وفي حالة مثل هذه السيارة نتجنب تبديل القطع، أو يمكننا تبديل القطع بقطع أصلية لنفس النوع لكن تكون أقدم قد انتزعناها من سيارات أخرى وأصلحناها إن كانت قابلة للإصلاح، وهذا مجال آخر للتلاعب.. كثير من القطع تعاني من خلل بسيط ومن الممكن إصلاحه، لكننا ندّعي عدم صلاحيتها ووجوب تبديلها، ونقوم بإصلاحها بعد ذلك لنقوم ببيعها كقطعة مستعملة، تكون هذه القطع مناسبة لاستبدالها في السيارات الحديثة مثل هذه السيارة، فتكون أصلية لكن تم إصلاحها وليست بقوة القطعة التي نستبدلها بها. لماذا لم يقم الميكانيكي الأحمق بهذا؟

بينما أنا أقلّب الأفكار في رأسي مدّ الرجل يده بدفتر السيارة، تمالكت نفسي وأخذت الدفتر وتوجهت إلى جهاز الكومبيوتر لأطّلع على بيانات السيارة:

- بالفعل كما ذكرت، دخلت السيارة مرةً واحدةً قبل شهرين تقريباً، وقمنا باستبدال قطعة في نظام التوجيه لعجلة القيادة، مذكور هنا أنك أحضرت القطعة بنفسك، هلم بنا لنفحص السيارة الآن.

قمت من مكاني وقام الرجل بلا اعتراض وتوجهنا إلى السيارة اللعينة، فتحت غطاء المحرك وجلبت مصباحاً يدوياً لتظهر القطع بشكل واضح:

- هذه هي القطعة التي استبدلناها، هي أصلية بالتأكيد وما زالت تلمع كأن تمّ تركيبها قبل لحظات، تستطيع أن ترى ذلك بنفسك.

- أعرف هذا لا داعي إلى النظر.

- جيد، إذا ما القطع التي تشتكي منها؟

- الدينمو و أقراص المكابح الأربعة.

- دعني أرى، اممم، الدينمو ليس أصلياً هذا واضح، لكن أقراص المكابح لن تكون واضحةً هكذا، يجب إزالة العجلات للتأكد، لكن على كل حال سأخرج فيديو المراقبة لترى بنفسك إن كنا نحن من تلاعبنا بالقطع، ربما ستغير رأيك بالوكالة نفسها حينئذٍ.

- هه الوكالة تتلاعب هذا التلاعب الرخيص؟ حاول إقناعي بغير هذا.

- إنما قلت ذلك لأنك أكّدت عدم دخول سيارتك إلى أي كراج آخر، وأنا متأكد من نزاهتنا في العمل.

- سنرى ذلك الآن.

عدنا إلى الغرفة التي تحوي جهاز الكمبيوتر، طوال هذه الفترة لم يرافقنا الرجل الآخر، كان في الخارج يدخن سيجارة تارةً، ويعبث بهاتفه تارةً أخرى. حصلت على الفيديو بكل سهولة، فقد كان مرفقاً بملف السيارة، فتحته وبدأت نبضات قلبي بالتسارع، كنت أخشى أن يكون الميكانيكي قد تهوّر وتساهلَ في إجراءات السلامة، وأعني بذلك عدم التلاعب بالقطع إلّا في الزوايا المحددة لذلك، في منطقة الانتظار النهائي، وقامَ باستبدال القطع في منطقة العمل الأساسية.

شغّلت الفيديو بنظام تسريع العرض، مرت دقائق قبل أتنفس الصعداء ويبدو الميكانيكي وقد أتمّ عمله على أكمل وجه، وتم تحريك السيارة إلى منطقة الانتظار.

- أنا لست غبياً يا صديقي.

لم أتوقع منه هذا التعليق بعدما رأى بأم عينه بأن الميكانيكي قام باستبدال القطعة المعطلة من دون المساس بغيرها.

- ماذا تعني؟ ما الإثبات الذي تريده أكثر من ذلك؟

- هناك فارق في توقيت خروج السيارة من منطقة الصيانة إلى منطقة الانتظار لقرابة الساعة، أين كانت السيارة خلال ذلك الوقت؟!

- منطقة الانتظار صغيرة كما ترى، ومن الواضح في الفيديو أنها كانت ممتلئة في ذلك الوقت، كيف تريد منا وضعها هناك مع عدم وجود مكان شاغر؟ في هذه الحالات نوقفها مؤقتاً قرب المدخل لتلك المنطقة وندخلها فور استلام أحد الزبائن لسيارته من تلك المنطقة، وهذا ما حدث بالضبط، لقد كان واضحاً إزالةُ إحدى السيارات وإيقاف سيارتك مكانها.

- هل تريد إقناعي بأن الوكالة هي من تلاعبت بالقطع؟

- لا أدري، واكتشاف هذا الأمر ليس من ضمن مسؤولياتي، لقد أثبتُ لك بالدليل القاطع عدم وجود تلاعب في كراجنا، إنني أراعيك كل المراعاة رغم اتهاماتك لأنني واثق من نزاهتي أولاً ولأكسبك عميلاً دائماً ثانياً، هذا ما يضمن ربحي يا سيدي وليس سرقة سيارات الزبائن.

- حسناً سنرى.

قال ذلك ونهض، نهضت بعده لنخرج من الغرفة، كان صديقه الذي لم يرافقنا منذ البداية واقفاً برفقة الزبون الذي قدمَ لاستلام سيارته، يحادثه ويشير بيده إلى أماكن في الكراج كما يبدو. أثار ذلك الرجل قلقي مرةً أخرى، لقد استقبل هو زبوننا قبل مدير الكراج أو الميكانيكي، ماذا عساه أن يخبره؟!

- أبا محمد، سيارتك جاهزة.

قطعث استرسالهما بالكلام بصوتي العالي، بينما أبو محمد لم يرد عليّ واكتفى بالالتفات نحوي بوجهه المتجهم، لقد أثار اللعين شكوكه حول عملنا. من الجيد أننا لم نلمس قطعة أخرى سوى الدينمو، وإلّا فالمسألة ماضية نحو تعقيد لا تحمد عقباه، ثم إننا أرجعنا القطعة الأصلية بعد تنظيفها، والآن سأضيف لمستي، لقد حضّرت الرد على أسئلة الرجل قبل أن يعرف هو نفسه عمّا سيسأل.

- كل شيء على ما يرام، كما أخبرتك كان خللاً بسيطاً في تركيب الدينمو، لقد فكّه الميكانيكي بعد أن لاحظ أنه ملطخ بالزيت المتسرب من المحرك، وهذا يعني إمكانية تعرضه إلى التلف، فأزاله ونظّفه جيداً وأعاد تركيبه، واليوم أعدنا فكّه والتأكد من نظافته من بقايا الزيت مرةً أخرى، فقد ساورنا بعض الشك أن يكون الخلل الذي حصل لك بالأمس لهذا السبب، لكن لحسن الحظ فهو لم يتضرر أبداً.

بدا الاقتناع على وجه الرجل قبل أن يتطفل الأحمق الذي كان معي قبل قليل بالتعليق:

- أو أنهم بدّلوا الدينمو الأصلي بآخر تجاري وظهر الفارق سريعاً!

- اسمع يا هذا، لقد تحملت وقاحتك بما فيه الكفاية، لا تستمع إليه يا أبا محمد، هذا الرجل وصديقه يتهماننا بالتلاعب بالقطع وقد عرضت له فيديو إصلاح سيارته كاملاً ورأى بأم عينه أنّ الميكانيكي لم يقترب من القطع المقلدة في سيارته، ومع هذا يصر على اتهامنا بالتلاعب.

عدتُ والتفتُ إلى الرجل وزدت من قوة صوتي لأهاجمه، فأفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم الآن:

- أنا أعرف أمثالك جيداً، وأفهم تماماً ما الذي تفعله هنا، لكن محاولة ابتزازنا بهذه الطريقة لن تنجح أبداً، فكاميرات المراقبة الدقيقة ثبرّئنا من افترائك، ولن تحصل على التعويض الذي لا تستحقه، ابحث عن كراج آخر تتلاعب به.

- قلت لك إنّ سيارتي لم يلمسها عامل كراج غير عمّال كراجكم هذا، إلّا الوكالة.

قاطعته قبل أن يستمر في توضيح موقفه:

- لهذا قلتُ لك إنك نصّاب تريد ابتزازنا في حال لم تكن السيارة قد أُصلحت في كراج آخر غير محترم فعل فعلته هذه. وسأستبعد قيام الوكالة بهذا العمل فلا تفسير سوى هذا، إن كان لديك أي شيء آخر فيمكنني أن أدلك على مخفر الشرطة لتشتكي.

بقيَ الرجلان باردي الأعصاب ولم ينفعلا أبداً، لكنّ أبو محمد تأثّر بما حدث وطلب ما كان متوقعاً منه:

- هل أستطيع التأكد من الدينمو في سيارتي؟

- بالتأكيد يا عزيزي، ليس لدينا شيء نخفيه.

في الواقع كنت أخشى من أن يطلب رؤية فيديو العمل على سيارته، فهناك ثغرة واحدة من الممكن أن تفضحنا، معلما ذكرت في السابق، وهي أن لا يستبدل الميكانيكي القطع التي نسرقها في منطقة العمل الرئيسية حيث كاميرات المراقبة، وهذا يعني عدم إزالة الدينمو عندئذٍ، فإن انتبهَ إلى هذه النقطة سيكون علينا الاعتراف أن الميكانيكي قد أزال الدينمو في مكان آخر عندما لاحظ تلطُخه بالزيت بعد الانتهاء من إصلاح التسرب، على الرغم من أن هذا لن يشكل مشكلة بالنسبة لسيارة أبي محمد، فيمكنه التأكد من الدينمو الموجود حالياً في سيارته، لكن من ناحية أخرى ستتأكد شكوك الزبون الآخر عندما يكون هذا تأكيداً على إمكانية فك القطع في مكان آخر، وبطبيعة الحال لا نملك فيديو لتلك العملية. حاولت إخفاء توتري إثر اكتشافي لهذه الثغرة، وبدأ المدير بشرح كل شيء لأبي محمد عندما وصلنا إلى السيارة. لم أستطع إبعاد الرجلين عنا فأخذا يفحصان السيارة معنا، لكن كل شيء كان سليماً إلى هذه اللحظة، قبل أن يقول أحدهما:

- ألا تريد الاطلاع على الفيديو؟

حاولتُ ضبط أعصابي والعودة إلى الهدوء:

- بإمكانه ذلك بالتأكيد، لكن ما دخلكَ أنت؟ لقد تجاوزتما حدودكما.

حينها سكتا لبرهة، قبل أن يعلّق صاحب السيارة:

- نعم ربما فعلنا ذلك، ففي النهاية إنه الدليل الوحيد الذي يدل على صدقك.

لم ينتظر مني رداً، وسار مبتعداً عنا برفقة صديقه. تنفست الصعداء أخيراً والتفتُ إلى أبي محمد:

- يمكنك بالطبع الاطلاع على الفيديو، إنه حقك أولاً وإثباتٌ لنزاهتنا ثانياً.

- لا داعي لذلك.

- يمكنك التأكد من سلامة الدينمو في أي مكان آخر أو في الوكالة نفسها، سيؤكدون أنه هو الأصلي ولم يتغير.

- حسناً، شكراً لك، هل أستطيع أخذ سيارتي والمغادرة؟

- بالتأكيد، لقد وضعنا لك في صندوق السيارة بعض الإكسسوارات تعبيراً عن أسفنا لهذا الخطأ، وأي شيء تحتاجه لاحقاً فنحن في خدمتك، وأعتذر كذلك عمّا حصل قبل قليل.

- لا داعي إلى ذلك، إلى اللقاء.

لا شكّ أن الموقف تركَ أثره على أبي محمد لكنه في النهاية استلم سيارته على أحسن حال، ومع تعويض كذلك. ربما سيتأكد من سلامة القطع وإن فعل فسيرى أن سيارته كما كانت لم يمسّها أي تلاعب، وبما أنه لم يطلب رؤية فيديو العمل على سيارته فكل شيء انتهى على خير ما يرام. كل ما حدث أنساني عطل سيارتي ولم أعرف بعد مشكلتها.

توجهتُ إلى الميكانيكي الذي كان يعمل على السيارة، وأخبرني أن العطل بسيط، كانت المشكلة في منقّي البنزين، المضخة تعمل كما يجب، لكن المنقّي مسدود بالأوساخ وهذا ما كان يمنع البنزين من الوصول إلى المحرك، فاستبدلَ المنقّي ونظّف مجاري البنزين وعادت السيارة إلى العمل بلا مشاكل. حان موعد العودة إلى المخيم إذاً.

تحركتُ فوراً عائداً إلى المخيم لكي أنسى الذي حصل قبل قليل، لقد تعكّر مزاجي بسبب هذين الأحمقين، كانا يظنّان أنه من السهل كشفي ولم يعرفا أن دقّة عملنا في السرقة والتلاعب تفوق دقة عملنا في إصلاح السيارات، ولا أعني بهذا ضعفنا في العمل الميكانيكي بل احترافنا للسرقة النظيفة.

خرجتُ من منطقة الشويخ الصناعية حيث يقع الكراج متجهاً إلى المخيم في شمال الكويت، ولم أكن قد ابتعدت بعد حيث وصلت للتو بجانب منطقة الجهراء عندما اتصل بي أبو محمد:

- جراح، كيف حالك؟

- أهلا أبا محمد، هل السيارة بخير؟

- نعم إنها بأفضل حال.

- يسعدني ذلك.

- لقد أبهرتني بدقتك، لم يستطيعا كشف أي شيء، أنت تحمي نفسك جيداً.

- بالطبع، فكراجنا على مستوى عالٍ من الاحترافية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقوم بمثل هذا التلاعب، حتى إن حاول أحد

العمال أن...

قاطعني قبل أن أكمل:

- اترك هذا الهراء، أنا أعرف الذي فعلته، لم أكن أريد كشفك أمامهما، لو كنت اطلعت على فيديو المراقبة كنت سأكتشف اللعبة، أليس كذلك؟

- ماذا تعني؟ هل تصدق ادعاء هذين الدجّالين بعد كل هذا؟

- أتظن أنني لم ألاحظ تغيير القطعة؟ كوني لستُ خبيراً في السيارات لا يعني أنني أعمى، عندما بدأ يصدر الصوت من السيارة فتحت غطاء المحرك وانتبهت أن الصوت صادر من الدينمو، والآن بعد أن أصلحتم السيارة عدت لأنظر إلى الدينمو لأتأكد من عدم وجود الصوت، فلاحظت أنه غير الذي وجدته أول مرة.

- بالطبع ستلاحظ ذلك، فالميكانيكي قد نظّف الدينمو من الزيت، لا شك أن هذا سبب تغير شكله.

- أتظنني أحمقَ؟ ثم ألم تقل إنه قد نظفه في المرة الأولى؟ إذا لن يكون هناك اختلاف في النظافة بشكل كبير لاحقاً، أنا أتحدث عن فارق في الشكل، فالدينمو المقلد ليس مطابقاً للأصلي، وعندما تعطل أعدتم الأصلي لكي لا ينكشف التلاعب، أكاد أقسم أن فيديو المراقبة سيُظهر عدم لمس العامل للدينمو، لأنه سيستبدله لاحقاً حيث لا تراه الكاميرات، مثلما فعلتم في سيارة ذلك الرجل، الذي أعطاني رقمه بالمناسبة.

- ماذا تريد بالضبط؟ وعدتك أنك ستخرج راضياً وسأفي بوعدي.

- أتظن أنك تستطيع شراء سكوتي؟ لا أريد شيئاً، فقط أريدك أن تعرف أنك مهما كنت حريصاً على الخداع فستنكشف في النهاية، فالجريمة الكاملة ضرب من ضروب الخيال.

- جيد، أثبت كلامك إن استطعت، ليس عندي شيء آخر أقوله.

أطلق ضحكةً أخيرة قبل أن يقفل الخط، غريب هذا الرجل! تصرفاته غير متوقعة، لأنها ليست منطقية أبداً، لماذا لم يفضحني أمامهما؟ هل يريد ابتزازي لاحقاً؟ إنه لا يملك إثباتاً على كلامه، بل حتى فيديو المراقبة لن يشكل دليلاً معتبراً إن هو قرر أن يشكونا إلى الشرطة، كيف يشكونا أصلاً إن كان ليس متضرراً، لن يأخذ كلامهُ المحقق على محمل الجد، فلن يكون سوى مخبول يتهمنا بتلاعب لم يحصل وبضرر لم يقع. أصلحنا سيارته وقطعه سليمة وانتهى الأمر: فليفعل الغبي ما يحلو له. صرخت غاضباً.

وصلت إلى بداية الطريق البري في منطقة المطلاع، وبدأت أعصابي تهدأ فور خروجي من مناطق التمدن والحضارة إلى الصحراء الهادئة، لقد تعرضت إلى مواقف كثيرة وتهديدات من الزبائن انتهت كلها باستسلامهم ويأسهم، لكن المرات السابقة كانت على اختلاف في الأجر أو جودة العمل، لم تكن لها علاقة يوماً بكشف التلاعب والسرقة. لكن (واثق الخطوة يمشي ملكاً)، ومن لا يملك دليلاً ينتهي ذليلاً كأنه يشحذ طالباً شيئاً لا يستحقه.

ابتسمتُ ابتسامة المنتصر لكن قطعَ ابتسامتي اختلال عمل المحرك كأنه يريد أن يتوقف عن العمل، يقلّ الضغط أكثر من مرة على الرغم من ضغطي أكثر على دواسة البنزين، ثم توقف المحرك

أخيراً. اللعنة عليك يا غبي. صرخت شاتماً الميكانيكي الذي لم يصلح السيارة كما يجب، انعطفت نحو حارة الأمان على يمين الشارع وتوقفت، حاولت تشغيل السيارة لكنها تأبى ذلك، سأتصل بالكراج لأخرج كلّ غلّي على الميكانيكي قبل أن أطلب المساعدة، لكن قبل أن أتصل سمعت بوق سيارة بجانبي، لقد توقفت سيارة على يساري وصاحبها لم يهتم بالتوقف في حارة الأمان، بل أغلقَ الجهة اليمنى للطريق!

- هل تحتاج أي مساعدة؟

قالها قائد السيارة، يا إلهي! إنهما الشخصان اللذان كشفا لعبتي، يركبان في نفس السيارة، لم أنتبه إلى لحاقهما بي طوال الطريق، وتعطّل سيارتي زاد الطين بلة.

- هل تلاحقاني؟ ماذا سيفيدكما هذا؟ أنا واضح معك وليس لدي شيء أُخفيه، أما محاولات إرهابي بهذا الشكل فلن تجدي نفعاً.

- ومن قال إننا كنا نلاحقك، هذا طريق بري ومن الطبيعي أن كل من يتجه إلى البر الشمالي يمر من هنا، إن كنت لا تصدقني فلدي كاميرا أمامية تصور كل شيء، أستطيع عرض مسارنا منذ خروجنا من الكراج.

اللعنة، هل يلمّح إلى أنه يمتلك تصويراً لعملنا على السيارة؟ لكننا كنا سننتبه إلى الكاميرا، يبدو أنه قد قام بتركيبها بعدما اكتشف التلاعب بالقطع.

- هه، لا يهمني، افعل ما يحلو لك، لا أحتاج مساعدتك على أي

حال.

- لمَ ترفض؟ لقد كنا وراءك عند تعطل سيارتك، هذا من حسن حظك، إنها صدفة حسنة، هذا إن كانت صدفةً.

قالها مبتسماً ابتسامةً تمتلئ شراً، ثم تقدّم بالسيارة ليوقفها أمام سيارتي، وترجلا من السيارة. لا أُنكر أنني شعرت ببعض الخوف فنحن في طريق بري، لكنه لا يخلو من السيارات، فنحن في بداية الطريق وفي هذا الوقت من السنة تمر الكثير من السيارات المتوجهة إلى المخيمات ومزارع العبدلي في شمال البلاد.

- يبدو أن الكراج الذي أصلحتَ فيه سيارتك قد غشَّكَ عمّاله وركّبوا لك قطعاً مقلدة، بل ومهترئةً كذلك.

- ابتعد عني يا هذا، وإلّا سيكون لنا كلام آخر .

- ليكن لنا الكلام الآخر إذاً.

مد يده فور انتهائه من تلك الجملة ليمسك بمعصمي الأيسر، واقتربَ صديقه ليشارك في النزاع، لم أنتظر الأمور لتتصاعد أكثر وبدأت العراك بلكمة وجّهتُها إلى وجهه بيدي اليمنى بكل قوتي. أشاحَ بوجهه ولكنه لم يتأثر أكثر من ذلك، ثم أطبقَ صديقه يديه على صدري وهو واقف خلفي ليثبتني. لم يضرباني، بدأتُ بالتحرك بعنف لأخلص نفسي منهما بلا جدوى، لكن حركتنا قرّبتنا من الطريق.. تفاجأتُ عندما قررت الإشارة والاستنجاد بمرتادي الطريق، فلا بد من أن يتوقف أحدهم لفض العراك، لكن المصيبة أن الشارع خالٍ تماماً! قبل لحظات كانت السيارات تملأ الشارع. توقفت عن

الحركة مع تلك المفاجأة، كيف للشارع أن يخلو من السيارات بهذا الشكل؟

سيارة واحدة قادمة، إنه الفرج، لا بد أن يساعدني صاحبها، بدأت أتلوى وأصرخ لينتبه قائد المركبة القادمة إلى حاجتي للمساعدة، ولحسن الحظ أنه انتبه إلينا وغيّر مساره إلى الحارة اليمنى، وأبطأ تدريجياً حتى توقف بجانبنا:

- أبو محمد؟ أهذا أنت؟ أرجوك ساعدني، اتصل بالشرطة، هذان الغبيّان يعتديان عليّ.

لم يُجب، ثم فتح صاحب السيارة الأولى الباب الخلفي لسيارة أبي محمد، ليدفعني صديقه بكل قوة داخلها، ومع لكمتين على وجهي انهارت مقاومتي ووجدت نفسي على المقعد الخلفي بصحبه الرجل الآخر. تحرّك أبو محمد بالسيارة من دون أن ينطق بحرف. لقد اتفقوا جميعهم على الإيقاع بي، ربما تلاعبَ أحدهم بسيارتي كذلك، لكن كيف حصل ذلك مع وجود العمال هناك؟!

- أنتم تختطفونني، حتى إن كان زعمكم صحيحاً بسرقتي للقطع، فإن جريمتكم الآن أكبر، ستندمون على ذلك، سأريكم.

علّق أبو محمد أخيراً:

- أتهدد وأنت في هذه الحال؟

كأنه نبهني أنني لست في وضع القوي الآن، فغيرت لهجتي فوراً:

- سأعوضكم عن كل شيء، ماذا تريدون؟

- سنأخذ حقّنا بأيدينا.

ضحك الرجل الذي يرافقني في الخلف، وما إن التفتُّ نحوه حتى انهالَ عليّ بلكمات أفقدتني وعيي، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي مستلقياً على ظهري ومكبلاً بإحكام بحبال تثبّتني على طاولة في غرفة صغيرة مصنوعةٍ من ألواح الحديد، يبدو أنها مطبخ لمخيم، فهناك موقد الغاز وطاولات تحضير الطعام وبعض الأغراض الأخرى:

- لقد استيقظ.

صاحَ الرجل منادياً صاحب السيارة وأبا محمد، وأنا لم أحفظ اسميهما حتى الآن! يجب أن أستخرج بيانات صاحب السيارة من الكمبيوتر الخاص بالكراج لأشتكي عليهما، لكن عليّ أن أهرب من هذا المكان أولاً. دخلَ أبو محمد ووقف عند رأسي، وصاحب السيارة عن يميني وأغلق صاحبه الباب، بدأتْ بالرجاء:

- أرجوكم لا ترتكبوا أي حماقة، لا يستحق الموضوع ارتكاب جريمة تقلب الأمور ضدكم، لنخرج من هنا وأعدكم بتنفيذ أي شي تريدون، أعترف أنني أتلاعب بالقطع، لكم الحق فيما فعلمتوه، لن أفكر بالشكوى ضدكم، هذا وعد.

ضحك أبو محمد مستهزئاً وعلق:

- وهل يؤتمن السارق؟ هيا بنا لننهي كل شيء.

صرخت مذعوراً وأنا أنتفض في مكاني محاولاً الإفلات من الحبال التي تقيدني:

- ماذا تعني بإنهاء كل شيء؟

- أنت تسرق قطعاً من سيارات الناس، جزاؤك أن نأخذ قطعاً منك إذاً، ربما سنبدأ بكبدك أو بكليتيك، لا تقلق، إن حدثت مشكلة ما عندما تغادرنا تستطيع العودة وسنعيد لك قطعك الأصلية.

لم أشعر بمثل هذا الجزع في حياتي كلها، بدأت أصرخ بشكل هستيري وأشتم وألعن، كان جسدي مثبتاً بالطاولة بشكل محكم، رفع أحدهم ملابسي ليكشف بطني، ثم أمسك خاصرتي لتثبيتي بشكل إضافي، بدأت أبحث عن وجوههم لاستعطافهم بدموعي التي بدأت بالانهمار بلا توقف، لكن محاولة استعطافهم زادت من رعبي. كانت عيونهم حمراء قاتمة وانقلبت وجوههم فكأنهم شياطين أو جان.. كشّروا عن أنيابهم الحادة، إنها وجوههم لكنها شيطانية مرعبة، وبدأت أشعر بنصل السكين الحادة يشق بطني من اليمين إلى اليسار، ألم لا يوصف لم أجربه في حياتي. صرخت صرخةً قوية لم تستمر طويلاً، فالألم أعجزني حتى عن الصراخ،ألم مستمر لا ينتهي وكأنّ ثعباناً يزحف داخل بطني، إنهم يعبثون بأحشائي، وأنا أتلوى وأكاد أفقد وعيي، ثم رفع أحدهم يديه المليئتين بالدماء وكان بين كفّيه قطعة لحم، بيد أنها لم تكن قطعة لحم عادية، هي أحد أعضائي الداخلية، لا أستطيع التثبت ومعرفة هذا العضو. أبعدوه عني وبدؤوا بعدها بإغلاق بطني بخياطة رديئة، لم يكن الهدف منها إنقاذي بل تثبيت أحشائي داخل بطني فحسب، أنا الآن بين الحياة والموت، لم أفقد الوعي أبداً، لا أدري كيف استطاع جسدي تحمل كل هذا الألم من دون الدخول في غيبوبة ألم! أهكذا يفعل تجار الأعضاء البشرية؟ يعملون على تشريح الضحية من دون تخديرها؟ كنت أود لو ضربوني على رأسي لأفقد الوعي كما كان الأطباء يخدرون المرضى

قبل اكتشاف طرق التخدير الحديثة، هل كان هذا انتقاماً لغشي في الكراج؟ أم أنا مخطوف من قبل عصابة تتاجر بالأعضاء البشرية؟

فكوا الحبال عني، ليسوا بحاجتها الآن، حملوني إلى سيارة مختلفة، وضعوني في الصندوق الخلفي وتحركت السيارة. لا أعلم كم مضى من الوقت قبل أن يُفتح الصندوق ويحملوني ليلقوني على الأرض ويغادروا المكان. إنني بجانب مخيم، هذا كل ما أعرفه، يبدو أنني سأغيب عن الوعي الآن.

خالد

شباب عازبون لا يحملون أي نوع من أنواع المسؤولية الحقيقية ولا يتوقفون عن التذمر، هم يملكون حياتهم ووقتهم بالكامل لأنفسهم، فكيف يقول أحدهم بعد ذلك إنه لا يملك الوقت الكافي لبعض الالتزامات البسيطة مثل حمل بعض مسؤوليات البيت بدل آبائهم أو حتى الاهتمام بتجهيزات المخيم؟ فلا يقوم أحدهم بدوره إلّا على مضض، ويتعذرون بالانشغال، لتكتشف أن انشغالهم لا يعدو كونه جلوساً في أحد المقاهي أو مشاهدة فيلم في السينما أو التمرن في النادي الصحي، وليته يكون تمريناً رياضياً بحق، ألا يستطيع أحدهم تأجيل الذهاب إلى النادي عند وجود مسؤولية ما يتحتم عليه القيام بها؟ إنني أشك أنه مجرد عذر للتهرب.

وها أنذا لا أستطيع إكمال يوم في المخيم من دون أن أبتلى بمصائب يجلبها أبنائي الأغبياء لأعود فأعيد الأمور إلى نصابها. لقد ابتُليت بأبناء لا يملكون مهارات التصرف السليم ويقعون في أخطاء تعود عليّ أنا بالضرر، فعلاً إن الجيل الجديد جيل فاسد مدلل، على الرغم من تربيتي الصارمة، فأنا لم أسنّ عادات هذا الدلال والتسيّب، وربّيتهم كما ربّاني أبي، فخرّجنا رجالاً أشدّاء نتحمل قسوة الحياة، لكن تأثير أقرانهم تارة والإعلام السيئ تارة أخرى ودلال أمهم حيناً آخر تركَ أثره في شخصيات أبنائي رغم أنفي.

تركت المخيم غاضباً لاعناً هذا الجيل للمرة العاشرة مذ فتحتُ عيني صباحاً. لقد تشاجرَ ابني مع أحد أبناء الجيران وتبادلا الضرب في الشارع، من ذا الذي يتشاجر في صباح يوم الجمعة؟! وقبل صلاة

الجمعة بقليل، لا يفعلها إلّا أحمق، فحتى سكارى البارحة يغطون في نوم عميق في هذا الوقت، وحيّنا هادئ وجيراننا مسالمون ودودون! لم أعرف تفاصيل القصة حتى الآن لكنني متأكد أن ابني وليد هو سبب المشكلة، لقد مللت الاستدعاءات التي يجلبها من مدرسته والتي تتطلب حضوري وإلّا لن يُسمح لابني بدخول الفصل. مشاجرة أو شغب أو هروب من المدرسة، وهلمّ جرّاً، ولا أفهم لماذا لا تُجدي صفعاتي وصراخي نفعاً، ولا توقف عقوباتي الشديدة شغبه المزعج، فأقل من هذه الصفعات والتوبيخ شدةً من والدي كانت تُبقيني ساكناً أمامه وبي رجفة بسبب الخوف، مطرقاً رأسي إلى الأرض أنتظر جلده لي بالعِقال إن كان ذنبي كبيراً، وأقصد بالذنب الكبير الشغب المزعج ولا شيء أكثر من ذلك، فابني وليد يستحق عقوبات أكثر قسوة على أفعاله، لكنه مع هذا لا يتقبل عقابي ويحاول النقاش والحديث. آه يا أبي، إلى اليوم لا أجرؤ على مناقشتك في أوامرك رغم سكون صوتك وخمود سطوتك.

وليد الآن في المخفر مع ابن الجيران بعدما تسبّبا لبعضهما بإصابات وجروح لم يخبروني بتفاصيلها، لكنها ليست خطيرة بالتأكيد لأنها لم تستدعِ دخولهما المستشفى. وصلت إلى المخفر محاولاً السيطرة على أعصابي لأنهي المشكلة بأقل الأضرار ثم عليّ تأديب الولد الشقي في المنزل. لم أعدّ دخول مركز الشرطة مدعاةً للعار والخجل يوماً من الأيام، لكن احتجاز ابني هناك يغيّر المعادلة بالتأكيد، سيُجبرني الأحمق على توسل الرحمة من الشرطة لإخلاء سبيله من دون تسجيل قضية أو حتى كتابة تعهُّد بعدم إيذائه لأحد.

توجهتُ إلى منطقة الاستقبال في المخفر والتي تسمّى (الأحوال).

كان هناك شرطيان مناوبان والمخفر هادئ في هذا الوقت كما هو متوقع:

- تفضل.

- تلقيث اتصالاً منكم بخصوص ابني، إنه محتجز لديكم..

- بخصوص المشاجرة اليوم، أيهما ابنك؟

- وليد، هل المسألة خطيرة؟

- الضابط موجود في مكتبه هناك، هو سيشرح لك كل شيء.

شكرتهما وتوجهت إلى مكتب الضابط الذي دلوني عليه، أخذت نفساً قبل الدخول. صحيح أنني اعتدت التجاوب مع مشاكله في المدرسة، لكنه رفعَ السقف هذه المرة وأدخلي المخفر لأول مرة، بالتأكيد لن يكون التعامل معه هنا كما هو هناك، فنحن هنا نتحدث عن مخالفة القانون ومواجهة عواقب حقيقية، علّها تكون درساً له، قرصة أذن كما نقول، فهو لا ينتظرني في غرفة مشرف الجناح أو الأخصائي الاجتماعي، إنهُ ملقى في نظارة المخفر، ربما يرافق المجرمين وحثالة المجتمع.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، تفضل.

- أنا أبو وليد، وقبل كل شيء أشكركم على تأديب هذا المشاغب، صدقني أنا لا أقصّر في تأديبه، لكنه أتعبني بمشاكله المتكررة.

- لا تقلق يا أبا وليد، كانت مشاجرة فقط، اطمئنّ فهو ليس في

مشكلة حقيقية، إنما أردنا تأديبهما بعد ما أحدثاه في الحي من قلق للجيران.

- ماذا حدث بالضبط؟

- لقد وردنا بلاغ بوقوع مشاجرة في الحي بين شابّين، أحد الجيران اتصل، فبعثنا الدورية بسرعة إلى موقع البلاغ، لم نتهاون في التعامل مع الحادثة، فمشاجرة بين شابين حدث يتكرر كثيراً، لكن أن يكون ذلك في حي سكني واتصال أحد الجيران بالشرطة يعني تفاقم المسألة، كما تعلم فإنه في العادة يتدخل الناس لفض الشجار وينتهي كل شيء، لكن الناس يتصلون بالشرطة عند خوفهم من تصاعد الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، وهل تعرّض أي أحد إلى إصابات خطيرة؟

- كان من الممكن حدوث ذلك لولا تدخلنا في الوقت المناسب، فبعدما اشتبكا وضربا بعضهما تدخل أحد الجيران وهو رجل كبير في السن لإيقافهما، وبطبيعة الحال فلم يتدخل إلّا بالصراخ عليها، ومدّ عصاه بينهما ليتوقفا عن العراك، لكن كلما ابتعد أحدهما عن الآخر عادَ التلاسن بينهما والتهديد والوعيد لإشعال نار الحرب فيعودا إلى ضرب بعضهما، وبعد تصاعد أصواتهما تدخّل شخص آخر خرج من بيته، ونجح كذلك بإيقافهما مؤقتاً، قبل أن يتصاعد التهديد هذه المرة بالاعتداء على البيوت، فكلّ منهما يعرف بيت الآخر وسينتقم انتقاماً قاسياً، عندها اتصل الرجل الثاني بالشرطة وطلب منا التدخل، وعند وصول دورية الشرطة كان أحدهما قد

ذهب وجلب قضيباً حديدياً يهدد باستخدامه، فألقينا القبض عليهما واحتجزناهما هنا.

- هل أستطيع السؤال عمّن جلب القضيب الحديدي؟

- اطمئن، كان الشاب الآخر من فعل ذلك وليس ابنك.

- هل هذا يعني أنه لا يواجه مشكلة كبيرة؟

- في الواقع كلاهما كذلك، لقد احتجزناهما في النظارة للتأديب فقط، لم يستخدم الشاب القضيب بل كان يهدد به فقط، لقد كان يملك الفرصة لاستخدامه كما قال الشرطيان اللذان تجاوبا مع البلاغ، كما أنّ النظارة فارغة اليوم، فلم نكن لنجمعهما مع مجرمين آخرين، وفي نفس الوقت حذرناهما من محاولة تصعيد الأمر في الزنزانة وإن كان بالكلام فقط، فهذا سيجعلهما يواجهان عواقب وخيمة، وها هما الآن صامتان خائفان، أستطيع القول من خلال خبرتني إنهما كلاهما ليسا من طينة المجرمين، طيش شباب لا أكثر.

- أقدّر لكم هذا المجهود يا حضرة الضابط، ربما فعلتم في ساعة ما عجزت عن فعله لوقت طويل.

- هذا عملنا يا أخ، هل تشرب شاياً أم قهوة؟

- لا شكراً لا داعي لذلك، فقط أريد مواجهة ابني ومعرفة ماذا سيؤول إليه الأمر.

- لا شيء سيحدث إلّا كتابتهما لتعهد صوري ثم يغادر معك، التعهد هذا ليس حقيقياً وسأمزقه فور خروجكما، نريد فقط تأديبهما.

- لكنني أريد أن أعرف سبب المشكلة.

- بالطبع هذا من حقك، سيحضر ابنك الآن.

أمر الضابط بإحضار وليد إلى الغرفة، ولم تمر دقيقة حتى دخل مطرق الرأس. كان وجهه يخلو من أي ضرر، لكن ملابسه الشتوية لا تظهر إن كان هناك أثر ما للمعركة على جسده، على الرغم من تمزق سترته قليلاً. وقفَ ولم يجرؤ على الجلوس أو الكلام، جيد أن يبدو عليه الندم على فعلته، بدأ الضابط بالحديث بنبرة جادة مختلفة عن نبرته السابقة:

- كان الأمر سيتحول إلى قضية تبادل بالضرب وتحويلكما إلى نيابة الأحداث، لكننا سنراعي وضع والدك ووالد خصمك، وسنكتفي بتسجيل تعهد، هذا يعني تسجيل قضية فوراً في المرة القادمة، هل تفهم؟

- نعم يا حضرة الضابط، أنا أعتذر عما بدر مني، لكنني أريد لوالدي فقط أن يعرف أنني لست أنا المعتدي، هو من بدأ كل شيء كما أخبرتك سابقاً.

- لقد علم والدك أن الشجار وقع قرب منزلكم، وأن خصمك هو من جلب القضيب الحديدي ليستخدمه في الشجار، لكنك كذلك تهجمت عليه وضربته، بغض النظر عن أساس المشكلة لكنك لم تكن في وضع لا يسمح لك إلّا في الدخول في شجار للدفاع عن نفسك، بالتالي أنت تتحمل جزءاً من المسؤولية، أنت تواجه قانون الدولة هنا ولستَ في شجار مدرسة هل تفهم؟

- نعم بالتأكيد، أعتذر مرة أخرى، لقد تعلمت الدرس تماماً، أعدك بعدم تكرار الخطأ.

- يمكنك شرح التفاصيل لوالدك عندما تغادران بعد توقيعك للتعهد.

مضى الأمر على ما يرام، لقد خفّف الضابط من شعوري بالخجل والعار بتصرفه المهني المحترم، لقد راعى وضعي بأفضل شكل، لكن هذا لا يعني إفلات وليد من عقابي الشخصي في المنزل، ولاحظت التغير في ردة فعله عندما غادرنا المخفر، لقد كان مختلفاً تماماً عنه بعد مشاجراته في المدرسة، فقد كان حينئذٍ يدافع عن موقفه بقوة ويلقي اللوم على الآخرين من دون الاعتراف بخطئه، هو يحاول تبرير موقفه الآن كذلك، لكن بانكسار واعتذار واعتراف بخطئه حين لم يتجنب المعركة.

كان المشوار القصير إلى البيت عبارةً عن لوم وتقريع من جانبي، وتبرير على استحياء من جانبه، لقد كان يحاول إقناعي بأن الولد الآخر والذي يسكن في الشارع الذي يقع خلف شارعنا، هو من تهجّم عليه.. وهو كان في موقف دفاعٍ عن النفس، لكن الغبي يفضح نفسه، فكيف يكون الدفاع عن النفس عبارة عن: (كيف أسمح له بالتطاول وبتوجيه الإهانات لنا من دون إسكاته وتأديبه؟)، هذا يعني أنه شارك في تصعيد المشاحنات الطفولية إلى عراك بالأيدي والأرجل، كما فهمت فإن الولد الآخر كان مارّاً في حيّنا ورأى ابني واقفاً خارج البيت، فكان يستهزئ بالحي بعبارت مثل: ما هذا الفريج المقرف؟ أليس هنا رجال يجعلونه حياً محترماً؟ ما هذه البيوت المتهالكة والسيارات الرديئة؟ لا بد أنهم دخلاء على منطقتنا.

باختصار كان يحاول استفزاز ابني بتصرفات طفولية سخيفة، كثيراً ما يتصرف الصبيان الحمقى تصرفات مشابهة، ويعتبرون ذلك التصرف قوةً وفرض سيطرة. يبدو أنه أحد الحمقى المتنمرين، فكانت الحميّة تفرض على ابني في ذلك الموقف إيقاف المتنمر ذاك عند حده، فرد عليه بأنه إن كان الحي هذا دون مستواه فلا يجب عليه دخوله، بل حذّره بأنه إذا رآه هنا مرة أخرى فإنه سيعيده إلى فريجه(2) مكسّر العظام!

وتتصاعد التهديدات وكلٌ يحاول فرض سيطرته على الآخر إلى أن بدأ ذلك الولد بالهجوم على ابني – حسب رواية ابني طبعاً – ودافعَ الأخير عن نفسه فبدأ العراك الذي انتهى بهما إلى مخفر الشرطة. ذلك الولد يشعر بالنقص، فكلامه حول استنقاص الحي وأهله ما هو إلّا ضعفٌ منه، لكن حماقة ابني هو الآخر قادته إلى الرد بهذا الشكل بدل تجاهل المتنمر:

- "وهل كل غبي يُلقي كلاماً مثل هذا تتشاجر معه؟ تعبت وأنا أحاول إضفاء بعض التعقل على عقلك الفارغ". هكذا علّقت على روايته. يظن أنه على حق، فما يبدو عليه من انكسار ليس سوى خوف من الاحتجاز والسجن، وليس إحساساً بذنب حقيقي، لماذا لا تكون مثل ابن عمك فلان، أو ابن خالك فلان، تعلّم من صديقك فلان على الأقل، كلهم أفضل منك، أنت بلاء نزل عليّ، يقول المثل: يا من اشترى من حلاله عِلّة، وأنا أقول يا من أنجب من ظهره بلواه.

وصلنا إلى البيت وحاول وليد التوجه إلى غرفته مباشرةً، لكنني صرخت به ليذهب ويقبّل رأس والدته معتذراً عن ترويعها في يوم

الهدوء والسكينة، فقد تلقت اتصالاً من المخفر يفيد بوجوده هناك، وهذه حماقة أخرى ارتكبها، لم يقوَ على إعطائهم رقمي وأعطاهم رقم والدته التي تدافع عنه دائماً: "هل كنتَ تظن أن اتصالك بوالدتك يعني انتهاء المشكلة من دون أن أعرف؟ متى تصبح رجلاً وتعرف كيف تقيس الأمور؟ مثل هذه المشاكل لا ترميها على والدتك يا غبي.

بعد شوط آخر من المحاضرات الصاخبة سمحتْ له بالصعود إلى غرفته، متوعداً بعقاب حالما أعود من المخيم، فما لقيهُ حتى الآن لن يشفي غليلي، ربّما الحسنة الوحيدة فيما فعل هو عودتي إلى المنزل في هذا الوقت، وقد بقيَ على صلاة الجمعة ما يتجاوز الساعة بقليل. سأذهب لأصلي في المسجد قبل العودة إلى البر، ولم أتوقع أن ألاقي مشكلة أخرى تكون ابنتي بطلتها هذه المرة! هل لعنتْ هذا الجيل اليوم بما فيه الكفاية؟

لا أدري لماذا لم يكن هذا الموضوع يحتمل التأجيل، بل لا أدري كيف لأم وليد أن تنسى أنني أخرجت وليد للتو من المخفر وتناقش على الفور موضوع مستقبل آلاء الدراسي، مسألة يعدُّها بعض الناس أمراً طبيعياً. انتهينا في الصيف الماضي من مصيبة ما تطلق عليه آلاء مسمّى طموحها وهدفها في الحياة، تريد دراسة الطب في الخارج، لا أدري كيف تجرأت لتتفوه بمثل هذا الهراء أمامي، بنت تسافر لوحدها وتستأجر مسكناً وتدرس الطب، كأننا نقبل أن نرمي ابنتنا في بقعة بعيدة كل البعد عن الكويت بحجة الدراسة، ألا فلتذهب الدراسة إلى الجحيم، لقد تأثرت بمحيطها الفاسد الذي يهوّن كل المفاسد.

بعد شدّ وجذب وبكاء وعويل تقبّلت الأمر الواقع واقتنعت أن الدراسة في الخارج لا تناسب البنات، فنحن أسرة محافظة ولا تسمح لنا عاداتنا وتقاليدنا بمثل هذا التراخي في المفاسد. والآن عادت لتضل الطريق مجدداً، وكأن الدراسة في الخارج كانت الأمر الوحيد الذي أفقدني رشدي بفكرها المنحرف، فليست كل كلية وليس كل تخصص مقبول، الطب بحد ذاته وكل تخصص آخر يرميها في وظيفة مختلطة تقابل فيها الرجال أكثر من النساء فهو من طينة الدراسة في الخارج.

لقد فوّتت التسجيل في الجامعات في الصيف الماضي بعد منعي لها من التقديم على البعثات الخارجية، كنوع من الضغط أو الإضراب عن الدراسة، وعندما رأت ردة فعلي علمت أن فعلها انقلب ضدها: "جيد، لا بأس، لا تدرسي ولا تنالي أي شهادة، مكان المرأة بيت أبيها وبيت زوجها بعد ذلك". فقررت التسجيل في الجامعات للفصل الدراسي الثاني أو حتى في السنة القادمة، لكنها عادت واختارت تخصصات مثل الطب والصيدلة ولا أدري أي خيار ثالث تخبئ لي، تدرس سبع سنوات مختلطة بالطلبة الشباب، ثم تعمل في محيط مختلط كذلك، تفحص هذا وتعاين ذاك، بل وتضطر إلى لمسهم ربما بحجة الفحص، أي طموح هذا؟

لقد أوضحت لها بشكل لا يقبل الاشتباه أنني لا أقبل دخولها إلى المجالات الدراسية والمهنية المختلطة، فبدأت تجادلني بمختلف الأفكار التي تزرعها رفيقات السوء في رأسها، فتحتج بالقول إنّ كل التخصصات والوظائف فيها اختلاط بين الجنسين لا محالة، وأن الاختلاط شائع في كل مكان، فلا يعقل أن أطلب منها ألّا تتعامل مع

الرجال مطلقاً، وهي تقول إن الاختلاط لا يعني تنازلها عن مبادئها الأخلاقية، وكأن الاختلاط واحد لا يتفاوت بين المجالات المختلفة! يظن أبناء هذا الجيل أنهم أذكى منا حينما يستعملون الحجج التي تتردد على مسامعهم، يتخيلون أنفسهم يلقون الكلام الذي يُبهتنا ويُعجزنا عن الرد والنقاش. لم أتصرف بهذه الوقاحة مع والدي قط.

دارَ حوار مقتضب مع أم وليد والتي كالعادة تهوّن مصائب أبنائها وتحاول الوصول إلى حل وسط معقول حسب وصفها، لكنني قطعتُ عليها الطريق باتهامها هي بإفسادهم بالدلال الزائد، فكلما سددتُ أنا أبواب الفساد أرى أم وليد تفتح نوافذها للأولاد من خلف ظهري. كيف لرب أسرة أن يحافظ على بيته مع ناقصة العقل هذه؟ لولا أنني متأكد أنها تفعل هذا بسذاجة وليس خبثاً متعمداً لطلقتها منذ زمن، لكن الطلاق بحد ذاته يعني بقاء الأبناء بحضانتها، وهو ما يعني الضياع المحتم لهم ولمستقبلهم. بعد ذلك الحوار نزلت آلاء لكي تحاول إقناعي بوجهة نظرها، تلك الفتاة تعتمد طرق المراوغة على عكس وليد، فهي تحاول التقرب مني والتصرف كالابنة المدللة حتى تنال ما تريد، لكن هذا الأسلوب كان يخدعني في طفولتها فقط، لأشتري لها بعض الحلويات أو لعبة تعجبها، ويبدو أنها لا تيئس من هذا الأسلوب رغم عودتها خائبة كل مرة.

بدأت هي بالكلام معي بعد قبلة مخادعة على الرأس، وقالت ... لا لن أنقل كلامها، لا يستحق تضييع الوقت في ذكره مرة أخرى، بعض الكلام لا ينبغي أن يقال في المقام الأول فكيف لنا أن نعيد إحياءه، والمصيبة أن أمها تساندها بقوة هذه المرة، لقد شكّلتا تحالفاً من وراء ظهري، لقد صدق أبي حينما كان يقول: إن تركتَ للمرأة القيادة

سقطتَ من سفح الجبل. لكنني قلبتُ الطاولة ببعض النقاش لأوضح خطأهما تارةً وأبديث بعض القسوة والتوبيخ تارةً أخرى، فعندما ترى آلاء أن التوبيخ طال أمها تضعف أكثر، ولم ينتهِ الجدال حتى أنهيته بإسكاتهما وفرض رأيي، فقلت لهما بالحرف الواحد أن لا خيار لآلاء سوى ما أقرره أنا، وأنهيت الكلام عند اقتراب أذان الظهر.

لم يحصل إلّا بعض التعكير لمزاجي في يوم راحتي، وسيسير كل شيء مثل ما قلت بالحرف الواحد، ثم ستفهم آلاء بعد ذلك أنني أعرفُ منها بمصلحتها، هكذا كان دأب العقلاء من أهلنا دائماً، ليس للمراهقين في هذا العمر قرار حقيقي، ومن يعترض على هذا فليحتفظ برأيه لنفسه، ويترك بناته هو للاختلاط ولممارسة المفاسد. فإذا قال قائل إن دخول النساء إلى جميع التخصصات ضروري، فنحتاج طبيبات لعلاج نسائنا، أو حتى شرطيات وموظفات في المنافذ الحدودية وغيرها من الاحتياجات الضرورية التي تعود علينا بالنفع، فأقول أنا بكل بساطة إن الاختلاف واقع لا مفر منه، ولن يتبنّى الجميع رأيي، وإن كان هو الصحيح قطعاً، إذاً فلتدرس بناتهم تلك التخصصات ولتشغلنَ تلك الوظائف، فإن تغيّر الحال بمعجزة ما وبات الجميع يعتنقون هذا الرأي، فتعالوا نتكلم بالموضوع حينها، ولن يحدث ذلك مستقبلاً.

صعدتُ إلى الدور الأول لآمر وليد بالتهيؤ للذهاب إلى المسجد، فهو سيتهرب بالتأكيد في حال أنني بقيت في المخيّم. حتى الذهاب إلى صلاة الجمعة عمل يجب أن أجبره عليه وإلّا أدى صلاته في المنزل كما النساء. اهتمامه بالذهاب إلى المسجد أصبح عندي بمثابة حلم صعب التحقق، لكنني سأجبره على الذهاب وإن اضطررت إلى

ركله في كل خطوة يخطوها إلى المسجد، وسيعلم هو الآخر أن تلك الركلات كانت خيراً وبركة.

ناديث عليه أكثر من مرة، رفعت صوتي، لا رد، غضبت أكثر من سكوته، فإن كان قد خلد إلى النوم في هذا التوقيت بالذات فلن أتردد في ضربه. هل يعقل أن يصحو مبكراً ليتشاجر ويجلب لي المصائب ثم ينام في وقت الصلاة؟ لا أدري لماذا هم أبنائي بهذا الشكل؟ إنني أحسد بعض أقاربي على صلاح أبنائهم، بينما ابثليث أنا بأبناء يُفقدونني صوابي! هي السبب بلا شك، أمهم ودلالها أفسدا تربيتي.

فتحت باب الغرفة بقوة فلم أجده فيها، ربما هو في الحمام، كم أتمنى لو أنه يتوضأ استعداداً للصلاة، لكن الحمام فارغ. بدأت بالثوران مرة أخرى، وأخذت أصرخ في أرجاء البيت منادياً عليه، حينها أتت الخادمة لتخبرني أنه خرج من المنزل، وأنا الذي عاقبته بعدم الخروج من المنزل لأيام، وها هو يكسر كلمتي في أول ساعة!

أتصل بهِ فلا يجيب، ثم بعد عدة محاولات يطفئ هاتفه النقال، إنّه تمرد صارخ! منذ متى يجرؤ هذا المراهق على معاندتي بهذا الشكل؟ حاولت أمه أن تهدئني لكنني غضبت أكثر، فهي السبب في كل ذلك. خرجت وركبت السيارة وتحركت فوراً، يجب أن أجده حالاً، لن يذهب إلى المسجد بالتأكيد، ربما ستكون الجمعية التعاونية ملجأه، أظنّه يريد الهرب مني لبعض الوقت إلى حين انتهاء الصلاة، فهو يعرف أنني أريد التوجه إلى المخيم بعدها، ويعود هو لاحقاً إلى المنزل. هو يعرف أنني سأؤجل المسألة، وهو سيتحمل العقوبة لاحقاً

بعد أن يستمتع بعطلة نهاية الأسبوع، أنا أعرف ابني وطباعه تماماً، لكنه لا يعرف أن ذهابي إلى المخيم وعودتي بعد غد لا تعني تهاوني في العقاب.

لا أثر له في أي مكان قريب، لا بدّ أنه يختبئ عن ناظري، فلن يمشي بشكل واضح في الشارع. حسناً يا وليد، ستدفع ثمن إفساد يومي غالياً، أنت وأختك كذلك، أم أنكما نسيتما من هو الأب ومن هم الأبناء، سأذكركما بالحقيقة بطريقة لن تنسياها طوال عمركما.

ما إن قررت التوقف عن البحث والذهاب إلى المسجد حتى رنّ هاتفي النقال، كان رقماً غريباً:

- مرحباً أبا وليد.

- أهلاً، من معي؟

ها أنا ذا أستقبل اتصالاً مجهولاً للمرة الثانية، ما الذي فعله وليد هذه المرة يا ترى؟

- أنا الأستاذ فهد، أخصائي نفسي، أولاً أريدك أن تطمئن إلى أن وليد برفقتي وهو على خير ما يرام، لكنه متعب، الناحية النفسية أعني لا الجسدية.

- عفواً يا أستاذ لكن من أعطى لك الحق في التدخل في شؤون أسرتي؟ أعد وليد إلى المنزل حالاً.

- لم أكن أفضل التعرّف عليك بهذه الطريقة، وليد يراجعني لفترة، فهو يعاني من مشاكل نفسية تحتاج علاجاً، إنها أمور بسيطة لكن لا نستطيع أن نهملها، أرجو أن تأتي أنت الآن لنجلس قليلاً، لقد

استطعت بصعوبة إقناع وليد بهذه المواجهة، أرجوك لا ترفض.

- مواجهة ماذا؟ أنا لا أفهم، هل تريد التلميح إلى أن وليد يعاني نفسياً بسببي أنا؟

- ليس الموضوع هكذا يا أبا وليد، لنجلس ونتحدث فهذه المواضيع لا تحتمل النقاش عبر الهاتف، نحن نتجه إلى أحد المقاهي ليهدأ وليد، إن كنت لا تمانع الحضور إليه فنحن ننتظرك، أو يمكننا التوجه إلى عيادتي.

- لا لا، لا داعي للعيادة، المقاهي خالية من الناس في هذا التوقيت بالتأكيد، سأحضر، هل تعلم أنني سأفوّت صلاة الجمعة بسببكما؟

- لا بأس يا سيدي هذه ضرورة، ثم ألم تكن ستفوتها على كل حال وأنت في المخيم كما أخبرني وليد؟ إذاً لا بأس بتفويتها من أجل صحة ابنك.

- حسناً، أين المقهى؟

بعث لي الأخصائي المتطفل موقع المقهى، لقد أثار حنقي بشدّة لكنني اضطررت إلى تحمّله. أنا أعرف هؤلاء المتعجرفين، يظنون أنهم يعرفون كل شيء ويريدون تلقيننا كيف نعيش وكيف نربي أبناءنا، سأذهب لأراهما ثم أتصرف معهما، سأؤدب حتى ذلك المخبول، من أعطاه الحق في أن يقل مراهقاً لم يكمل السن القانوني وهو هارب من المنزل؟ ألا يعد هذا خطفاً في القانون؟

وصلت إلى المقهى وكان يبدو راقياً، إنه مكان مناسب لشرب القهوة، سأحضر إليه لاحقاً مع الأصدقاء. كان ابني جالساً على أحد

الطاولات مع الأخصائي الشاب، لا يبدو أنه يمتلك الكثير من الخبرة، توقعت شخصاً أكبر في العمر. قام الرجل ليستقبلني وظل ابني جالساً في مكانه كأنه يحتمي به، أول علامة تظهر عليه وهو برفقته هي التقليل من احترام والده، هل أحتاج مؤشرات أخرى لأحكم على الأمر؟!

زبون واحدٌ فقط أخذ قهوته وغادر المقهى وبقينا وحدنا مع العامل، جو مناسب للحديث بتقدير فهد الأخصائي النفسي، الذي يحاول إذابة الجليد بقول مبتذل مثل: "لا تُنادِني أستاذ، فقط فهد". وكأنني أعترف له بالأستاذية مثلاً، من يقول هذه الكلمة إنما يريد تأكيد لقبه مع نيل الفضل بالتنازل عن وجوب مخاطبته به، أعني من يقولها من دون أن تناديه بها في بادئ الأمر، أليس هو من عرّف عن نفسه في المكالمة بالأستاذ فهد؟ والآن يقول لي هذا بعد رد السلام من دون أن ألقبه أو أناديه بأي مسمى. ماذا سيكون رأي (الأستاذ) إن علم أنني أجريث له تحليلاً نفسياً مع هذه المعطيات المحدودة؟

بدأ فهد بالحديث عن علاقتي بوليد مباشرةً، ورغم ما قاله في البداية من أنه لا يقصد تأييد ما فهمه من وليد، فهو كان يستمع إلى طرف واحد ولم يستمع إلى القصة من وجهة نظري، وإن ما سيقوله هو شعور وليد وفهمه وهذا يعكس نفسيته سواء أكانَ صائباً في الرأي أم متوهماً صحته. رغم كل هذه المقدمات إلا أنه بدأ يلقي عليّ كل اللوم والاتهامات بالقسوة والتقصير، فأنا لم أحتوِ ابني ولم أتفهم شخصيته بل وألغيث كيانه، أنا السبب في غضبه وشجاراته المتكررة، فأفعالهُ ما هي إلّا رد فعل على الضغط الذي يشعر به في المنزل.. فهو لم يشعر يوماً بحنان الأب وباحتوائه، لم يشعر يوماً أنه

يستطيع بث شكواه ومشاكله إلى والده فيجد الأب الحنون الصديق الذي يسنده في ضعفه ويقوده إلى الصواب من دون كسر شخصيته وإهانته، بل زاد على ذلك أنه تحدّث عن آلاء كذلك، فوليد حدّثه عن تعاملي معها أيضاً ليؤكد أن هذا نهجي وطريقتي في التعامل بالمجمل وليس معه هو فقط بسبب سوء تصرفاته.

- هل تريد أن أسرد لك قصة طفولتي ومراهقتي مع والدي؟ ألا تتساءلون أنتم المتخصصون في هذه الأيام عن سبب كوننا نحن جيلاً قوياً نتحمّل المسؤولية ونواجه مصاعب الحياة من دون أن نواجه نفس المشاكل النفسية التي تدّعون أننا زرعناها في أبنائنا؟ هل تعلم أننا واجهنا أضعاف هذه القسوة التي تنتقدونها اليوم؟ واليوم كلّنا نؤكد أن هذا كلّه إنّما قوّم عُودنا حتى أضحينا رجالاً نشقُّ طريقنا في هذه الدنيا القاسية. إنّها أوهام وهلوسات تزرعونها في عقول الصغار باسم العلم، بل حتى من الناحية العلمية فإن تخصصكم حديث، وما زالَ أمامه الكثير من الوقت حتى يصل إلى مرحلة النضج.. تخصصكم طفل رضيع وليس مؤهلاً لعلاج مشاكل الناس، يجب أن يبقى محصوراً في دائرة الدراسة والتطوير في هذا الزمن على الأقل، والإعلام الفاسد من ناحية أخرى يدمّر الأجيال أكثر. كان في السابق ينحصر في التلفاز وبعض القنوات، لكنه اليوم يغزونا من كل حدب وصوب، ونحارُ في أمر أبنائنا كيف نحميهم ونربيهم، وهذه هي النتيجة أمامك، يهرب ابني مني ليلجأ إلى الغريب الذي يأخذ الأموال في كل جلسة إرشادية، أيّنا أجدر بالثقة، نحنُ أم أنتم؟ عجيب هذا الزمن!

ظلّ فهد يستمع مبتسماً من دون مقاطعة، فقد انتهيتُ من كلامي

وعدت بظهري لأستند على الكرسي كأنني أنهيث هجومي الكاسح واثقاً بانتصاري وعجزه عن الرد المنطقي. لن يكون رده سوى تبرير هنا وترقيع هناك، لكنه لم يحاول الدفاع عن موقفه بل فاجأني بردّه:

- كنت أعرف، هكذا أنتم، لا ترون الحق حقاً إلّا بعد فوات الأوان، أنت ما زلت تظن أنك ممسك بزمام الأمور، إنك مثير للشفقة يا خالد.

تخلّيت عن جلستي المريحة لأعود إلى جلستي السابقة، وأقول مقطباً حاجبيّ:

- يبدو أنك نسيت نفسك وبدأت بالتطاول، أنتَ كذلك تحتاج إلى من يربّيك.

مددت يدي وأحكمتُ قبضتي على قميصه ليفهم أن تهديدي حقيقي، وأنني لست من الشخصيات التي تعطيه أدنى مجال لتقبّل الإهانة، لكن المفاجأة لم تكن ردّاً أو تحركاً منه هو، بل من وليد الذي صرخ:

هكذا أنتَ دائماً، ترفض حتى الاستماع إلى رأي مختلف عن رأيك!

فقامَ فهد من مكانه ولكمني على وجهي بكل ما أوتيَ من قوة. أعادتني اللكمة إلى الوراء فاختلّ توازن الكرسي ووقعت إلى الخلف على رأسي. كانت صدمتي لا تُحتمل، لقد ضربني أمامَ ابني بعد عبارتهِ تلك، هذا يؤكد صحة رأيي.

التفتُّ نحو عامل المقهى الذي بقيَ جالساً بكل برود وراء طاولة إعداد القهوة وهو ينظر إليّ، كأنه راضٍ بل مستمتع بالمشهد. ثم أدرتُ وجهي إلى اللئيم فهد، فرأيت وجهاً آخر! كان وجه شيطان

حرفياً، لا شك أنني دخلت في نوع من الرؤية الغيبية، لقد انكشف وجهه الشيطاني أمامي، هو الشيطان الذي دخل بيني وبين ابني فصنعَ كل هذه المصائب! وجهه مسودٌ كأنه اكتسب سمرةً لم تكن فيه قبل قليل، وأرى في عينيه لهباً حقيقياً يخرج منهما لكنه لا يحرق شعره. جمّدني الرعب في مكاني رغم قوة إيماني، فمن ذا الذي يستطيع مواجهة شيطان من شياطين الإنس – هذا إن كان إنسياً فعلاً – ولا يعجز عن الحراك والكلام كما أنا الآن؟

بقيت مستلقياً على الأرض واقعاً تحت سيطرة الصدمة المرعبة. لقد هانث صدمة ضرب فهد لي أمام ابني، أجل هانث حقاً أمام رؤيتي لهذا الشيطان الآثم. أدرتُ وجهي أخيراً لأرى وليد، على أمل أن يصحو من غفلته ويستيقظ ضميره بعد فعلته الشنعاء، كان واقفاً يتأمل في وجهي كأنه محتار بين صحوة الضمير ووسوسة الشيطان، نطق أخيراً:

- قلتُ لك إنّ حالته ميئوس منها، آخر الدواء الكي، هيا بنا.

تقدّم نحوي ومدّ يديه ليحاول أن يساعدني على النهوض، أو هذا ما ظننته، قبل أن يلف يديه حول أكتافي من الخلف ليحملني ويمسك الشيطان برجلي ويرفعاني في الهواء.. بدأت الصراخ والمقاومة فاقترب عامل المقهى بسرعة، وجلّس الكرسي الواقع على الأرض وعاد إلى مكانه بصمت، كأنهم اتفقوا معه على كل شيء. كلما حاولت المقاومة أكثر أحسست بوهن في جسدي، لا بد أن أستعطف وليد، هو ابني في النهاية ولن ينسى صلة الدم. رفعت رأسي لأكلمه فانهمر على وجهي لعاب من فمه، انتفضت محركاً رأسي يميناً

ويساراً لأتخلص من هذا اللعاب المقزز، لا يبدو هذا كلعاب عادي، كمية مهولة نزلت من فمه لا تفرزها حتى الكلاب، والرائحة المقرفة ملأت أنفي، رائحة جيفة متعفنة ربَما أو شيء أسوأ. لم أشمّ رائحة كهذه في حياتي! حملاني إلى سيارة فهد، لم أقاوم وبقيت تحت تأثير الصدمة، أو ربّما الحزن، هذه نقطة لا رجعة فيها، عندما يُضربُ الأبُ أمامَ ابنهِ!

وضعاني في الخلف وجلسا في المقاعد الأمامية وبدأ فهد بقيادة السيارة. لم يكونا يخشيان هربي كما يبدو، تحسست أنفي الذي لم أشعر بنزيفه قبل هذه اللحظة وقلت أخيراً:

- ماذا يجري الآن؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ أهكذا تريد حل مشكلتك معي يا وليد يا بني؟

أجاب فهد:

- سترى الآن، أنت مغرور بشكل فظيع، يستحيل أن ترى أخطاءك، تظن أنك على حق دائماً، هذه هي أصعب خصلة نتعامل معها في العلاج النفسي.

- وهل يتضمن علاجكم ضرب الناس وخطفهم؟ أتدري لولا أن ابني متأثر بك كل هذا التأثر لكان لي تصرف آخر، لكن يجب أن تحمد الله على تعقلي رغم فعلتكما الشنعاء.

- جيد، إن كنت تدّعي التعقل حقّاً، حاول أن تتصرف بتعقل بعد قليل.

لم أفهم ما يعنيه ولم أسأل، لم أشأ أن أعطيه اهتماماً أكثر،

ناولني بعض المناديل الورقية لأمسح الدم عن أنفي. لم يكن الدم ما يضايقني لكن الألم، ربما كُسر أنفي. وصلنا إلى عمارة في منطقة السالمية، ترجلا من السيارة وفتح لي فهد الباب، تبعتهما بخنوع استغربت أنا نفسي منه، لا أعرف ما الذي دهاني بعد تصرّف وليد والرجل! يبدو أنه كسر شيئًا داخلي، غير أنفي طبعاً. بعدما صعدنا إلى الطابق الثاني وفُتح باب المصعد اكتشفت أنها عيادة فهد، دخلنا إلى غرفة فيها كنبات وأمرني بالجلوس، وأنا مستمر في إطاعتهما.

بعد جلوسي بلحظات فتح باب الغرفة، دخلت زوجتي وابنتي آلاء، توسّع بؤبؤا عينيّ من المفاجأة، وصحت بهما:

- ماذا تفعلان هنا؟

- نصفّي حساباتنا معك.

أجابت زوجتي، زوجتي المطيعة الهادئة انقلبت عليّ، ماذا يحدث لهذا العالم؟ دخل بعدها الشيطان فهد ووليد. كنتُ جالساً على كنبة فردية في زاوية الغرفة، زوجتي وابنتي جالستان على كنبة ثنائية على يساري، فهد يجلس على الكنبة الفردية في الزاوية المقابلة، وليد واقف بجانبه كأنه حارس شخصي، بدأ فهد الكلام:

- بلا مقدمات يا خالد، أنت شخص نرجسي، ولا تفسر هذه الكلمة تفسيراً إيجابياً، فهي لا تدل على قوة الشخصية والثقة، إنها اضطراب نفسي، لقد عانت عائلتك الأمرين معك، لم يسلم أحد منهم من الضرب والتعنيف، بدءاً من زوجتك وانتهاءً بأبنائك الذين كبروا ولم يتوقف الضرب بحجة التربية والتأديب. لقد استغليت انكسار زوجتك وتعلقها بك، وعدم وجود ظهر يسندها بعد موت أبيها غيرك،

فعاملتها كالجارية التي لا وجود لها ولا كيان ولا فائدة سوى خدمتكَ وتلبية أوامرك، وإن كنا لنقول إنها زوجة وتستطيع الانفصال لتهرب من حياة لا تريدها فأبناؤك لا يملكون هذا الخيار. أتحسب أعصاب وليد وشجاراته في المدرسة سوء أخلاق؟ إن هذا إلّا نتاج ضربك وتعنيفك، هو لا يستطيع التعبير عن نفسه بشكل مناسب منذ صغره بسبب تعاملك أنت، لذلك يُخرج الكبت عن طريق هذه التصرفات. إنّ تزعزع شخصيته ولجوءهُ إلى العنف كان خطأك أنت، أما آلاء فكان تأثيرك عليها مشابهاً ومختلفاً في نفس الوقت، فهي ابنتك البكر التي بدل أن تكون المدللة كانت المهانة، أنت لا تنفك تشعرها بالذل والنقص فقط لأنها أنثى، لقد نشأت بلا كيان ولا أدنى شعور بتقدير ذاتها، فجاءت محاولتها لبناء ثقتها بنفسها وإسعادك وإرضائك عن طريق التفوق في دراستها، الشيء الوحيد الذي برعت فيه. لكن النهاية لم تكن سعيدةً أبداً. أنا أتفهّم رفضك لسفرها إلى الخارج، بل أقنعتها بالتنازل عن الفكرة، لكنك تريد اختيار تخصصها كذلك ومنعتها من كل تخصص تتمنى دراسته. أنت يا خالد حالة صعبة، وأصعب ما في علاج من هُم في نفس حالتك هو اعترافهم بالمشكلة، فأنت تمارس الإنكار وأعلمُ أنك غالباً ستمارسه الآن ولن تقتنع أنك تعاني من مشكلة. اعلم يا خالد أنّ مراجعي عيادات العلاج النفسي غالباً هم ليسوا المرضى النفسيين بل ضحايا المرضى الحقيقيين.

أنهى محاضرته أخيراً وزوجتي وابنتي تنظران إليّ بحزن وقد ابتلّ وجهاهما بالدموع، يبدو عليهما التأثر وتأييد كلام فهد. التفتُّ إلى وليد الذي كان ينظر إليّ كذلك لكن نظرته مختلفة، كانت مزيجاً من الانكسار والحزن والغضب، يبدو أنهم يعانون حقّاً.

- أنا أسامحك على ما فعلت يا وليد، أعرف أنك فقدت السيطرة على أعصابك.

تغيّر وجه وليد وابتسم، كأن الأمل دبّ فيه فجأة.

- وأنتِ يا آلاء، أنتِ ابنتي الأولى، أنتِ حبيبتي، أنا أفتخر دائماً بتفوقك وبأدبِك.

اعتدلت آلاء وأمها في جلستهما تنتظران إكمالي للكلام، فجأة يريد الجميع الاستماع إليّ بعد أن كانوا يتهربون من نصائحي سابقاً:

- أنا أعلم أن لا ذنب لكم في ذلك، كل هذا عمل هذا الشيطان، إنّه شيطان صدقوني، لكن انكشفَ لي وجهه الحقيقي في المقهى، لقد كشفهُ الله لي، رأيت وجهه بملامح شيطانية شريرة، إنه هو من يغويكم ويخدعكم، سأحميكم منه، أعدكم بذلك.

لم يرد عليّ أحد، قام الجميع من أماكنهم وخرجوا من الغرفة وظل فهد. يكفي هذا سأقوم وأضرب هذا الوغد، قفزت من الكنبة لأنقضّ عليه وأنتقم من محاولته تدمير عائلتي، لكنه أخرجَ شيئاً من جيب بنطاله وألصقه برقبتي. سقطتُ على الأرض وجسدي يهتز ويرتعش؛ لقد صعقني الخبيث بصاعقٍ كهربائي شلّ حركتي، لكن ألم الصعق لا يوازي ألم اتباع زوجتي وأبنائي لهذا الشيطان وعصيانهم لي:

- أتدري يا خالد؟ سنعود إلى علاج العصور المظلمة، العلاج بالكهرباء.

فتحَ الباب فدخل وليد وسحباني إلى غرفة أخرى، فيها سرير علاج ثبّتاني عليه. وبسبب الصعق ما زالت قواي خائرة، إنهما

يلفّان أحزمةً على يديّ وقدميّ وحزاماً كبيراً يثبّتني من خاصرتي. يا إلهي! كيف يفعل هذا المجرم هذه الأفعال في عيادته؟ إنه فعلاً كسرير المصحات العقلية القديمة. أحاول القيام والهروب فأعجز عن التحرك! جلبَ الشيطان جهازاً يحتوي على مقبضين ينتهيان بقطع بيضاء، وقفَ عند رأسي وصاح: تعالا، فدخلت زوجتي وابنتي، ثم جعل كل مقبض على رأسي من جانب.. بدأت أتحرك لأمنعه من تثبيتهما على رأسي، لكن مجال حركتي كان محدوداً. أمرَ وليد بتشغيل الجهاز واستطاع أن يلمس رأسي بالأطراف البيضاء.

كان الصاعق الأول أفضل بكثير، الصعق في الرأس شيء مختلف، أغمضت عينيّ لكنني لا أرى ظلاماً، بل ومضات بألوان مختلفة تملأ عينيّ، أو رأسي، لستُ متأكداً، تسارعت أنفاسي وبدأت أتوسل إليهم لتركي وشأني:

- سأخضع لأي علاج تريدون، فقط أوقفوا هذا الجنون.

قالت زوجتي: ذقْ طعم ما كنا نذوقه من عذاب، هل كنت يوماً تستمع إلى توسلاتنا إليك بضرورة تفهّم مشاعرنا؟

تلقّيتُ صعقة أخرى أحسستُ معها أن عضلاتي تتمزق، وقلبي ينفجر، توقّف نفسي حتى بعد توقف الصعقة لثوانٍ. عيناي تؤلماني بشدة، لا أستطيع النظر بشكل واضح، أفتح عينيّ لثانيتين واضطر إلى إغلاقهما ثانية، سمعتُ صوت آلاء:

- ألغيتَ وجودنا فلم نكن إلّا أدوات تملكها كالجمادات في حوزتك، هل تتوقع تعاطفاً من الجماد الآن؟

- أصبحنا بلا شخصية ولا كيان بسببك، لم تعلمني التصرف الصحيح ولم تحتوِ احتياجي إلى أب حنون وقريب مني، فلم أعرف غير لغة العنف للتعامل مع البشر، ثم تلومني على ذلك؟ هذا ما جنته يداك.

قالها وليد وأتت الصعقة الثالثة، صعقة طويلة هذه المرة، أحسست أنني أحترق، كأنني أشمّ رائحة دخان، الدخان يخرج من رأسي بالتأكيد، عضضت لساني وأنا أحاول الصراخ، بدأ فكّي بالانغلاق بقوة على لساني الخارج من فمي بلا قدرة مني على السيطرة على أي عضو في جسدي، انغلقَ فكي بالكامل، نعم لم أستطع أن أدخل لساني، لقد قطعتُ لساني بفكّي، ولم يتوقف الصعق بعد. بدأت أختنق، ربّما بسبب الدم الذي تجمّع في حلقي، أو بسبب الكهرباء السارية في جسدي، لم أعد أستطيع التمييز، ثم انطفأ الضوء، أو انطفأت الحياة!

فتحتُ عينيّ بصعوبة، لم أمت لحسن الحظ، أنا لست في العيادة، الشمس فوقي، والتراب تحت خدي، لقد ألقوني في ...، أين أنا؟ لقد ظنوني ميتاً، لا أحد حولي، أنا في الصحراء، لا أستطيع حتى الزحف من مكاني، سأنتظر أن ينقذني أحد، أو ارتاح قليلاً ثم أستجمع قواي لأبدأ بالزحف في البر.

عامر

يوم الجمعة يوم راحة بلا شك للغالبية العظمى من الناس، لكن ليس بالنسبة لي، أنا لا أرى الأيّام كما ترونها أنتم، ولا أسمّيها بأسماء أيام الأسبوع كما ترتبون أعمالكم وفقاً لها، أنا ومن هم في مجالي نملك تقويماً خاصاً بنا، تقويم النخبة. تتفاوت الأيام بين أيام عمل دؤوب وأيام راحة واستجمام حسب الأوضاع السياسية والاجتماعية ربّما، فأنا ناشطٌ سياسي، بل أنا من اللاعبين المهمين في الساحة، لكن مكاني خلف الكواليس، إن حضرتَ مسرحيةً ما ستلاحظ الكثير من الأشياء تؤثر بشكل مباشر ومهم في أحداث المسرحية، بل تكون الأدوار الثانوية في بعض المشاهد أهم من دور أبطال المسرحية أنفسهم. هناك قطع ديكور تتحرك بدقّة ولا يكتمل المشهد بل لا يتمّ بدونها، أنت لا ترى من يحركها وكيف ينسّق حركتها، وأين وكيف تختفي عندما ينتهي دورها، وكيف تخرج إلى مشهد جديد بعد أن كانت غير ظاهرة، كأنها خرجت من العدم! لاعبو الكواليس فنّانون لكن لا يحبّون الظهور والأضواء، نجوم بلا ضوء، كالثقوب السوداء في الفضاء، لم يُكتشف وجودها برؤيتها بل بملاحظة تأثيرها القوي، حتى اكتشفنا أن المجرة بأكملها تدور حول أكبرها.

ربّما لن يقتنع الكثيرون بتأثيري في الساحة وفي الرأي العام، لكن هذا لا يهم أبداً فلو كنت أهتم بالنجومية لاخترت الظهور، يكفيني تدفق الأموال بلا تقييد لحريتي، أهميتي وحظوتي من دون شهرتي تعني عدم تسجيل أخطائي، فالسياسيون يحترقون فجأة بحدث

أو بسلسلة أحداث، وأبقى أنا في مكاني أنتظر من يحل مكانهم ليخطبوا ودّي ورضاي، فحدث واحد يغير دفّة الشارع ويطيح بأناس ويرفع آخرين.

كل هذا بفضل حساب وهمي، أو إن كنّا نريد تجميل الصورة، حساب إخباري محترم، لقد عملت لسنوات على منصات التواصل الاجتماعي لأبني هذا الحساب، لقد انتهى عصر الصحف الورقية ونشرة الأخبار في القنوات التلفزيونية لنسحب نحن منها البساط، فحسابي هو أحد أكثر الحسابات متابعةً في البلاد، وتأثيره لا يستهان به إلى الحد الذي يجعل الحسابات الصغيرة التي تحاول تثبيت أقدامها في الساحة تعيد نشر الأخبار التي ننشرها دقيقة بدقيقة، فقد أصبحنا مصدراً معتمداً لبقية الصحف الإلكترونية، وأقول الصحف تجاوزاً لأنها لا ترتقي لتنسب إلى الصحافة.

حساب باسم واحد لكن على منصات مختلفة، تويتر أو كما سمّي مؤخراً (إكس)، إنستجرام، سناب شات، هذه الثلاث منصات تشكل قوّة لا تصدق، لم أكن أتخيل أنا نفسي أن يكون تأثيري أنا وأخباري على الناس بهذا الشكل، فأنشط في فترات الانتخابات وفي فترات الأحداث السياسية المهمة. شائعاتي أصدق من أخبار حقيقيّة، فالشائعة تكتسب قوتها من تصديق الناس لها. كلما اجتمعت الجماهير على شخص تعاظمت قوته، نفس المنطق ينطبق على الشائعة والخبر الكاذب، فكلما صدقّها ورددها عدد أكبر من الناس ازداد تأثيرها. هكذا كانت السياسة على مر العصور، الصِدق ما يصدّقه الناس وإن كان كذباً، والكذب ما يكذّبه الناس وإن كان حقيقة مطلقة.

يفشل الكثيرون في دخول هذا المجال، فلا تتوقف الحسابات الجديدة عن الظهور ومحاولة الانتشار، لكن أغلبها يختفي بعد فترة بسيطة بعد فشلها في إحداث أي فارق يذكر، ورغم وجود عدة عوامل للنجاح أو الفشل إلا أن أكثر الحسابات تفشل بسبب غباء أصحابها وانعدام خبرتهم، فيحسبون نشر الشائعة مجرد نشر لخبر تلقيه على الناس ليكمل انتشاره. إن نشر الأخبار الكاذبة لهو علم وتخصص قائم بذاته، فحسابي مثلاً لم يقل تأثيره على الناس أبداً حتى بعد انكشاف كذب بعض الأخبار، فأنا لا أنشر شائعة إلّا بعد أن تكون محاطة بأخبار صحيحة، قراءة الساحة والمستجدات مهم للغاية، فلا بد أن تنشر شيئاً يتوافق مع الجو السائد، وفي نفس الوقت لا بد لك من مصادر تجلب لك أخباراً حقيقية لا يصل إليها الجميع فتكون أكبر داعم لمصداقيتك، فبدون تلك الحصريات المؤكدة لن تكون سوى أحد تلك الحسابات المتسلقة الجديدة، فإن كان هناك من يتصيّد لكشف أكاذيبك فسيقع غالباً في فخ الأخبار الحقيقية السريّة، والتي تنكشف حقيقتها بعد فترة فتدعم صدقك ومهنيتك، ثم أخيراً هناك تبريرات مقنعة لعدم تحقق الأخبار التي ينكشف زيفها. دائماً هناك مخرج، كان من المقرر أن يصدر هذا القرار الذي نشرناه، لكن قوى الظلام تدخلت وأفسدت مصالح البلاد والعباد! لم تكن تلك شائعة، إنما تمت محاربة تعيين ذلك الشخص في ذلك المكان الحساس من قبل الدولة نفسها! المشروع الفلاني كان على بعد شعرة من الاعتماد، لكنّ سرّاق المال العام والفاسدين وأدوا المشروع حتّى قبل ولادته! ونجد لدى المتابعين الإصرار ذاته على تصديق هذه الكذبة، بعد أن تكون صياغة الكذبة نفسها قابلة

لهذا التلاعب لاحقاً، هذا فنّي الذي لا يتقنه الجميع.

أنا في طريق العودة إلى مدينة الكويت لحضور اجتماع طارئ مهم، فكما وضّحت، عملي يؤثر على كل المناخ العام في البلاد، وليس شيئاً شخصياً يعده صاحبه مهماً في الوقت الذي لا يقدّم أمره شيئاً ولا يؤخر. لقد اتصل بي أهم عملائي وأكبرهم، لا بد لنا من الاجتماع وجهاً لوجه حالاً، هناك أحداث مهمة لا بد من تجييرها لصالحنا، أو لصالحه بالأحرى، لكنها تصب عليّ الأموال صبّاً فهذا في صالحي كذلك بكل تأكيد. الوضع العام ملتهب والانتخابات على الأبواب فلا بد من توجيهٍ للناس هنا، وتشويهٍ للخصوم هناك. لا تهم التفاصيل، فأنا أستلم الأوامر وأصيغها بالشكل المناسب للنشر، لم أفكر بتغيير ملابسي وتوجهت مباشرة إلى مكتب ذلك الشخص المهم في أحد الأبراج التجارية في مدينة الكويت، فلم يكن مكتبه هذا رسمياً وخاصاً بإحدى شركاته أو ما شابه، إنما مكتب استأجره لاجتماعاته السرية بعيداً عن الأعين في برج غير مشهور وقليل الازدحام، يحتوي على مكاتب لبعض الشركات الصغيرة. في الواقع ليست تسمية المكان ببرج إلّا تفخيماً للمبنى ذي العشرين طابقاً.

صعدتُ إلى الدور السابع عشر ودخلت إلى المكتب مباشرةً، كانوا قد تركوا الباب مفتوحاً لأجلي فأغلقته ورائي، لكن لم يكن الأمر كما توقعت، لم يكن عملاً وأخباراً جديدةً للنشر، كانت تنتظرني مصيبة سثلقى على رأسي، أو هي أُلقيت على رأسي منذ ساعات من دون أن أعرف شيئاً عن الموضوع. ألقيت التحية بمرح وبشكل طبيعي لأتفاجأ بردٍّ جافٍّ من سكرتير (قاف) الخاص، هكذا كنّا نسميه (قاف) فلا نذكر اسمه وليس حرف القاف له علاقة باسمه كذلك،

فلا يذكر اسمه عند تواصلي معه أو مع فريقه لا في المكالمات ولا في التواصل المباشر. لم يرد قاف على السلام وبقيَ ينظر إليّ شزراً، استغربت من الوضع، لا بد من وجود مشكلة ما، ليست هي المرّة الأولى وسأعمل على حلّها بسرعة كما ظننت.

جلست وأنا أوجه إليهم نظراتٍ متسائلة بينما لم أنطق ببنت شفة، بدأ قاف بتوجيه الكلام:

- يبدو أنك لا تدري ما الذي حدث، نظراتك البلهاء توحي بذلك.

- أبداً، لا أدري ما تقصدون بهذا الكلام.

- ادخل إلى تطبيق إكس وابحث عن اسم حسابك الإخباري، ثم يكون حسابك عسيراً، أتظن أنك تستطيع التلاعب بي أيها الغبي؟

لا بد أن يكون هناك سوء فهم ما، ما الذي يُغضب قاف بهذا الشكل؟ أنا واثق أنني لم أفعل أي شيء يضره، كل منشوراتي إمّا متماشية مع مصالحه إن لم تكن بتوجيه مباشر منه، أو محايدة وتنشر أخباراً تافهة هنا وهناك ومقابلات مع بعض غريبي الأطوار لتحقيق الانتشار. فتحت التطبيق وقبل أن أدخل اسم حسابي تفاجأت بوسم يحمل اسم حسابي بعد كلمة فضيحة! كان الوسم يتصدّر (الترند) في الكويت.

ارتفع الدم إلى رأسي وبدأت أحس بالحرارة تزداد تدريجياً، كأن أحدهم أحاطني بنيران ملتهبة فجأةً، كان الهيّن في الأمر هو كشف هويتي، أخيراً تمّ اكتشاف صاحب الحساب الإخباري المنشور، وهذا ما كنت أتوقعه مسبقاً، ولن يهمني كثيراً؛ كشف اسمي ليس أمراً

خطيراً، لقد تمّ كشف هوية أكثر من شخص ممّن يديرون الحسابات الإخبارية، جلّ ما في الأمر هو تحول العمل من عمل سرّي إلى عمل يخصني وكأنني صحفي رسمياً. المصيبة كانت في الشائعة المرافقة لهذا الخبر، لقد تم ربط حساب إخباري آخر باسمي، حسابٌ لا يمت إليّ بأي صلة، لكن هناك بعض الصور التي يتم إرفاقها كدليل، صور تغريدات – كما كانت تسمى سابقاً – خاصة بي كما يفترض بها، لكنها منشورة في الحساب الآخر وقد تمّ تصويرها قبل مسحها. يدعّي الخبر أن خطأً قد صدر مني عند إدارتي لكلا الحسابين، فكنت أريد إصدار تغريدةٍ بحسابي الأساسي وأصدرتها بحسابي الإخباري المزعوم عن طريق الخطأ، وتمّ مسحها بعد دقيقة واحدة لكن هناك من صورها، هكذا يدّعي الكاذب الذي نشر الشائعة!

المشكلة أن التغريدة تلك تتضمن الحديث بلسان مدير الصحيفة الإلكترونية التابعة لي، تخيّل أن تجد خبراً في صحيفة سين يقول: يسر أسرة صحيفة صاد أن تعلن كذا وكذا! وصحيفة سين هذه يفترض بها أن تكون صحيفة مستقلة لا تمت بصلة إلى صحيفة صاد! هذا ما حدث بالضبط، أو هذا ما تمّ ادّعاؤه، المصيبة ليست في الشائعة بحد ذاتها، لكن في كون تلك الصحيفة ضد توجُّه (قاف) ومصالحه، فهي تقذفه وتتهمه شخصياً بأسوأ التهم، وتنشر الشائعات المغرضة عنه، والتي أعتقد أن بعضها حقيقي ولا يعرف قاف كيف يتم التوصل إلى تلك المعلومات. إنها أكثر صحيفة معادية لقاف، وقد حاول قاف لفترة التحري عن صاحبها بلا جدوى، فصاحبها يجيد الاختباء، لكن الآن تنتشر هذه الكذبة ويصدقها قاف، يظنني عميلاً مزدوجاً، أعمل معه وأستمتع بأمواله بينما أدير أعمال أعدائه.

يأبى قاف تصديقي رغم الأيمان المغلظة والدليل غير القاطع الذي تم نشره، لا شيء حقيقي يدل على ارتباطي بتلك الصحيفة، سوى تلك الصورة السخيفة وادّعاءات بأنّ هناك تحريات وأدلة أخرى سريّة كشفت إدارتي لذلك الحساب. سلّمته هاتفي ليفتّشه كيفما شاء، لكنه لم يفكر بلمس الهاتف:

- بالطبع لن تدير الحساب بهاتف تحمله معك حين تقابلني، أتظنني ساذجاً يا عامر؟ كنتَ تحت مظلتي طوال هذه المدّة وأنت تطعن ظهري بخنجر حسابك ذاك، هل يستحق المبلغ الذي تتقاضاه من أعدائي خسارتك لدعمي؟ ليس المال ما تكسبه عندما تكون معي وأنت تعرف ذلك جيداً.

- أقسم لك إنها شائعة مغرضة، ليس لي علاقة أبداً بذلك، لا شك أن مَن نشر الشائعة يريد إيقاعي في مشكلة معك بعدما عرفَ هويتي ويعرف بطبيعة الحال دعمي الدائم لك، لا تفسير للأمر غير ذلك.

- لا تفسير سوى خيانتك، ستدفع الثمن غالياً.

- ستُظهر الأيام كذب هذه الشائعة، سأثبت لك ذلك، يمكنك وضعي تحت المراقبة وستتأكد أنني لست من يدير ذلك الحساب.

- ههه، أعذارك التافهة أقبح من ذنبك، فهي استخفاف بعقلي وبفطنتي، بالتأكيد لديك من يعمل لحسابك، هكذا تدار الأعمال.

كلما حاولتُ الخروج من هذه المصيبة أصل إلى طريق مسدود، المشكلة أنّ حسابي معروف بدعم قاف، ومن المعروف أن المتنفذين الكبار من أمثال قاف يدعمون خدمات إخبارية إلكترونية وغيرها

من الوسائل لتلميع صورتهم ونشر أفكارهم، وإن كان واضحاً للناس ذلك لكن تأثير الدعاية لا يستهان به، فكما أن الجميع يعرفون أن الإعلانات التجارية لا تمثل الصورة الحقيقة للمنتج أو للخدمة المعلن عنها، إلّا أن تأثيرها مهم وضروري لتوجيه استهلاك الزبائن. مطعم وجبات سريعة سيئة من ناحية القيمة الغذائية يدعي تقديم أجود أنواع الأطعمة، يعرف الجميع كذب الإعلان لكن هذا لن يوقف سيل اللعاب وركض الزبائن لتناول الوجبة البغيضة. هكذا يتعامل قاف وأمثاله مع الناس، زبائن تسيّرهم الإعلانات المدفوعة.

ومن ناحية أخرى فأمثالي أنا من أصحاب الحسابات الإخبارية يبحثون عن ذلك الراعي الرسمي الذي يغنينا عن الوظيفة والراتب الشهري المقيت الذي لا يصمد إلى منتصف الشهر، ومن يكون حظه وفيراً كحظي – قبل هذه الشائعة - يكون راعيه شخصاً مثل قاف، يدفع مبالغ تعمي أي عين عن مبادئها وأخلاقها، وفي نفس الوقت فهو يعتبر قوةً لا يستهان بها في البلد، فبعد المال يكون النفوذ هو الهدف الآخر، المال يصنع النفوذ والنفوذ يجلب مزيداً من المال وهكذا، هذه هي الوصفة المثالية لرغد العيش. مذ دخلت في ظل قاف تذللت أمامي العوائق والمصاعب، لكن وجودك في الخندق المقابل يعني العكس تماماً، حتى إن ملكت المال فعدوّ مثل قاف يستطيع أن يُحيل عالمك إلى ظلام دائم، لا تحقق نجاحاً ولا تقترب من أي هدف تضعه نصب عينيك.

لقد بذلت جهوداً مضنيةً لأصل إلى مكانتي الحالية، شهرة وتأثير حسابي من جهة، وعلاقتي بقاف ولو بمثابة مرتزق يعمل تحت إمرته من جهة أخرى، لن أخسر كل هذا بسبب وغدٍ نشر هذه الشائعة

بطريقةٍ تحمل الجميع على تصديقها. فبالإضافة إلى الصورة المفبركة أو ربّما لم تكن مفبركة، من الوارد أن صاحب الحساب المشؤوم الذي تمّ ربطه بي مشارك في هذه اللعبة، يكتب تلك التغريدة ويمسحها بعدها بدقيقة بعد أن يتم تصويرها، ثم ينتظر الوقت المناسب لإطلاق الشائعة، والأدهى من ذلك أنه يعدّ الناس بأدلة جديدة قاطعة سينشرها في الوقت المناسب. هذه استراتيجية خبيثة، يستخدمها الكثيرون من السياسيين وغيرهم، وهي التلويح بأوراق ومستندات مزعومة يهدد بنشرها في حال لم تتم الاستجابة لمطالبه. إن لم يصدّق الجميع هذا الكلام فلن يكذبه الجميع كذلك، وبهذه الألعوبة تحشُد ما تحتاجه من مؤيدين يكونون كافين لدعم مطالبك.

اختيار مصدر الشائعة مهم كذلك، سيكون حساباً وهمياً بطبيعة الحال، لا لخدمة إخبارية مشابهة ولكنّه حسابٌ شخصي، نوع آخر من الحسابات المرتزقة، يُدار كونهُ حساباً شخصياً، يدّعي صاحبه أنه شخص ذو علاقات حسّاسة ومصادر موثوقة تُخرج الأسرار من بطون السراديب المغلقة لتفضح الممارسات الخاطئة للفاسدين ولبعض رجالات الدولة والمتآمرين وما شابه من مسميّات يتلاعب أبطالها بمشاعر العامّة، وبعد فترة وجيزة يصبح هذا الحساب كأنه روبن هود السارق الشريف، فروبن هود يسرق من الأغنياء الظالمين ليهب المسروقات إلى الفقراء المظلومين، وصاحب هذا الحساب كذلك معذور في إخفاء شخصيته ونشر شائعاته، فهو يحارب الفاسدين ويناصر الشعب المسكين، ولا يصدق الغالبية أنه مجرّد مرتزق آخر يخدم فاسداً آخر!

المشكلة أنّ قاف ومساعديه يعرفون هذه التفاصيل أكثر مني، لكنهم يأبون حتى التفاهم والبحث عن الحقيقة. غضبهم مبرر في البداية بالتأكيد، لكن من حقي طلب التحقق وإنكار الكذبة المنسوبة لي، لكن ما لا يخدم موقفي هو عدم وجود سبب منطقي لاستهدافي أنا شخصياً، فلست لاعباً مهماً في الساحة هذه، لا أملك سوى إدارة هذا الحساب فقط، لا أعرف أي مصلحة من الممكن أن تبرر لأي كان إلحاق الضرر بي بهذا الشكل! هل هو أحد المنافسين يريد إسقاط حسابي الإخباري من مكانته المرموقة ليحتل هو مكاني؟ أمرٌ وارد لكنه مستبعد، ليس بهذه الصورة الغريبة، بل على العكس تماماً، من الممكن أن تشكل لي هذه الشائعة نوعاً من الدعاية السلبية، والتي تنتهي بزيادة عدد المتابعين وانفرادي بالصدارة، لن تكون خطوة حكيمة بالتأكيد لذلك استبعدت هذا الاحتمال. و لكن ما هي القصّة وراء كل هذا؟ لا أملك أدنى فكرة!

تركني قاف وسكرتيره الخاص وخرجا من الغرفة بعدما أمرني بالانتظار، التوتّر يتضاعف في كل لحظة، لا أعلم ما الذي ينويان فعله. إنّه لشعور حارقٌ أن تتهم ظلماً بجرمٍ لم تقترفه، أقول حارقٌ لأنني أشعر بحريق فعلي نشبَ داخل جسدي، يستهلك الأوكسجين بوتيرة أسرع فيتسارع تنفسي، يبحث قلبي عن وقود يتغذى عليه فتتسارع دقاته ليدور الدم في جسدي وتحترق كل قطرة فيه عاجزة عن الوصول إلى قلبي. قلبي هو مركز ذلك الحريق، الآن فقط أفهم كلمة الأم التي تقسم أن قلبها يحترق وهي ترى ولدها يموت ببطء تحت أنقاض بيتها المقصوف بصاروخ الاحتلال، وكل العالم صامت بل هناك من يدافع عن ذلك المجرم الصهيوني، رغم عدم تشابه

مواقفنا بتاتاً، لكن الشعور بوقوع الظلم عليك يحرق القلب فعلاً.

مرت نصف ساعةٍ تقريباً قبل أن يعود قاف والسكرتير الخاص إلى الغرفة. وجه قاف لا ينبئ بخير، جلسا ورغم هدوء أعصاب قاف هذه المرة لكن عدم رضاه عنّي كان جليّاً:

- حتى إن قررت تصديقك يا عامر، فالأمر يخرج من يدي تدريجياً، لديك أعداء كثر، لقد أضررتَ بمصالح الكثيرين في حسابك هذا، والآن انكشفت هويتك.

- لكنني فعلت كل شيء في سبيل خدمتك، لم أضر بأحدٍ إلّا مقابل مصلحة لك، ثم إن كانوا يملكون شيئاً ضدي فليشتكوا عليّ، فريقك القانوني كان يتأكد دائماً من موقفنا القانوني.

- أنا ظهرك وسندك أيها الأحمق وليس الفريق القانوني، أتظن أن سلامة الموقف القانوني تعني شيئاً في عالمنا؟ ألا تعلم أن مسألة كشف هويتك لم تكن تستعصي عليهم أبداً؟ إن ما يوقفهم هو وضوح تبعيتك لي، فإن أنا رفعت يدي عنك أصبحتَ لقمة سائغةً لهم، وها أنت بدلَ أن تطلب غفراني وتؤكد على ولائك المطلق لي تحاول التبرير والدفاع عن موقفك بهذا الشكل الوقح، تنسون من أنتم دائماً، تظنون أنّ الناس سواسية حقّاً، لكنني أبشّرك، أنا لن أعاقبك على خيانتك ولا على تطاولك، لكنني لن أكون السور الحامي لك بعد الآن، فلتذهب وتواجه أعداءك، إنّهم بانتظارك.

- إنّهم بانتظاري أين؟ ماذا تقصد بكلامك هذا؟

ابتسم وخرج من الغرفة من دون إجابة. يجب أن أختفي عن

الأنظار وأحتمي بالقانون، وواضح من كلام قاف أنه ما من مأخذ قانوني من الممكن أن يزجّ بي في السجن، فالانتقام سيكون شخصياً، يجب أن أعيد ترتيب حساباتي بعيداً عن قاف، هذا المتعجرف اللعين، لقد نسيَ أنني أملك فضائحه وملفاته الخفيّة، لديّ ما أراوغ وأفاوض به على الأقل، فلينتهِ دعمه لي ولتنقطع أمواله عني، أنا لست في حاجته أصلاً فحسابي الإخباري سلاحٌ كافٍ للمواجهة، وثقته المفرطة هي نقطة ضعفه.

لكن قبل اللجوء إلى القانون عليّ التفكير كما يفكرون، إنّهم يهددونني بأعدائي، هل نسوا أن أعدائي هم في الواقع أعداؤهم قبل أن يكونوا أعدائي؟! فكل من كنتُ أمسُ سمعتهم وأضر مصالحهم هم مجرد ضحايا، ألحقُ بهم الأذى خدمةً لقاف وبتوجيه مباشر منه. إنه يريد الآن تسليمي إليهم، سأقلب هذا التهديد إلى صفقة رابحة، كل هذا بسبب اتهامي بالخيانة، سأخونه فعلياً إذاً، فأعدائي هؤلاء سينقلبون إلى أصدقاء وأخلّاء، وحين يعرفون أنني سأقف في صفّهم وأعطيهم كل ما يريدون من فضائح قاف، سيتغاضون عن الماضي ويفكرون في مصالحهم القادمة. هكذا تدار اللعبة، هي سياسة ليس فيها صديق أو عدو دائم، وأنا أملك الكثير من الأوراق الرابحة في هذه اللعبة، وسيندم قاف على تخليه عني بهذه السرعة.

خرجت من الغرفة وكان المكان خالياً، غادروا المكان من دون إبلاغي ولم يهتموا بإغلاق الباب، خرجت من المكتب واتجهت إلى المصعد لأغادر المبنى اللعين، بدأ المصعد بالهبوط طابقاً تلو الآخر، بدأت أتساءل إن كان هناك أحد في انتظاري فعلاً في الطابق الأرضي، أو لعلّ قاف كانَ يتحدث بالمجاز ويعني أنهم سيحاولون

الإضرار بي لاحقاً.. في كل الحالات سأمضي في نفس الخطة، سأستخدم فضائح وملفات قاف للتعامل مع أعدائه، أو سألجأ إلى القانون إن كان هناك محاولة للإيقاع بي في قضيةٍ ما.

اقتربَ المصعد من الدور الرابع، طلبت الطابق الأرضي بطبيعة الحال، لكن ما كاد المصعد أن يصل الى الطابق الثالث حتى توقف فجأة وانطفأت الأضواء، كدتُ أن أقع في مكاني بسبب الوقوف المفاجئ. ظلام دامس، لا أستطيع أن أرى أي شيء أمامي، أخرجت هاتفي وأضأت المصباح الخاص به لأتمكن من الرؤية، حاولت ضغط زر جرس الإنذار، حتى هذا الزر الخاص بالطوارئ لا يعمل، لا بد أن الكهرباء قد انقطعت عن المبنى، لكن أليس هناك مولد احتياطي يُفترض به أن يعمل الآن؟

بدأت بالطرق بقوة على الباب بعد مرور خمس دقائق بدون أن تعود الكهرباء إلى العمل. لا بدّ من أن يسمعني أحد، المشكلة أن اليوم هو الجمعة، كان المبنى شبه فارغ عندما دخلت، الحارس في الطابق الأرضي، يجب أن يفكر بالتحقق من المصاعد. اللعنة على هذا الحظ البائس! لماذا لم تنقطع الكهرباء إلّا في هذه اللحظة؟! هل من الممكن أن يكون قاف وراء هذا الانقطاع؟

لا أستطيع استبعاد هذا الاحتمال، لكن إن كان قد أوقفَ المصعد بشكل ما فهل يستطيع إيقاف زر جرس الإنذار والأضواء؟ ربّما يمكنه ذلك إن قطع الكهرباء عن المصعد، ألم يفكر مصمم المصعد الغبي أن يكون زر الإنذار موصول ببطارية ما ويعمل حتى في حال انقطاع الكهرباء؟ لا أعلم شيئاً عن هذه الأمور لكن لا يعقل ألّا يكون هناك

نظام طوارئ خاص بهذه الحالات!

مضى على وجودي أكثر من عشر دقائق وأنا أصرخ وأطرق على الباب بين الفينة والأخرى، أخيراً لبّى أحدهم النداء، إنني أسمع طرقاً وصوتاً ينادي:

- هل هناك أحد في المصعد؟

- نعم، أنا هنا، أرجوك ساعدني على الخروج.

اقترب الصوت أكثر، يبدو أنه كان يطرق في البداية على باب مصعدٍ آخر، أكدت له أنني في هذا المصعد، صوته واضح الآن، قال لي إن الكهرباء مقطوعة، هذا جيد وأفضل من احتمال إيقاف قاف للمصعد. طلب مني الرجل الابتعاد عن الباب ليحاول هو فتحه، ثم بعد لحظات من سماع صوت طرق على الباب تمكّن الرجل من إدخال عتلةٍ سوداء في منتصف الباب. فُتح الباب أخيراً، ساعدني الرجل على الصعود فقد كان المصعد منخفضاً عن مستوى الدور الرابع. قفزت بسرعة وهو يسحبني إلى الخارج. من المهم في هذه الحالات العبور من الباب بأسرع وقت ممكن، فمن الوارد تحرك المصعد فجأة مما يشكل خطراً قاتلاً.

لم يكن الحارس هو من فتح الباب، الدور مظلمٌ تماماً وليس هناك مصدر ضوء سوى شموع داخل المكتب المجاور، كأن هذا الطابق لا يحتوي على أي نوافذ! من الطبيعي أن يكون المصعد مظلم، لكن ما الذي يجعل الدور كاملاً خالياً من ضوء الشمس؟ ربما يكون طابق خدمات يحتوي على بعض الأجهزة وما شابه، فحسب ما أراه بمساعدة ضوء الهاتف والشموع في الغرفة المجاورة أنه لا نوافذ هنا

ولا ينفذ حتى شعاع واحد من الضوء من الخارج. ثمةَ أصوات تصدر من داخل الغرفة المضاءة بالشموع، هناك عدّة أفراد هنا، رجّحت أن يكون الخلل في هذا الطابق وهؤلاء يعملون على إصلاحه، لكن هل يعقل أنهم يستعينون بضوء الشموع فقط؟

- ماذا حدث؟ هل انقطعت الكهرباء عن المبنى كله؟. سألت الرجل الذي أخرجني من المصعد.

- نعم، عن المبنى هذا فقط، الخلل داخلي كما يبدو.

- المكان مظلمٌ هنا جداً، لماذا لا نوافذ هنا؟ هل يمكنك أن تدلّني على المخرج؟

- لا نستطيع الخروج الآن، هناك بوابة كهربائية تفصلنا عن الدرج، وهي لا تعمل الآن بطبيعة الحال، يجب علينا أن ننتظر إصلاح الخلل وعودة الكهرباء.

تأففت من الوضع التعيس وأردفت: من الغبي الذي صمّم هذا الباب؟ نحن نريد الخروج لا الدخول، يجب أن تكون الحماية من الخارج فقط.

- هي كذلك بالفعل، عند الدخول لا بدّ من استعمال البطاقة، وعند الخروج كل ما عليك هو الضغط على الزر لفتح القفل، والزر لا يعمل الآن.

- لحظة، كيف إذاً خرجت أنا من المصعد مباشرةً إلى المنطقة المغلقة هذه؟ هذا ليس منطقياً.

- المصعد هذا لا يقف هنا عادةً، الدخول يكون عبر الباب الإلكتروني

أو عبر مصعد خاص.

- إذاً لا بد من وجود مخرجٍ للطوارئ، ألا تعلمون أين هو؟

- كلامك صحيح، لكن هناك مشكلة، هذا الطابق أجريت عليه بعض التعديلات ولم يتم تصميمه من البداية هكذا، ومخرج الطوارئ يفصلنا عنه جدار كامل، لا تقلق إننا نعمل على تشغيل البطارية الاحتياطية، كان من المفترض أن تعمل بشكل تلقائي، إمّا أن نشغلها أو تعود الكهرباء، ليس هناك ما يدعو إلى القلق، الحارس يتابع الموضوع لقد تكلمت معه.

لم يكن هناك حل مثلما يقول الرجل إلّا الانتظار، دعاني إلى الدخول إلى تلك الغرفة، فيها إضاءة على الأقل وكراسٍ للجلوس، لا معنى للوقوف هنا. دخلتُ معه إلى الغرفة الصغيرة التي كانت كأنها قاعة انتظار، ثم هناك باب آخر يقود حيث تأتي الأصوات الأخرى. سمعت صدى ثلاثة أصوات يتحادث أصحابها ورأيت أثر إضاءة كأنّها آتية من مصابيح يدوية. الأمر أكثر منطقيةً الآن، جلستُ واستأذنني الرجل ليلتحق بالبقية ويتحقق من عملهم. لم أفكر بالاتصال بأحد، لقد قال الرجل إنّ الحارس يعمل على حل الموضوع، وأن العطل داخلي فلا معنى للاتصال بطوارئ الكهرباء مثلاً، أمّا الاتصال بالإطفاء فسيكون محرجاً إن تمّ حل المشكلة بعد دقائق معدودة ليكون عليّ الاعتذار حين وصولهم إلى الموقع. ثم إنني لا أريد لفت انتباه كائنٍ مَن كان إلى وجودي في هذا المبنى المشؤوم. سحقاً لقاف وللمصائب التي تأتي من وراء قاف.

بدأت بالتأمل والتساؤل وأنا جالس لوحدي هناك، ما هذا المكان

بالضبط؟ لا شيء فيه يبدو منطقياً، هل هو مكان خزنةٍ كبيرة مثلاً؟ لا أدري ماذا يوجد في الداخل لكن المكان لا يوحي بذلك، غرفة الانتظار ذات الشموع هذه هي المدخل الوحيد إلى بقية الطابق كما يبدو، كما قال الرجل فقد تمّ إحداث بعض التعديلات على المكان، لكن إن كان الطابق حساساً إلى هذا الحد ويُمنع دخول أي شخص إليه لا يحمل ترخيصاً للدخول إذاً كيف يتركني الرجل لوحدي هنا ويلتحق بالبقية؟ سأحاول التحقق من هذا المكان، قد يكون اكتشافاً مفيداً وقد قادتني الصدفة إلى خبرٍ مثير أنشره في صحيفتي الإلكترونية، يجب أن أتفقد المكان.

قمت ودخلت إلى الغرفة التالية وكان هناك مكتب استقبال مغطى بالزجاج، وبقية الغرفة فارغة من كل شيء، ثم هناك بابان آخران، أحدهما يقود إلى الغرفة التي تصدر منها أصوات الرجال، ومضاءة بأكثر من مصباح يدوي وهاتف، والباب المجاور موارب وليس هناك أي إضاءة ولا صوت يصدر من الداخل. قررت الدخول إلى تلك الغرفة واكتشاف ما فيها قبل أن أتوجه حيث يوجد الرجال. أطفأتُ مصباح هاتفي النقال لكي لا ينتبه إليّ أحد، وتقدمت على أطراف أصابعي نحو الباب الموارب. كنتُ قد اعتدت على الظلام فكانت الإضاءة الخافتة القادمة من شموعهم كافية، لكن ليس في الغرفة المظلمة. فتحتُ هاتفي وحاولت الاعتماد على نور الشاشة في بادئ الأمر، لا أستطيع رؤية شيء، أعدت الباب إلى وضعه وشغّلت مصباح هاتفي.

هذه الغرفة واسعة ليست كباقي الغرف، تتوسطها طاولة مستطيلة كبيرة كأنها طاولة اجتماعات، تحيط بها عشرة كراسٍ. كنت أنا

عند طرف الطاولة وعند الطرف البعيد كان الكرسي أكبر من بقية الكراسي. أطراف الغرفة تحتوي على بعض الأرفف والدواليب، وبعض الزينة والديكورات التي لم تكن واضحةً بسبب لونها الداكن وعدم تسليطي الضوء عليها بشكل مباشر، فقد شدّني وجود ملف كبير يحتوي الكثير من الأوراق أمام الكرسي الكبير، مظهره يوحي بالأهمية.

توجهت إلى ذلك الملف لألقي عليه نظرة، ستبدأ بنظرة بريئة من الخارج ثم سأفتحه لأرى إن كان يحتوي على ما يستحق العبث. غلاف أسود فاخر ليس كالملفات العادية، مع كل خطوة نحوه كنت أشعر أنني سأكتشف شيئاً مهماً. وقفت بجانب الكرسي تماماً وكان الملف إياه تحت يدي، هناك خانة فيها ورقة صغيرة قابلة للتغيير لتحمل عنوان الملف: (الخطة النهائية)، عنوان عام لكنه مهم بالتأكيد، سيكشف المغزى من هذا المكان. بدأت أفكر: ماذا لو كُشف أمري الآن؟ كان يمكن أن أبرر وجودي في الغرفة بالفضول، لكن لن يكون عبثي بالملف مبرراً بالتأكيد، لا أملك الوقت لأقرأ الأوراق وهي كثيرة. فتحت الكاميرا في هاتفي، قررت أن آخذ صوراً قدر الإمكان للأوراق بشكل عشوائي مع تركيزي على الأوراق الأولى والأخيرة، ثم أقرؤها لاحقاً، بهذا أكون انتهيت بسرعة من التوثيق وسأحتفظ بأدلة إن احتجت ذلك.

شرعت بالتنفيذ على الفور من دون تردد، فلاشات الكاميرا لن تكون واضحة إلّا إن خرج أحدهم من تلك الغرفة الأخرى. التقطتُ حوالي عشرين صورة قبل أن يوقفني خوفي وأغلقت الملف، التقطت أربع صور أخرى لغلاف الملف وللغرفة. الصورة الرابعة كانت

لأحد أطراف الغرفة التي تحتوي على ديكورات. صعقني فلاش الكاميرا، هو يضيء لثانية تقريباً لضبط تركيز الكاميرا قبل أن ينطفئ ويضيء مرة أخرى سريعاً لالتقاط الصورة. لم يظهر أي شيء غريب في تلك الثانية، مجرد ديكورات للزينة، لكن في المرة الأخرى عند التقاط الصورة ظهر لي شيء يشبه وجهاً عملاقاً مشوّهاً! أرعبني المظهر وعدت إلى الخلف بحركة لا إرادية بفعل الخوف، اصطدمت بأحد الكراسي ووقع مني الهاتف على الأرض.

أكره تلك اللحظات، خيال سخيف يرعبك ويجعلك تقفز فزعاً قبل أن تكتشف سخف موقفك. لا أحد هنا الآن ليضحك من ردة فعلي لكن الوقت الآن ليس ملائماً لارتكاب تلك الأخطاء.. انحنيت أبحث عن هاتفي وسط الظلام، جيد أن الشاشة ما زالت تعمل وتصدر بعض الضوء رغم أنها مواجهة للأرضية. أخذت الهاتف ووقفت لأتفاجأ بالباب ينفتح وتسلّط عليّ أضواء المصابيح اليدوية.

- أرى أنكَ تستكشف المكان. قالها الرجل الذي أخرجني من المصعد وكان يتبعه بقية الرجال الثلاثة.

- نعم، في الواقع مللت الانتظار وقررت استكشاف المكان لكنني تعثرت بالكرسي، أعتذر إن تطفلت على مكان لم يكن عليّ دخوله.

- لا تعتذر، فالاعتذار الكاذب أقبح من الفعل نفسه.

- ماذا؟ ماذا تقصد؟ أنا كنت فقط... ارتبكت بعد ردّه المفاجئ وقاطعني قبل أن أكمل:

- لا داعي للتبرير، اجلس على الكرسي، أعني ذلك الكرسي الكبير.

أشار إلى الكرسي إيّاه.

أذعنتُ تحت تأثير استغرابي وعدم فهمي لردّة فعله، هل اكتشفوا أنني صورت أجزاءً من الملف؟ أنا متأكد أنهم لم يحضروا إلا للتو، وحتّى في حال أنني دخلت مكاناً يمنع علي دخوله فتصرفه يبقى غريباً، هو لم يحذرني من التجول في المكان في بادئ الأمر، ثم ليس هناك أقفال أو أي شيء يمنع دخولي إلى الغرفة، وهذا يعيدني إلى التناقض الغريب في هذا الطابق كله، فإن كان مكاناً محمياً لا يسمح لأي أحد بدخوله إلى درجة عدم وجود نوافذ، فيفترض وجود وسائل حماية أكثر في الداخل ولا يكون دخولي إليه بسيطاً وسهلاً، ووجود الملف على الطاولة غريب كذلك! لنفترض أن هؤلاء الأشخاص كانوا في اجتماع في الغرفة قبل انقطاع الكهرباء، لماذا لا يوجد أي شيء آخر على الطاولة سوى هذا الملف؟

جلست على الكرسي وأنا أنتظر ردة فعلهم وأتهيأ للاعتذار مرة أخرى لأنهي هذه المشكلة. جلس الرجال على الكراسي عن يميني ويساري، ثم أطفؤوا مصابيحهم اليدوية ليعم الظلام الدامس الغرفة، وتلقائياً شغّلت مصباح هاتفي النقال ليضحك الرجل إيّاه ويمد يده نحوي ويطلب هاتفي. لم أملك الشجاعة للرفض وأعطيته الهاتف. أغلق الهاتف حتى لا تُصدر الشاشة كذلك أي ضوء:

- لماذا تفعلون هذا؟ أنا لا أفهم شيئاً.

- أنا الذي لا أفهم، لماذا تريد النور، هل تحتاج إلى الرؤية فعلاً؟ فأنت تنشر أخبارك من دون التحقق منها، تعتمد على أذنك فقط، تتلقى أوامر قاف وتنفذها من دون أن تطلب منه أن يريك الحقائق.

كان يفترض بك عندها أن تطلب منه إنارة المشهد كي تتحقق منه قبل النشر، أليس كذلك يا سيد عامر؟

جفّ لعابي وعجزت حتى عن بلع ريقي ولم أجد ردّاً على كلامه، يبدو أنّها كانت مؤامرة منذ البداية، احتجزوني هنا عن قصد، والصادم أنه استخدم اسم (قاف) ولم يذكر اسمه الحقيقي، يريد أن أعرف أنه على علمٍ بكل أسراري، هل هؤلاء أعداء قاف الذين كان يقصدهم؟ هل سلّمني قاف إليهم؟ لا أدري، لكنني استجمعت قوتي لأحاول التحدث بصوت واثق يخفي جزعي، واعتدلت في جلستي وسط الظلام لأقول:

- لم يكن عليكم فعل كل هذا، قطع الكهرباء وكل ما تبعهُ! أنا متعاون إلى أقصى حد، سترى ذلك. إن قاف خانني ورماني بتُهمٍ ظالمة، يمكنكم تشغيل الضوء الآن لنتفاهم، لديّ الكثير مما يفيدكم، سنصل إلى اتفاق بالتأكيد، صدقني أنا لست عدوكم، بل يمكنني أن أكون صديقاً مقرباً.

ضحك الرجال بصوتٍ عالٍ، كأنهم كانوا يعرفون ردّي هذا مسبقاً، ثم قال أحدهم: هيّا ماذا ننتظر. وردّ آخر: نعم لقد آن الأوان.

وبدؤوا بالقيام من أماكنهم والتحرك نحوي، لا أستطيع رؤية أي شيء، فقط كنت أستمع إلى أصواتهم. قال الرجل الذي أخرجني من المصعد والذي كان قائدهم كما يبدو: ستشبعون، ستشبعون.

تغيّر صوت أنفاسهم إلى لهاث غريب، اقترب أحدهم من أذني اليسرى وسالَ شيء من لعابه على كتفي، كان كثيفاً إلى درجة أنني أحسست به من وراء ملابسي، وكريه الرائحة كأسوأ الأقفاص في

حديقة الحيوانات. تقززت وخفت في نفس الوقت وهممت أن أقوم من الكرسي لكن ثبّتتني يد أحدهم من كتفي فلم أقوَ على الحراك، كان قوياً ويده عملاقة، فاليد الواحدة تمسك كتفي بالكامل. أحكمَ قبضته أكثر فانغرست مخالبه في كتفي ورفعني عن الكرسي ليمسك برجلي آخر ويضعاني على الطاولة، أصرخ وأقاوم لكن بلا قدرة على الفكاك من الرجال.

بدأت أتوسل إليهم أن يتركوني، أنا لا أعرف من هؤلاء الناس! إنّهم ليسوا بشراً عاديين أبداً، لهذا أطفؤوا الأضواء بالتأكيد:

- سأعطيكم أي شيء تريدون.

- نريد لحمك.

ما إن انتهى الذي قال تلك الكلمة حتى أمسك بكفي وقضم إبهامي ليقتلعه بشكل كامل، بدأ الدم بالنزيف وقبل أن أنشغل بالألم الفظيع الذي ألمّ بيدي صرخ قائدهم:

- هيا، أطرافه فقط.

بدؤوا بأكل يديّ ورجليّ بكل وحشية، لم أكن أؤمن بقصص المستذئبين، يبدو أنني أواجههم الآن، في وقت الظهيرة بدلاً من الليل كما في القصص والأفلام، أشعر بكل قطعة لحم من أطرافي وهي تنتزع من مكانها وأنا أتلوى في مكاني لا أستطيع منع أنيابهم من افتراسي. بدأ الألم يخفّ قليلاً، ربما توقفوا عن التهامي، أو أنني نزفت كثيراً وشارفت على الموت وتوقف عقلي عن ترجمة ما يصيب جسدي.

ضوء قوي ملأ المكان فجأةً، أخيراً عادت الكهرباء، لا أشعر بوجود أي أحد حولي، فتحت عيني فكان الضوء أقوى مما تتحملهُ عيني دفعة واحدة. لا أقوى على تحريك جسدي، أو ما تبقى منه، أحاول فتح عيني بشكل جزئي، أخيراً تعتاد عيني على الضوء قليلاً، وأكتشف أنني ملقى في البرا

***

فراس

كُتب عليّ التعب والشقاء، أحمل همّاً لا يتوجب عليّ حمله، يسيئ الآخرون التصرّف فأصحح أخطاءهم، ها أنا الآن أعود إلى المدينة في يوم راحتي واستجمامي لأن بعض الحمقى يدخلونني في مشاكلهم من دون أدنى إحساس بالخجل، هذا جزاء من يمد يد العون لمن لا يستحق، أساعدهم في حل مشاكلهم فيستمرون في استغلال وقوفي معهم ليرموا كل ثقلهم على رأسي.

اضطررت إلى العودة لأن زميلي في العمل تعرض إلى مشكلة وكنت أنا من لجأ إليه بحكم قربنا من بعضنا. اتصل بي حامد قبل الظهر ليخبرني بما حدث له ولم يكن يطلب مني العودة، لكنني أبيت أن أبقى في المخيم وأكتفي بمتابعة الأمر من بعيد، لا بد أن أكون معه في أقرب وقت، ولن أنتظر يوم الأحد كما يقول هو، فالمشاكل لا تنتظر الدوام الرسمي لتتفاقم وتدخلنا في تعقيدات يصعب التخلص منها.

الأمر كان بسيطاً في البداية، حامد معجب بزميلة تعمل معنا في نفس الإدارة لكن في قسم آخر، وبما أننا مقرّبان من بعضنا في العمل على الأقل، فقد كنت الوحيد الذي ائتمنه على سره هذا، هو يريد التقرب منها ورسم صورة إيجابية له في نظرها قبل أن يصارحها بإعجابه وبنيّته في التقدم لخطبتها، كان يفضّل بناء أساس من الإعجاب يستند عليه عندما يطلب يدها من أهلها فلا يقابل بالرفض، لكن الخطة خرجت عن مسارها قليلاً ويتوجب عليّ التدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

حنين تعمل في قسم المحاسبة، بينما نعمل نحن في قسم العقود في إحدى الشركات الخاصّة، وهناك تعاونٌ دائمٌ بين هذين القسمين، هي موظّفة مجتهدة وأنشط من زميلاتها، ليس جمالها ما يميزها فحسب، لكنّ حفاظها على الحدود وحياؤها يجعلان منها شخصيةً جاذبة، وحامد يخشى الإقدام على خطوةٍ تجعلها تحيله إلى اللائحة السوداء من الطامعين غير الأكفّاء بودّها، وأنا بدوري أحافظ على علاقة طيبةٍ مع الجميع ومعها على وجه الخصوص بحكم عملنا معاً في كثير من الأحيان. ربّما هذا سبب إضافي لطلب حامد المساعدة منّي في مثل هذا الموضوع الحسّاس، ومنذ ذلك اليوم وأنا دائم المديح لحامد وأخلاقه أمام جميع موظفات قسم المحاسبة، لكن حنين لا تشعر أن الكلام موجه إليها شخصياً. لحسن الحظ فأنا أجيد التعامل في مثل هذه الأمور، فيكون مديحي بشكل غير مباشر ولا واضح وأرميه في سياق الحديث العام، فيؤتي أُكله ولا تشعر حنين بشيء، والأهم من ذلك أنني لا أكذب ولا أبالغ في مديح حامد فهو يستحق ذلك المديح والرجل مخلص في نيته النظيفة.

كل شيء كان يسير على ما يرام، أنا وحامد نملك رقم هاتف حنين، للاستخدام الضروري في أمور العمل بالطبع، فطبيعة عملنا في شركة خاصّة تعني تبادل بعض المعلومات حتى خارج أوقات العمل أو حين نخرج في مقابلات وأعمال خارج مقر الشركة ونحتاج إلى التواصل مع قسم المحاسبة، ينطبق الأمر على أكثر من موظفة، لكن حامد تسرع ولم يلتزم بالخطة، لقد حاول زيادة جرعة التواصل لكي يفتح المجال للحديث عن الأمور الخاصة. لم يفعل الكثير.. فقط كان يزيد الكلام في إلقاء التحيّة والسؤال عن حالها قبل التطرّق إلى أمور

العمل، وحنين بدأت تأخذ موقفاً سلبياً كما يبدو. كما قلت سابقاً لا يستدعي هذا الأمر عودتي اليوم لمقابلة حامد، لكن ليس هذا طبعي، سأكون بجانب صديقي عندما يحتاجني، فهو قلقٌ ويحتاج إلى الرفقة وإلى إنعاش الخطّة التي انتهجها ورسمتها له.

اتفقنا على اللقاء في أحد المقاهي الذي يقدم الشيشة، فكلانا نحب تدخينها خصوصاً في مثل هذا التوقيت، سيهدأ حامد ونضع الأسس للخطوة القادمة. وصلنا إلى المقهى شبه الفارغ وبدأنا بأحاديث جانبية قبل التطرق إلى القصة الرئيسيّة. يجب أن يهدأ حامد ويتخلص من قلقه المبالغ فيه. لم يتركني حامد أسترسل في الأحاديث الجانبية طويلاً:

- لست أحاول اللعب واللفّ والدوران يا فراس، ولست أستطيع التقدم للخطبة مباشرةً كما تعلم، رغم سمعتي الطيبة وعلاقتي المهنيّة بحنين لكن مفاجأتها بالتقدم لأهلها ربّما تقابل بالرفض من ناحيتها، ثم سأموت كمداً فضلاً عن احتمال شيوع الخبر في الشركة، وهذا ما سيزيد الأمور تعقيداً ويفرض عليّ قيوداً جديدة في التعامل معها بل مع قسم المحاسبة ككل.

- لقد تسرّعت يا حامد، فسؤالك المبالغ فيه عن حالها ومحاولة فتح باب لتبادل الحديث الشخصي سيفسد الأمر كله، وستظنّك مثل غيرك ممّن يحاولون التقرّب منها.

- إذاً كيف سأتقرب منها؟ لا بد من بناء بعض الود بشكل زمالة حتى تغيّر نظرتها إليّ.

- ليس بهذا الشكل يا صديقي، لقد قلت لك سأهيئ لك الظروف

لكي تعمل معها على المشاريع القادمة لوقت أطول، أنت حتى هذه اللحظة لم تعمل معها بشكلٍ كافٍ، إنك عجول بحق.

- أخشى أنّه في وقت تنفيذ خطتك طويلة الأمد هذه أن يتقدّم إليها أحدهم وتوافق على الارتباط به وتطير آمالي كالغبار.

- ليست خطتي طويلة الأمد يا رجل، لكن لا تستعجل وتُفسد كل ما بنيناه، صحيح أنني انفصلت عن زوجتي ولم أنجح في زواجي لكنك تعرف أن طليقتي هي التي هدمت زواجنا، وأنا أعرف كيف تفكر المرأة وستكون حنين من نصيبك، صدقني.

- أتمنّى ذلك.

لقد أغلقت حنين الباب في وجه حامد فور أن ابتعد عن الحديث المباشر عن العمل وبدأ يسألها عن أحوالها، مع أنه لم يتعدّ أي حدود ولم يكن ما سألهُ إلّا سؤالاً بسيطاً عنها. هذا لا يبشّر بخير، إن كان لديها ميلٌ قليلٌ ناحيته لما لمّحت عن عدم رغبتها في الخوض في حديث شخصي، فبعد سؤالها أسئلةً مثل: كيف حالكِ؟ وكيف هو يومكِ؟ أجابته بـ : تفضّل يا حامد هل تحتاج شيئاً يخص العمل؟ وهذا تلميح واضح بأنه لا يحق له حتى السؤال عن حالها ويومها، هذا يتطلب كسر هذا الحاجز بينهما، ربّما تحتاج تلميحاً غير مباشر مني أن حامد يفكر في الزواج، ليس منها على وجه التحديد لكنه بدأ يفكر في الارتباط وهذا سيوحي لها بجديّته، وإن حاول التقرب منها فلن يكون لهدف غير مشروع.

أنا الشخص المناسب لمثل هذه المهمة، فأنا أكثر شخص يذهب في أوقات العمل إلى قسم المحاسبة وفي أثناء العمل تدور بعض

الأحاديث الجانبية مع الموظّفات هناك، وسأرمي كلامي أثناء الحديث مع بقية الفتيات بشكل عرضي، يقول المثل: الكلام لكِ يا جارة. ستلتقط حنين الكلام ويترجمه عقلها تلقائياً إلى تقّبل موقف حامد ثم سنلاحظ تغيّر تعاملها معه. أرى بريقاً يلمع في عين حامد وأنا أسرد له الأحداث التي لا بد أن تقع في المستقبل القريب، أكاد أجزم أنه واقع في الحب وليس مجرد معجب.

كانت عودتي مثمرة ولم أندم على ترك المخيّم، كلامي نفسه بالحرف الواحد لن يكون له نفس الوقع على حامد إن لم أكن أمامه أحدّثه وجهاً لوجه، سنتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم قبل أن أعود إلى المخيم. أصرّ حامد على دعوتي إلى الغداء ليرد لي الجميل، ولن أرفض دعوةً من أحد الأصدقاء خاصةً إن كانت من حامد الذي يضع كل أملهِ وزواجه المستقبلي بين يديّ، لكن قبل أن نخرج من المقهى تلقيت اتصالاً غيّر مسار الأحداث.

اتّصال عكّر مزاجي الحسن في هذا اليوم الجميل، الماضي الذي لا ينفك يلاحقني رغم انتهائه، الصفحة التي تأبى أن تنطوي لأكمل حياتي بسلام، هل يُعمي الحقد البشر إلى هذه الدرجة؟ يكيدون لك لمجرد أنك تجاوزت الماضي المؤلم ويتمنون بقاءك في حالة يرثى لها لكي يُشفى غليلهم؟ كان المتصّل هو والد طليقتي يطلب لقائي للحديث بموضوع مهم على حد تعبيره، هكذا هم بين الفينة والأخرى يحاولون مضايقتي، أحياناً بحجّة إصلاح الأمور ومحاولة إعادة تلك العلاقة السامة، وبعدما يئسوا من تلك المحاولات بدؤوا بإعادة نبش مشاكل الماضي: اتهامي بانتقاص حقوق طليقتي أو طلب إنهاء بعض الأمور العالقة. أي أمور تلك التي ما زالت عالقة ونحن لم نرزق

بأبناء؟ أكاد أجزم أنّ كل هذه ألاعيب من طليقتي لكي لا أفكر في الزواج مرةً أخرى!

استأذنت من حامد لأذهب وأنهي الموضوع مع والد طليقتي بأسرع وقت ممكن قبل أن نذهب إلى المطعم الذي يختاره، وتوجهت إلى المنزل المشؤوم، لم أكن أفضّل القدوم إلى منزل والدها، فهذا يقلّب المواجع ويفتح الجروح التي بالكاد اندملث، لكن خروجي ولقائي معه في مقهى أو في أي مكان عام ربّما يزيد من مدة جلوسي معه، أمّا حضوري إلى المنزل فيعني إنهاء النقاش بشكل أسرع.

استقبلني في الديوانية الخارجية، وبعد سلام ومجاملة مقتضبة بدأ في الدخول إلى الموضوع:

- فراس يا بني، الزواج قسمة ونصيب، والتعامل بين الزوجين يجب ألّا يخرج عن قاعدة إمّا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، لقد تم الطلاق وإن كان أبغض الحلال لكن لا بأس في ذلك إن أنتما لم تستطيعا المضي معاً في مركب واحد، لكن هذا لا يعني أن تحرمها من حقّها يا بني.

- ماذا تقصد يا عم؟ لقد أنهينا كل الأمور وليس هناك شيء عالقٌ الآن، أيّ حق حرمتها منه؟

- مؤخر الصداق! هذا من حقّها وخلافكما لا يعني حرمانها منه.

- لكن يا عم لقد دفعث لها كل دينار من مؤخرها قبل فترة، لقد حولته عبر تحويل بنكي!

- ماذا؟ لكنها تقول إنّكَ لم تعطها المؤخر رغم طلبها المتكرر، هي تقول إنّكَ تتجاهل اتصالاتها ورسائلها بخصوص هذا الموضوع.

- حسناً إذاً، أنا أمتلك الدليل، أعطني لحظةً وسوف أريك التحويل البنكي بالمبلغ كاملاً.

حسناً أنا لا ألومه على تصديقه ادّعاءات ابنته، فعاطفة الأب تفرض عليه ذلك، تلك الحية الرقطاء تكذب وتنكر استلامها للمبلغ، أهي غبيّة إلى هذا الحد؟! ألا تعلم أن التحويل البنكي يثبت كلامي بكل سهولة؟ لا أفهم سبب فعلها هذا، أهو بهدف مضايقتي فقط، أم هو محاولة ابتزاز فاشلة، لا يهم فها هو التحويل البنكي أمامي الآن في تطبيق البنك على هاتفي النقّال، دقيقتان كانتا كفيلتين بتكذيب ادّعائها الباطل، إن كانت تفعل ذلك بهدف إشغالي عن التفكير في الزواج مرّة أخرى فقد نجحت بذلك، فأنا لا أريد الوقوع في نفس المشاكل والخلافات مرّةً أخرى!

استأذنني والدها للذهاب والتحدث معها، وقدّم لي العصير والضيافة الآن، في البداية نسيَ واجب الضيافة و تذكّرها الآن لمداراة خجله أمام دليلي القاطع بتحويلي المال كاملاً إلى حسابها. ستة آلاف دينار غير منقوصة دفعتها لها، ربّما كان يتوجب عليّ الدفع عن طريق المحكمة، من الخطأ التعامل بحسن النية في بعض الأحيان!

المغير للسخرية ليس هو محاولتها مضايقتي أو ابتزازي أو أيّاً كان هدفها من هذه المسرحية الهزلية، لكن فعلها هذا يؤكد عدم إقامتها وزناً لوالدها ولصورته أمام الناس، لقد وضعته في وضع لا

يحسد عليه، وهو من جانب آخر يسهل تحريكه كما تريد، كنت أظن هذا التعامل دلالاً أبوياً لكن الأمر يتعدّى هذا في الواقع، فهو ضعيفٌ أمامها وأمام والدتها وهي لا تخشى استخدامه بكل وقاحةٍ لتنفيذ خططها التافهة.

لم تمر سوى دقائق حتى عاد ليجلس معي ويكمل النقاش. كان الإحراج بادياً على وجهه، جلس يبرر لابنته ما اقترفته بحقّي من افتراء واتهام باطل، وكان العذر أن هناك سوء فهم في الموضوع، أي سوء فهم قد يحصل عندما يتم تحويل ستة آلاف دينار في حسابها؟ ومع اتصال مني أكدت خلاله دخول المبلغ بحسابها البنكي، لقد ادّعت أنها لم تنتبه إلى ذلك التحويل، ولم أواجهه أنا بدوري بحقيقة اتصالي بها فور تحويلي للمبلغ وأن تبريرها هذا لا يعدو كونه كذباً سافراً، فأخلاقي وتربيتي لم تسمح لي بوضعه هو على منصّة الإحراج من دون ذنبٍ اقترفه سوى أنه صدّق ابنته.

لم ينتهِ الأمر عند انتهاء موضوع المال المزعوم، فبعد فتح مواضيع جانبية من طرف والد طليقتي بدأ يسأل ويلمح إلى إمكانية إعادة المياه إلى مجاريها وعودتنا كزوجين. لا تجوز المجاملة في مثل هذه الأمور، فكنت واضحاً صريحاً في إجابتي، لم أكن أنوي إنهاء هذا الزواج في بادئ الأمر لكي أغير رأيي الآن، فلم يدفعني إلى هذا القرار الصعب إلّا إهمالها لي ولبيت الزوجية مقابل اللحاق بتوافه الأمور من قبيل الخروج مع صديقاتها طوال الوقت والركض وراء اللهو والتفاهات، ثم الطامّة التي أشعلت نار الخلاف الحقيقي بيننا وهو تطاولها عليّ وعدم احترامها لي في الآونة الأخيرة، فهذا ما لا يُسكت عنه بلا جدال، وفوق هذا وذاك هي التي طلبت الطلاق

حينما نهرتُها ونصحتها بتغيير سلوكها ليستقيم هذا الزواج. كيف بعد كل هذا يطالبني أحد بإرجاعها إلى ذمّتي؟ بل هي المطالبة بالتعهد وبتقديم الوعود بتغيير سلوكها ليستقيم الأمر كما يطلب والدها.

لم يعجبه جوابي كما توقعت، الناس يطلبون الحقيقة ويرفضونها حين تُقدّم لهم من دون تزلف وتزيين للواقع. تضايقَ والدها من جوابي وحاول توزيع اللوم علينا، فعلى حد زعمه أن الخطأ والتقصير يقع على الطرفين، على الأقل لم يبرّئ ابنته. على كل حال وعدته بالتفكير في الموضوع إن هي كانت مستعدةً للوقوف حقيقة على الأمر وأعادت التفكير في تصرفاتها وأخطائها، ففي النهاية أنا أقدّر العشرة الطيبة والأيام الجميلة التي قضيناها معاً قبل تحوّل الأمور إلى الأسوأ.

استأذنته للمغادرة لألتحق بحامد على وجبة الغداء، لا أنكر أنني كنت أفكر في الموضوع بشكل جدّي في طريقي إلى المطعم، كأن والد طليقتي قد زرع الفكرة في عقلي اللا واعي، وأشعلَ حنيني إلى ابنته. لا أستبعد أن يكون هذا هو الهدف الحقيقي منذ البداية وليس تسوية الأمور المالية العالقة، أو ربّما تكون لعبة منها هي لاستمالتي بأي شكل من الأشكال! تصرّف نسائي للوصول إلى هدف غير معلن بطرق غير مباشرة. ابتسمتُ وتبدّد الضيق السابق، أيّاً كان قراري بالنسبة إلى إرجاعها إلى ذمّتي فلا يمكنني إنكار حلاوة الشعور بأنها قد ندمت وبدأت تفعّل كيد النساء لتصل إلى قلبي المكسور. الشعور بأنك مرغوب له نشوة لا يمكن إنكارها، خصوصاً من شخص تخلّى عنك ثم أحسّ بالندم على قراره الغبي، سأفكر في المسألة إذاً، لكن بطريقتي وبشروطي.

وصلتُ إلى المطعم وركنت سيارتي لكنني بقيت ممسكاً بالمقود موجهاً أنظاري إلى الزجاج الأمامي من دون أن أرى ما بعده، وكأن الزجاج قد تحوّل إلى شاشة سينمائية. بدأت لقطات زواجي تُعرض أمامي، ها أنا أمسك يدها لألبسها دبلة الارتباط في زفافنا ونحن في قمة السعادة، أرى ابتسامتها الساحرة وأنسى ارتباكي السابق وسط توجُّه أنظار كل الحضور إلينا. أمسك كأس العصير لأقربه من شفتيها لترتشف رشفة مِلؤها الهيام وأحلام الغرام وتفعل هي معي المثل. لا أصدق أن هذه الفاتنة ستشاركني حياتي القادمة بحلوها ومرّها، بل لم أتخيل وجود أي مرارة في حياة تجمعني بأميرتي الرقيقة. لقطات الزفاف تلتها لقطات من شهر العسل ثم لحظات سعيدة هنا وهناك. ذرفت عيني دمعة حين بدأ عقلي بتذكيري أن كل هذا لم يكن إلّا حلماً يليه استيقاظ على واقع مر، انتهى كل شيء وعاد المخيّم ليشكّل أوقات السعادة في حياتي، توقفت اتصالاتي بها لنعبّر عن اشتياقنا لبعضنا رغم ابتعادنا ليلة واحدة فقط!

مسحتُ تلك الدمعة الحارقة وهممت بالنزول من السيارة. كان حامد ينتظرني في المطعم وأكرمني بعدم اتصاله ليستعجلني بالحضور، فأنا أكره الاتصالات المتكررة حين يسألك الشخص الذي ينتظر وصولك: أين أنت؟ لقد تأخرت! لماذا لم تصل بعد؟ وكأنه بإزعاجه يختصر لك الطريق الذي تسلكه بالفعل وأنت قادم إليه.

وصلت إلى الطاولة التي بدأ الطعام بالوصول إليها قبلي، يبدو أن حامد قد أتم الطلب بالفعل:

- هل طلبت الطعام؟ حسناً فعلت فأنا أتضور جوعاً ولا أطيق

الانتظار أكثر.

- إنها المقبلات فقط يا صديقي، هيا كلْ وقل لي ما الذي حدث.

- في الواقع كان الأمر مزعجاً في البداية، ادّعت طليقتي عدم إعطائها مؤخر الصداق رغم استلامها للمبلغ كاملاً، ولم يكن من الصعب إثبات العكس، ثم دارت أحاديث جانبية عديدة حتى بدأتْ بتفسير الأمر بشكل مختلف. أنا أعرفها أكثر من أبيها، فقد كنت زوجها وأعلم ما تضمر في نفسها، أنا متأكد أنها فعلت هذا لفتح الباب مرة أخرى للنقاش وللحديث عن حياتنا. لا تريد التصريح برغبتها في العودة إليّ، ربّما يجرح هذا أنوثتها، فكانت هذه اللعبة هي محاولتها لإيصال الرسالة إليّ.

- لا أراها خطّة ذكية في الواقع، ألم تجد فكرةً أفضل من اتهامك بهذا الأمر؟ أعتقد أنها تسعى إلى مضايقتك فقط كنوع من الانتقام.

- لا يا عزيزي، أنت لا تعرفها كما أعرفها، هي تحبّني وقد اكتشفت خطأها، لقد كان الطلاق صفعة أيقظتها من سباتها، أنا متيقن أنها عادت إلى رشدها وتريد إرجاع المياه إلى مجاريها لكنها لا تعرف كيف تفعل ذلك. الدليل على كلامي هو تحول والدها إلى الحديث عن محاولة إصلاح العلاقة بيننا بعد إثباتي تحويل المال إليها. فكّر معي، لو كان الأمر عبارة عن خلاف مالي لم يكن والدها ليحوّل الأمر بهذه السرعة إلى إعادتنا إلى عش الزوجية، لا شك أنها هي من طلبت منه ذلك.

- أنت متوهّم يا فراس، لقد استحوذ الحنين على تفكيرك، في هذه اللحظات تتناسى كل المآسي والمساوئ ويذكّرك عقلك باللحظات

السعيدة فقط، إنها خدعة نفسية معروفة نمارسها على أنفسنا. حاول تقييم الأمر بموضوعية وتذكّر كل الأذى والمشاكل التي سبّبتها لك، هل نسيت كل هذا الآن؟

كأنّ حامد قد علم بأمر الذكريات التي سيطرت عليّ قبل قليل، لكن هذا لا يعني صحّة رأيه، بل كان موقفه الرافض لعودتي إلى طليقتي غريباً بعض الشيء! كان مستميتاً في إقناعي بإزالة تلك الفكرة من رأسي نهائياً، ويراها فكرة سيئة سأعض أصابعي ندماً على تنفيذها. موقفه تجاوزَ حدود إبداء الرأي وإسداء النصيحة كصديق، وما أدراه هو بما يدور في رأس طليقتي؟ أنا أعلم بها منه!

أكملت وجبة الغداء في جو متوتر مع إكمال النقاش في نفس المسألة وحامد متمسك برأيه ويحاول إقناعي بصحّة كلامه. لكنني لا أفكر بشكل متجرد من المشاعر الخادعة (كما يظن هو)، وقراري لا يشوبه الانحياز العاطفي. أمّا والدها فمن الطبيعي أن يرغب في عودة ابنته إلى بيت زوجها فلا يحمل همّ بقائها مطلقةً في بيته. لقد وصلَ الأمر بحامد إلى تحليل تصرفات والد زوجتي بهذه الطريقة النفعيّة، وأنا الذي عاشرتهم وأعرفهم حق المعرفة، فهل يكون رأيي بعيداً عن الرشد والتعقّل!

طلبَ حامد الحساب وأصرّ على دفعه وحدهُ، يجدر به ذلك بعد أن عكّر صفو سعادتي حتّى وإن كانت مزيفة. وفي تلك الأثناء تلقيتُ اتصالاً آخر من والد طليقتي يطلب مني فيه الحديث مرّة أخرى. هناك أمر إضافي يجب عليّ أن أعرفه، كان أسلوبه ودوداً بشكل واضح هذه المرّة. عادت ابتسامتي لتعلو قسمات وجهي، ها هو

الدليل الذي كنت أنتظرهُ لأواجه به حامد المتحاذق، ويصرّ الأخير على أنّهُ تصرّف طبيعي ويوافق تحليله هو للموضوع لا أوهامي أنا.

غادرنا المطعم بعد أن وعدتُ والد طليقتي بالجلوس معه قبل العودة إلى المخيّم، ما يزال الوقت مبكراً ولا بأس بختام يحسّن مزاجي المتقلّب لهذا اليوم. ركبت سيارتي وتحرّكت متوجهاً إلى حيث كنت قبل مجيئي إلى المطعم. كان حامد كذلك في سيارته فأطلقت بوق السيارة بشكل متقطع وأشرت بيدي مودّعاً لكنه كان يتحدث بهاتفه ولم يرد لي الإشارة! يبدو أنها مكالمة مهمة تلك التي شغلته عن الانتباه بهذا الشكل، هل تراه يحادث حنين؟ لا أظن ذلك فقبل لحظات كان يشكو سوء فُرصهِ بالتواصل معها.

كنت أفكر فيما سيحصل في الجلسة المرتقبة وفي المستقبل القريب إن صدق ظني، وكانت طليقتي ستصرّح هذه المرّة برغبتها في العودة إليّ. بدأت أفكر في الأمر وكأنه طُرح بشكل صريح وزال الغموض عنهُ، لكن هذا يتطلب تفكيراً عميقاً وتقييماً واضحاً، يجب أن تكون عازمةً على تغيير نفسها وليس قرارها مبنياً على حنينها إليّ فقط. فأنا لا أرغب في العودة إلى نفس الدوامة التي عشناها قبل الانفصال مرة أخرى ما إن تزول سكرة الحب والشوق ونعود إلى مواجهة نفس المشاكل، فأنا لم أكن ضد استمرار الزواج إنّما كنت أحتاج إلى تصحيح المسار بينما كابرت هي وأوصلت الأمر إلى الطلاق. لا بأس إن كان هذا الطلاق هو ما تحتاجه لكي تشعر بخطئها وبتقصيرها.

وصلتُ إلى المنزل واتصلت بعمّي فرحّب بي وفتح باب المنزل

الرئيسي، الأدلة تتوالى على صحة ما يدور في خلدي، إنّه يستقبلني في صالة البيت الداخلية وليس في الديوانية الخارجية، ثم قدّم الضيافة الكريمة من شاي وعصير وقطع الحلوى، ذكّرني هذا بأول زيارة لهم حين خطبث ابنته، لا أستبعد أنهم يعيدون خلق نفس الأجواء لإيصال الفكرة قبل أن يقولوها لي صراحةً، فهذا له وقع نفسي ويزيد من فرص تقبلي للفكرة.

بدأ والد طليقتي الحديث بالاعتذار عن سوء الفهم الذي حصل اليوم، لكنّ هذا كان خيراً على كل حال، أحياناً يكون الخير مخبأ بين طيات المشاكل والخلافات، وأردف:

- لا يجب أن تبقى الأمور معلّقةً أكثر من ذلك، كان من الممكن أن أنتظر وقتاً آخر لكنني قررت الاتصال الآن ودعوتك لحسم المشكلة.

- أظن أنني أفهم ما تقصد يا عمّي، ولا أخفيك سرّاً فقد كنت أفكر في الموضوع طوال اليوم، بل منذ وقوع الطلاق، لكن إن كنّا نريد حصول ذلك فلا بد من القيام به بالشكل الملائم.

- فعلاً، سأقوم به بالشكل الملائم ولن أهمل أي تفصيل، أو دعني أقول سنقوم به فلست أنا وحدي صاحب المبادرة.

- نعم بالتأكيد، ولهذا أحتاج إلى الجلوس معها للحديث والتفاهم حول كل شيء، إن كان هذا ممكناً في الوقت الحالي.

- لا شك أنها ستحضر بعد قليل، لكن أخبرني في البداية، ما هي أفضل طريقة للتعامل مع العوائق التي تواجهنا في طريقنا؟

- لا بد من إزالة العوائق قبل إكمال المسير والتأكد من التخلص

منها نهائياً فلا يكفي الالتفاف حولها فتعيقنا مجدداً في المستقبل.

- امممم، يعجبني تفكيرك، هذا بالتحديد سبب وجودنا هنا اليوم، إزالة العوائق بشكل نهائي وحاسم.

ختم كلامه بابتسامة وهو يتأمل وجهي لثوانٍ كأنه يحاول قراءة أفكاري، ابتسمتُ أنا بدوري وبدأ قرار العودة يتبلور في عقلي، كل شيء يبدو على خير ما يرام، زوجتي تريد فتح صفحة جديدة كما يبدو، أقول زوجتي قاصداً نسيان وصف الطلاق في إشارتي لها. قام عمّي من مجلسه واقترب أكثر ناحيتي وأنا لا أصدّق أن هذا يحدث بهذه السرعة، وأصبت بصدمة أوقفت عقلي عن العمل، فقد وجّه عمّي لكمةً خاطفةً لي في منتصف وجهي أعادتني إلى الوراء، ولولا أني كنت جالساً على الأريكة لأزاحني مترين إلى الوراء قبل أن أقع على الأرض. أحسستُ بالدم ينزل على شفتي وأنا ما أزال تحت تأثير الصدمة ولا أقوى على تفسير ما حدث للتو.

رفعت عيني لأنظر مباشرة في عينه علّي أفهم ما جرى الآن، مدّ يده مقدّماً لي مناديل ورقية لأمسح بها الدم النازف من أنفي. كان ينظر إليّ مبتسماً وكأن شيئاً لم يكن، لم أعهده قط بهذا الجنون، ربّما فقد أعصابه وقرر التنفيس عن كل الخلافات السابقة وإلحاقي الأذى بابنته حسبما نقلتْ له، لكن ردة فعلهِ ما زالت لا تخلو من غرابة، أيعدُّ هذا درساً أم تحذيراً؟ بعض الآباء يحبون إيصال فكرة أن ابنتهم لديها ظهر تستند إليه في حال آذاها زوجها، لا تفسير سوى هذا. بقيتُ لحظات أنظر إليه من دون حراك حتى قطعَ السكوت وقال: هل ستتركني أنتظر طويلاً؟

أمسكت المناديل الورقية ومسحت بها الدم، فتحرك هو بدوره وتوجّه إلى باب يؤدي إلى إحدى الغرف في الطابق الأرضي، كانت هذه غرفة المكتب الخاصة به. ناداني لأتبعه إلى الغرفة لأن طليقتي تنتظر هناك ولا بد من الحديث معها، لم أشعر بخبث هذا الرجل قبل هذه اللحظة، حتى عندما لكمني لم أستطع تفسير الموقف بشكل صحيح. إنه يحاول كسر شوكتي أمامها، بالتأكيد كان هذا سبب ابتسامته بعد أن نزف أنفي، فالدم ترك بعض الآثار على ملابسي، لكن لا يهم هذا فموقفي أمامها هو المهم، سأتصرف بشكل طبيعي وأتفاهم معها على كل شيء بدون انكسار أو ضعف.

دخلتُ إلى المكتب الذي لم يكن كما كان من قبل، لقد غيرَ عمّي كل شيء. كان الديكور حديثاً بسيطاً في السابق، أما الآن فأرى مكتباً كلاسيكياً كأنه مكتب من العصر الفيكتوري، الأرفف الخشبية الداكنة تملأ الجدران، حتى في الأماكن التي تخلو من الدواليب والأرفف يغطي الخشب فيها الجدران، يمتد الديكور الخشبي إلى السقف الذي تتدلى منه ثريا يبدو أنه اشتراها من محل يبيع التحف القديمة الأصلية. النافذة مختلفة عن نوافذ البيت المتبقية فهي الأخرى على الطراز الإنجليزي القديم. تقدمتُ متأملاً المكان بذهول وأصدرت الأرضية الخشبية صريراً خفيفاً أثار استغرابي أكثر، فهي لم تكن من أرضيات الباركيه الحديثة، وقطع الديكور التي تزين المكان كلها تسافر بك في الزمن إلى العصر الفيكتوري كما ذكرت سالفاً.

- إنها غرفة استثنائية، لا بد أنّها كلفتك مبلغاً محترماً.

- تستحق كل دينار أنفقته.

- لماذا نجلس هنا وليس في الصالة، لا أرى شيماء هنا، أأحضرتني لتريني المكتب أم ماذا؟

- ستحضر شيماء الآن، اجلس وتصرف على سجيتك.

جلست على الكرسي المكسو بالجلد الفاخر بجانب المكتب وأنا ما أزال أتأمل التفاصيل التي تحتاج ساعاتٍ للتدقيق على جميع مكوّناتها. انتبهت للتو إلى الرائحة التي تهيمن على الغرفة، لا أستطيع وصفها إلّا بأنها رائحة عتيقة محببة تصدر من الخشب ربّما، أو من الكتب القديمة التي تملأ المكان، يبدو أن لا كتاب في هذه المكتبة إلّا وقد مضى على إصداره مائة عام.

خرج عمّي من الغرفة وبقيت وحدي لدقائق، كاد فضولي أن يتغلّب عليّ خلالها ليجعلني أقوم وأتفحص تلك الكتب والتحف التي تملأ أرجاء الغرفة، لكنني حافظت على سكوني فلا أريد الظهور بمظهر الطفل المنبهر بالمكان حين دخولهما عليّ في أي لحظة. انفتح باب المكتب وعكسَ توقعي بدخول عمّي، لكن في البداية دخلت شيماء لوحدها، كانت ترتدي فستاناً أسود مزركشاً باللون الأحمر لم تكن معتادة على ارتداء أمثاله سابقاً، كان ضيقاً قليلاً عند منطقة الخصر يبرز تناسق جسدها، وكان شعرها المموج الأسود يتدلى على كتفيها. لم أكن أتوقع كل هذه الزينة، ما هذه التصرفات المليئة بالألغاز التي أواجهها اليوم؟ هل كل شيء يفعلانه هو اختبار لي أم هناك مقصد آخر؟

أغلقت الباب وراءها في إشارة إلى أنها ستكون وحدها معي. جلست على الكرسي المقابل لي وألقت التحية فرددتها بابتسامةٍ

لا تخلو من استغراب وسعادة بسبب هيئتها، وبعد سؤالنا عن حال بعضنا بعضاً بشيء من الرسمية بدأت هي الدخول في الموضوع:

- حسناً، ماذا تحمل من توقعات ورغبات بالنسبة لنا؟

- سأكون واضحاً وصريحاً، أنا لم أنسَ حبّنا في أي لحظة ولكنني كنت وما زلت متردداً بشأن عودتنا تحت سقف واحد، فنحن نحتاج أن نكون متفاهمين لكي لا نعود إلى نفس الخلافات السابقة.

- هذا جيد، سأكون أنا صريحة إذاً بدوري، أعتقد أنك لم تتغير ولم يؤثر الطلاق فيك بشكل إيجابي.

- ماذا تعنين؟ أنتِ لم تتواصلي معي أبداً بعد طلاقنا لتعرفي تأثيره عليّ، ومن ناحية أخرى أنتِ من يجب عليها التأثر والتغيّر بعد طلاقنا، اسمعي يا شيماء، ليست هذه الطريقة المناسبة لمناقشة عودتنا.

- قلت لك هذا جيد، فمن قال لك أصلاً إنك هنا لأنني أرغب في العودة كزوجة لك؟

- ما هذا الهراء؟ إذاً ما الهدف وراء كل هذه المسرحية؟

قلت هذا غاضباً وهممت لأقوم من الكرسي لكنني أحسست بوهن مفاجئ أعجزني عن القيام، أطلقت شيماء ضحكةً عليّ وأردفت:

- لا تحاول النهوض، ستجلس لتسمع ما أريد قوله كاملاً، ثم يمكنك الذهاب إلى الجحيم.

نظرت إليها صامتاً والعرق بدأ يملأ جبيني، ماذا تريد مني هذه

الحمقاء؟ وضعت رِجلاً على رِجلٍ لتكمل كلامها:

- أتظن أنك تستطيع إسكات والدي بذلك التحويل البنكي وقلب الطاولة عليّ بكل بساطة؟ بل هل ظننت أنني أحاول فعلاً الحصول على المال من وراء استدعاء والدي لك؟ يجب أن تعلم أنني لا أخفي شيئاً عنه وهو واقف في صفّي دائماً وأبداً.

صحتُ منادياً عمي لينهي هذه المهزلة، لكن لماذا تخور قواي أكثر فأكثر؟ لا بد أنه خدّرني بالعصير أو بقطع الحلوى. فُتح الباب ليدخل ويجلس على كرسي المكتب ويقول:

- لقد أعطيتك ابنتي لتصونها وتحافظ عليها، إنّها أغلى ما أملك يا فراس، ولكنك لم تصن الأمانة، وبكل صراحة لم أكن أؤيد شيماء في خطتها هذه لكن يبدو أنّها أفضل طريقة لقطع الطريق أمام أي شيء يعكر صفو زواجها.

زواجها؟! ماذا يعني هذا المعتوه؟ هل هناك خاطبٌ تقدّم لها وتريد إرهابي لعدم الحؤول من دون إتمام ذلك الزواج؟

- إذا كانت شيماء تريد الزواج فهذا ليس من شأني، أنت الذي لمّحت أنها تريد العودة إليّ أنا! لم أكن أظن أنّك تفكّر بهذا الشكل الغريب، أوقف هذا الهراء الآن ولتتزوج ابنتك بمن تريد ولا يهمني ذلك إطلاقاً.

- ستفهم لماذا هذا ضروري، تعالَ يا حامد.

ما أشدّ صدمتي حين دخل صديقي حامد إلى غرفة المكتب ووقف بجانب كرسي شيماء، إنّها خيانة كاملة الأركان، لهذا يريدون

إزاحتي من طريقهم، بينما كنت أحاول مساعدة حامد ليخطب حنين، كان الحقير يخطط للزواج من طليقتي! حاولت التغلب على مفعول التخدير الذي ابتلوني به لكنني وقعت على الأرض. على الأقل استعدت جزءاً من قدرتي، يبدو أن التخدير لم يكن بتلك القوة وسيختفي أثرهُ بعد لحظات.

- يا لك من نذل خسيس! كنت أعدّك صديقي.

- في الواقع أنا ما أزال صديقك، لكن شيماء كانت على حق، أنت لن تتقبّل الفكرة وستفعل أي شيء لتفسدها.

- صديقي؟! خسئتَ، أين ستفر مني أيها الخائن، سأنال منك عاجلاً أم آجلاً.

- ها أنت تثبت صحة كلام شيماء مرة أخرى، هذا ما أحتاجه لكي أستمر في تنفيذ الخطّة، إن فكّرتَ بشكل منطقي وعقلاني فأنا لم أرتكب أي خطأ، لقد أكّدتَ لي مراراً أنك لا تفكر في العودة إليها، ثم إن نصائحك لي في أمر حنين كانت تفسد الأمر في كل مرة ولا تساعد في شيء، ثم وبشكل غير مباشر أنت الذي زرعت فكرة التقدم للزواج من طليقتك، أنت الذي كنت تتحدث عنها كثيراً حينما كنت تحاول مساعدتي في الوصول إلى قلب حنين، ألم تلاحظ أنك كنت تتحدث عن شيماء أكثر من حنين نفسها؟ أشكرك على ذلك يا صديقي، فقد أرشدتني بشكل غير مباشر إلى الخيار الصحيح وهو التقدم لخطبة شيماء، فأين الخطأ في خطبتي لها بشكل رسمي من والدها؟

- كيف يمكنك أن تتزوج طليقة صديقك؟ هناك قوانين غير مكتوبة

يتفق عليها الجميع، هذه خيانة ولا ريب في ذلك، سأقتلك، لن يكون زواجك منها إلا على جثتي.

- حسناً إذا، فليكن على جثتك.

ماذا يعني حامد بهذا الكلام؟ أهو تحدٍّ أم هو يعني ما يقول؟ لا شك أنه يتحداني بهذا الكلام، فمثلما لا أعني كلامي حرفياً حين أقول (سأقتلك) لا يعني هو كلامه حرفياً، لكن طليقتي التي لا تقل عنه خسة تنظر إليّ مبتسمةً وقد وافقت على الزواج منه. كيف يمكنني أن أمنع هذا الزواج فعلياً، يمكنني مضايقتهم وافتعال بعض المشاكل لكنهم سيردعونني بالقانون في النهاية، وإن كانوا قد حضّروا هذا المشهد اليوم فهم مستعدون لكل مضايقاتي وقد أعدّوا العدة للتصدي لها. هدأت من روعي وغيرت نبرة صوتي وتحدثت بهدوء واستهزاء:

- حقاً إنك غبي عديم الشخصية، أتظن أنها تريدك فعلاً وقد اقتنعت بك؟ هي تريد الزواج بك للانتقام مني، هل تعرف معنى هذا؟ زواج فاشل قبل أن يبدأ، سيستمر لفترة وجيزة تشفي بها غليلها مني ثم ترميك كالكلب وتطلب الطلاق، والأهم من هذا كلّه أن رغبتها في الانتقام إلى هذا الحد تعني شيئاً واحداً فقط، هي ما تزال تحبني وتفكّر بي في اليوم ألف مرّة.

قطعت شيماء صمتها وعلّقت:

- تلك أمانيك وأحلامك، لم أذكرك سوى لأنني أعلم يقيناً أنّك ستسعى إلى مضايقتنا وهدم زواجنا، أتعرف؟ لمَ نطيل الكلام بلا طائل؟ هيا يا حامد، هيا يا أبي، لننتهِ من هذا كله.

- ما الذي تريدون فعله؟ أنت رجلٌ عاقل يا عمي، كيف تُجاري هذين المجنونين فيما يفعلانه؟

خرج هو قبلهما من الغرفة كأنه يهرب من عتابي، عتاب حقيقته توسّل ليخلي سبيلي. بدأت أصرخ لأتأكد من وصول صوتي علّ قلبه ينكسر على حالي ويوقف هذه المهزلة، لكن بلا طائل! يبدو أنه رضخ لرغبات ابنته وسلّمها عقله بالكامل، فالآن هو ليس الرجل الحكيم الذي عرفته من قبل!

لا بد أن أقاوم، لقد خفّ تخديري بشكل كبير، أظن أنني أستطيع الوقوف الآن، هببث واقفاً وقاومث اختلال توازني، شيماء تنظر إليّ غير مكترثةً وكأنّها حسبت حساب هذه اللحظة، بينما تقدم حامد نحوي واحتضنني قائلاً:

- شكراً يا فراس على كل شيء، لم نكن نرغب بإنهاء الأمر بهذه الطريقة لكن ليس هناك سبيل آخر.

عقبّت شيماء:

- رغم كل ما حدث بيننا إلّا أنني لا أنسى العشرة والأيام التي كانت بيننا، أعتقد أنني يجب أن أشكرك أيضاً.

يا لهما من مخادعين منافقين! يريدان الظهور كأشخاص طيبين خيّرين، في الوقت الذي ينويان فيه قتلي أو حبسي، لا أدري بعد ما هي خطّتهما التي استدرجاني لتنفيذها، ولا أدري لماذا أنا واقف بلا حراك مستسلم إلى عناق حامد المزيف وكلمات شيماء المخادعة! كنت أتوقع بعض العنف وأن أتعارك مثلاً مع حامد الذي أفوقه في

القوة الجسدية وأنتصر عليه مع بقاء آثار قليلة من التخدير في جسدي، لكنه فاجأني باحتضاني، ثمّ ابتعد عني بكل هدوء راسماً ابتسامة شفقة، كمن يسوق حيواناً إلى الذبح ويلقي عليه نظرةً أخيرة.

قررت الهجوم على حامد بعد أن صار على بعد عدة خطوات مني، قفزت عليه وأمسكت برقبته لأطرحه أرضاً وأحاول خنقه، عنقه كان صلباً كالخشب، انتبهت كأنني استيقظت من حلم يقظة، كنت أمسك بطرفٍ خشبيٍ للمكتبة، حامد وشيماء يضحكان:

- أما زلتُ مخدراً؟ سألت نفسي.

- لم تكن مخدراً أبداً. أجابت شيماء وأردفت:

- هذا أثر غرفة المكتب، إن الكتب التي تحيط بك من كل مكان لها تأثير عليك، ستمنع أي عمل سيئ تحاول القيام به، لهذا تركك والدي، إنه يعلم أننا لن نرتكب عملاً غير مشروع هنا، أي محاولة للإتيان بعمل شرير ستنتهي بالفشل. سلوكنا معك مشروع تماماً، بل دعني أصحح، نحن لم ولن نفعل شيئاً بك، الغرفة ستتكفل بك.

- ماذا تعنين؟ ما هذا الهراء؟ إنّها هلوسة لعينة، لقد دسستم شيئاً في شرابي بالتأكيد.

- لا يهم تصديقك لكلامي من عدمه، أنت تحت رحمة المكتبة على كل حال.

- حسناً حسناً، كلامكِ صحيح، كنت سأحاول عرقلة هذا الزواج، لكنّها ردّة فعلٍ طبيعية لأي رجل شرقي، أقرّ أن زواجكما ليس خيانة

ولا أمراً قبيحاً، ليس لي الحق في التحكم بقراراتكما، لقد فهمت الدرس.

- هذا جيد.

- هل هذا يعني انتهاء هذا الأمر؟ لنخرج من هنا، أعدكما وأقطع لكما عهد شرف بعدم مضايقتكما.

- المكتبة ستقرر مصيرك، إن كنت صادقاً لن تؤذيك.

قالت جملتها وأدارت ظهرها لتغادر الغرفة يرافقها حامد، لحقت بهما لأخرج قبل أن يقفلا الباب. خرجا من الغرفة من دون أن يلمسا الباب وتركاه مفتوحاً، خطوتان فقط تفصلاني عن الباب، لن يتمكنا من إغلاق الباب في وجهي، قفزت إلى خارج الغرفة بلهفة لأُبتلى بالهلوسة التي بدأت تسيطر على عقلي مرة أخرى، وجدت نفسي وراء المكتب بالضبط، أي بدل اللحاق بهما توجهت إلى الجهة المعاكسة ووقفت وراء المكتب. الباب ما يزال مفتوحاً لكنني بدأت أفهم الغرفة، لن أستطيع الخروج بهذه السهولة، يجب عليّ إقناع الغرفة أو المكتبة أو أياً كان هذا الكيان الذي يتلاعب بي بإخراجي من هنا.

جلست على الكرسي لأفكر ولأصفّي عقلي وأحاول إيجاد حلٍ لهذا اللغز. يجب عليّ أن أتقبل زواجهما بشكل نهائي حقيقي وليس كما قبل دقائق، فلم يكن وعدي لهما سوى كلمات لا قيمة لها هدفها الخلاص من هذا الكابوس، لا أجد حلاً غير هذا، لكن على قدر بساطته فهو صعب للغاية، بل أقرب إلى المستحيل. إن كانت المكتبة تعرف ما في داخل قلبي فلن تُعتقني أبداً، أمّا لو كانت تقرأ عقلي

فربما أنجح في الاختبار، فقلبي لن يرضى أبداً لكن أستطيع تحكيم عقلي وتركهما يعيشان بهناء رغم ألمي بل حقدي عليهما.

قلت بصوت مسموع:

- لقد قرّرت، سأتقبّل هذا الزواج، لا أنكر ثقله على قلبي وعدم رضاه عنه، لكن المهم هو عدم التعرض إليهما، وأنا سأفعل ذلك، نعم أقولها بكل صدق.

- أنت كاذب.

قفزت من الكرسي لأنتصب فزِعاً وأبحث عن مصدر الصوت، لقد ظهر فجأةً، رجل جالس على أحد الكرسيين الجلديين، بدأت أدقق النظر رغم ظلام الغرفة لأراه عارياً تماماً، لونه الأسود (الذي ظننته في البداية أسودَ بسبب غياب الضوء) كان لونه الحقيقي، جلده لا يحمل أي ملامح بشرية، كان كالخشب المحترق الذي انطفأ قبل التحول إلى رماد، إنه متفحمٌ متشقق وبين بعض الشقوق يبدو داخله جمرٌ ما يزال يحترق، لا شيء في جسده بشري أبداً سوى المظهر العام من يدين ورجلين، حتى يده كانت تحمل أربعة أصابع طويلة متصلةً براحة يده الصغيرة جداً، شعره أشعث شديد الخشونة، أقرب إلى قضبان المعدن منه إلى الشعر.

ابتعدتُ من مكاني وراء المكتب لأحاول الوصول إلى الباب، فنهض هو بدوره والتفتَ نحوي. بدأت أشمّ رائحة الحريق، لا عجب فالرجل متفحم بالكامل، وهو يبتسم رغم ذلك لتبرز أسنانه الصفراء المدببة التي لا تبشّر بخير. صرخت في محاولة للدفاع عن نفسي:

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟

- أنا صديقك يا عزيزي.

قالها وهو يخطو خطوات بطيئة نحوي بينما تسمّرت في مكاني وباعدَ بين يديه ليحتضنني. طوّقني بذراعيه والتصقَ بي لأُخرجَ صرخةً لم تشهد حنجرتي مثلها طوال حياتي! لم تكن صرختي بدافع الرعب بل الألم الرهيب الذي ملأ كل خلية لامستها هذا العفريت الناري. لقد احترقَ جلدي حرفياً في مواضع ملامستهِ لي، والغريب أن ملابسي لم تتأثر البتّة، احترق الجلد تحت الملابس وبقيت هي على حالها. نصف وجهي الأيسر أصبح مشوهاً وكذلك الكثير من أنحاء جسمي! نزلت دموعي من شدّة الألم، فلمّا وقعت على خدّي المحترق ازدادَ ألماً، بقيت واقفاً لا أعرف ما عسايَ أفعل!

- أخذتَ كفايتك؟ هيا اخرج، الباب مفتوح.

أهو الخلاص أخيراً؟ مشيت بخطى صغيرة نحو الباب، فمع كل حركة مهما كانت محدودة كنتُ أحس بجلدي ينسلخ وينكشف لحمي ليلامس ملابسي، فأصرخ من الألم ليتشقق خدي الأيسر. أريد الإسراع فلا أقوى على ذلك وأريد الوقوف بسكون ليخفّ الألم فأخشى ضياع فرصة الهرب. تحاملت على الألم وأكملتُ طريقي ببطء إلى الباب والرجل المتفخم يرافقني عن يميني وهو يوجّهني كأب يشجع طفله على المشي بخطواته الأولى. وصلت إلى الباب أخيراً لتصيبني صدمة جديدة.

لم تكن صالة البيت الرئيسية موجودةً، كأن الغرفة انتقلت بكاملها إلى مكان آخر، أو أن الصالة تحولت إلى مكتبة أخرى شبيهة بالتي

أنا فيها لكن حجمها أكبر بكثير وكأنّها مكتبة عامة، يتناثر فيها بعض الأشقياء مثلي يرافق كل واحد منهم متفحم شبيه بصديقي، يئست من الخلاص، علمت أنه سجن لا فرار منه، بئر لا قرار له، ومن يدعّي أنه صديقي هو مصدر عذابي، أدرتُ وجهي نحوه ليبتسم ويقول:

- أهلاً بك يا صديقي، لدينا الوقت كله، خذ وقتك ولا تستعجل.

ثم مدّ يديه ليمسك وجهي كعجوز تداعب طفلاً وتقرص خديه، لكن قرصات هذا اللعين تقطع لحمي إلى أن انفتح باطن فمي من الجانبين بفعل اختفاء خدّي وظهرت أسناني فبتُّ مسخاً كأحد الأحياء الأموات في تلك الأفلام. سيستمر الشيطان في تقطيعي تدريجياً إلى آخر قطعة لحم في جسدي المشوه.

أوس

غادر الجميع وبقيت وحدي في المخيّم، لا أميل إلى اتهام أصدقائي بالتقصير وانعدام الحياء، من بين خمسة أشخاص أستطيع تقبّل تعرض اثنين لظروف تحتّم عليهما العودة إلى المدينة، لكنّ بقائي وحيداً بهذا الشكل ليس له تفسير آخر، انتصف النهار وصلّيت الظهر وحيداً ثم قررت وبكل منطقيةٍ الّا أبقى وأنتظر انتهاء كلٍ منهم من مشاغله المزعومة، سأخرج بدوري لأتناول وجبة الغداء وأحتسي قهوة وأحسّن مزاجي بقطعة حلوى وأي شيء أشتهي. لا أريد العودة إلى المدينة، بل سأتّجه إلى منطقة العبدلي الزراعية في شمال الكويت، هي أقرب إلى المخيم وتحتوي على بعض المزارع التي تفتح أبوابها للزوار، أستطيع تناول الطعام والقهوة وغيرها في المطاعم التي تقدّم خدماتها في هذه المزارع طوال فترة الشتاء.

أدرت محرك سيارتي وانتظرت قليلاً ريثما يسخن قبل أن أحرك السيارة، يقال إنّ هذا ليس ضرورياً في السيارات الحديثة لكن ماذا سيضر انتظار دقيقتين؟ أنا وحيد في الصحراء على كل حال، ولا أريد العودة قبل أن يكون أحد الأصدقاء قد عاد إلى المخيم. تذكرت بعد مغادرتي بقليل أنني لم أغلق باب الخيمة وتركت الحبال الصغيرة التي يتم ربطها لإغلاق الباب بإحكام مفتوحة، لن أعود إلى المخيم الآن، الباب منسدلٌ على الأقل فلا يبدو مفتوحاً من مسافة بعيدة.

يستغرق وصولي إلى المزرعة أكثر من نصف ساعة بقليل، وأطلتُ أنا المدّة عبر اتخاذي المسار الأيمن في الطريق السريع وقيادتي بسرعة منخفضة.، تحوّل الجو بشكل سريع، ملأت الغيوم الكثيفة

السماء، أتمنى عدم هطول الأمطار رغم أن السحب تبشر بها. وصلت إلى منطقة المزارع وما يزال أمامي عشر دقائق في الطرق الداخلية بين المزارع قبل أن أصل إلى المزرعة المنشودة. هدوء غريب يحيط بالمكان، لا يوجد سيارات متوقفة في الخارج كما هي العادة، وصلت مقابل البوابة الرئيسة المغلقة، ليس من عادتهم أن يغلقوا المزرعة في هذه الأيام، خصوصاً أن اليوم هو الجمعة وهذا يعني كثافة الحضور في منطقة العبدلي في المزارع، لا أجد أحداً آخر يتفقد المكان مثل حالتي، يبدو أنني الوحيد الذي لا يعلم بإغلاق المزرعة اليوم.

هناك باب جانبي صغير بجانب البوابة الرئيسية، قررت إيقاف سيارتي والسؤال عن سبب إغلاق المزرعة بما أن الباب كان مفتوحاً. يوجد حارس وعمّال في المكان بالتأكيد، كان من الممكن أن أغادر فوراً وأتجه إلى مزرعة أخرى مشابهة بما أن هذه مغلقة، لكن فضولي تغلّب عليّ وأردت معرفة سبب الإغلاق. لم أتوقف أمام البوابة وأكملت طريقي عدة أمتار إلى بداية مواقف السيارات، أطفأت المحرك وترجلت من السيارة.

اقتربت من الباب الصغير وناديت على الحارس:

- هل من أحد هنا؟ يا حارس، لو سمحت.

ترددت بالدخول إلى داخل المزرعة من غير استئذان فأتعرض للإحراج، أهملت فضولي وهممت بالعودة إلى السيارة، كانت سيارتي على بعد أمتار قليلة من البوابة، لكنني توقفت في منتصف الطريق عندما رأيت كلبين ضخمين بجانب سيارتي بالضبط، لا ليسا كلبين،

أظنّهما ذئبين رماديين، هذا النوع الضخم ذو اللون الرمادي والفرو الطويل يثير فزع أي شخص يقابله، فهو من أخطر الذئاب كما أظن، فقد استقيتُ من أحد الأفلام الوثائقية بعض المعلومات عنه، إنه لا ينتمي إلى بيئة صحراوية مثل بيئة الكويت بالتأكيد، لا بد أنهما ذئبان هاربان من أحد المزارع هنا، فأحد أولئك المتهورين يربون حيوانات مفترسة ثم تهرب وتفلت من رقابته التي وثقَ بها ثقة مفرطة لتشكل خطراً على الناس وربّما تقتل أحدهم.

تراجعت إلى الوراء ببطء من دون أن أدير ظهري لهما، لكن خلو المكان من السيارات والناس حالَ دون اختفائي من أمامهما بدون أن يلحظاني، وفور أن أدار أحدهما رأسه ناحيتي ركضَ نحوي مصدراً صوته المرعب منذراً بافتراسي، تخليتُ عن خطة التراجع بهدوء وركضت بكل سرعتي إلى الباب الصغير المفتوح لحسن الحظ. دخلت هذه المرة من دون تردد وأغلقت الباب ورائي بسرعة. ثانية واحدة إضافية كانت كفيلة بفشلي في إغلاق الباب ورائي. كان الباب حديدياً مكشوفاً ذا قضبان طولية فكان الذئبان يحاولان الوصول إليّ عبر الفتحات بين القضبان التي كانت صغيرةً بالنسبة إلى حجمهما الكبير لحسن الحظ. أرجو أن يكون السور الشبكي على جوانب البوابة مغلقاً بإحكام ويمنع عبورهما وإلّا سأكون في وضع لا أحسد عليه. ابتعدت عن البوابة قليلاً ليهدأ الذئبان ويغادرا المكان بعد أن يفقدا اهتمامهما بي لكن من دون جدوى. كانا مرابطين كالحراس أمام الباب يحدقان مباشرة فيّ، ولا أحد داخل المزرعة انتبه إلى كل ما حصل. كنت أريد الاختفاء من أمامهما لكنني لم أجرؤ على التحرك نحو أحد جانبي البوابة والاختباء بين الشجيرات

على طول السور فربما تكون هناك فتحة ما أو يكون السور صغيراً فيقفزان فوقه، لا مجال للمخاطرة.

لا بدّ من اللجوء إلى أحدٍ ما في المزرعة، تفقدت المكان فطمأنني وجود سيارات في زاوية قريبة نسبياً بجانب المبنى الذي أظنه ديواناً أو صالة استقبال أو شيئاً من هذا القبيل، فهذه الصالة تكون مغلقة عند زيارة الناس للمزرعة حسبما أذكر، وتصميمها يوحي باستخدامها لأغراض مشابهة، لا بد أن أصحاب السيارات داخل هذا المبنى، لن يلوموني على الدخول بهذا الشكل بوجود ذئاب وحشية أرغمتني على ذلك.

أبطأث مسيري عندما مررت بجانب السيارات. كانت سيارات فارهة باهظة الأثمان، غالية إلى درجة أن حتّى الراغبين بالتميز ممن يرهقون أنفسهم بقروض ثقيلة مقابل ركوب سيارات فارهة يعجزون عن شراء أمثالها! بالتأكيد أصحابها هم سبب إغلاق المرزعة اليوم، يبدو أن مالك المزرعة يستضيف أشخاصاً مهمين وأغنياء إلى درجة إغلاقة للمزرعة في أهم يوم مدر للأرباح في الأسبوع وفي منتصف موسم التخييم وتوجّه الناس إلى المخيمات والمزارع هنا.

هكذا هم المترفون المدلّلون، تُغلق بسببهم الأبواب أمام مئات العوائل البسيطة التي تنوي التنزه وقضاء وقت ممتع مقابل تلقيهم هم معاملة خاصة في صالة استقبال مغلقة طوال الوقت أمامنا. إنهم يرفضون التصرّف بتلقائية مثلنا والاختلاط بنا، فهم يحسبون أنفسهم فوقنا بدرجة، بل بدرجات كثيرة فلا يجوز لنا الاختلاط بهم بشكل طبيعي، سيعيدون روح العصر القديم والطبقية إلى المجتمع

المعاصر وسيستوردون التمييز العنصري الذي اندثر في الغرب ليعيدوا أمجادهم وتميزهم عن بقية أفراد المجتمع الذين يصنّفونهم دون مستواهم.

أنا الآن أبحث عن المساعدة لكنني أخشى أن يظهر اشمئزازي منهم في الوقت الذي ألجأ فيه إليهم لتخليصي من ورطتي التي أوقعني فيها فضولي. وقفت قليلاً متأملاً السيارات الفاخرة الجميلة بنفس الوقت الذي أفكر فيه كيف من الممكن أن يتصرف هؤلاء المتفاخرون المغرورون مع دخولي عليهم، بل هناك ما هو أخطر من ذلك، ماذا لو كانوا يمارسون شيئاً ممنوعاً، يتعاطون المخدرات ويشربون الخمور مثلاً، أو يمارسون أي نشاط إجرامي آخر؟ ماذا لو اكتشفت وجود مافيا في الكويت، سيكون هجوم الذئاب عليّ أهون حينها.

أخذتُ نفساً عميقاً لأستعد لطرق باب المدخل، سيكون طرق الباب أفضل بالتأكيد، فخروج أي أحد وطلبي المساعدة منه من دون أن أرى ما يدور في الداخل يضمن سلامتي. الجهل منجاة أحياناً، على الرغم من احتمال كون كل هذه الشكوك أوهاماً لا تمت إلى الواقع بصلة، لكن المثل الكويتي يقول: (من خاف سلم)، سألتزم بخطتي وأكتفي بطرق الباب.

اقتربت وطرقت الباب طرقات خفيفة لم تقابل بأي رد، أعدتُ الطرق بقوة أكبر بعدما ضحكت من سذاجتي، بالتأكيد لن تكون الطرقات الأولى مسموعة لمن هم في الداخل مع كبر حجم المكان، طرقات تتوالى - مع زيادة قوة الطرق - ـ بدون أي جواب. تنازلتُ عن احتياطات السلامة أخيراً ودفعت الباب الذي لم يكن مقفلاً! كان

المكان مظلماً في الداخل، لا ينيره سوى الضوء القادم من النوافذ، ومع وجود السحب الكثيفة اليوم فهذا يعني إضاءة خافتةً لا تنير المكان بشكل كافٍ، كما توقعت فقد كانت صالةً كبيرة من الممكن أن تستخدم للعديد من الأغراض، مع وجود أبواب على جهة اليمين على طول الصالة تبيّن وجود غرفٍ لا أعرف ماهيتها.

تقدّمت بضع خطوات إلى الداخل وأنا أتساءل عن مكان أصحاب السيارات الفارهة، لا بد من وجودهم في المزرعة فليست السيارات مخزنةً هنا، فلو كانت كذلك لما أوقفوها بهذا الشكل أمام المبنى. المزرعة كبيرة وفيها العديد من المرافق، محميّات زراعية وحظائر للحيوانات واستراحات وأماكن للجلوس والتنزه، يصعب التكهّن بمكانهم. وبينما أنا بين تلك الخواطر سمعت صوت قفل الباب ورائي، لقد قفلهُ أحدهم من الخارج، أسرعت لأحاول فتح الباب فكان مقفلاً بالفعل، طرقت الباب وصرخت منادياً الشخص الذي لم أستطع أن أرى خياله وراء الباب الذي يحتوي على زجاج مظلل ليس شفافاً ولا معتماً بالكامل. لا يمكن أن يكون قد ابتعد بهذه السرعة ولم يسمع ندائي، فُتح باب إحدى الغرف وخرج منها شخص أصلع ضخم البنية يرتدي بنطالاً وقميصاً أسودين، يتبعه ثلاثة أشخاص يلبسون اللباس الوطني. قال الأصلع الذي هو حارس شخصي بالتأكيد:

- قلت لكم سيدخل عندما تبدأ جولة المجموعة في المزرعة.

عقّب أحد الأشخاص:

- حشك الأمني عالٍ، من الجيد أننا بقينا لنمسك به.

ارتعدت فرائصي وتجمّد دمي في عروقي فقد وقع ما كنت أخشاه،

لقد تورطت في مسائل أجهل مدى خطورتها وتعقيدها، لكن كلامهم يؤكد أن الأمر يتعدّى دعوةً بريئة لبعض الشخصيات لقضاء يوم في المزرعة. بدأت بتبرير موقفي محاولاً توضيح براءتي وحسن نيتي:

- أنا آسف على الدخول بهذه الطريقة لكنني اضطررت إلى ذلك، لا أدري من الذي تتحدثون عنه لكنني مجرد شخص كنت أنوي زيارة المزرعة من دون أن أعلم بإغلاقها اليوم، وعندما حاولت البحث عن حارس البوابة لسؤاله عن موعد إعادة فتحها هجمَ عليّ ذئبان رماديان ضخمان فاضطررت إلى اللجوء إلى الداخل، لا أريد سوى مغادرة المكان بسلام.

علّق أحدهم:

- بالطبع تريد ذلك، اجلس وسنتفاهم.

أشار إلى مجموعة كنبات قريبة فلم أعارض وجلست فجلسوا بدورهم، بينما بقيَ الحارس الشخصي واقفاً، بدأ نفس الشخص والذي يبدو أبرزهم مكانةً بالحديث:

- اسمع يا هذا، لن يفيدك الكذب، الأفضل أن تخبرنا كل شيء، من الذي أوكل إليك هذه المهمة؟ وما هي أهدافه بالضبط؟ المماطلة ليست في صالحك.

- أقسم لك إنني صادق في كل كلمة قلتها، أنا قادم من مخيّم أصدقائي في البر ولم أكن أريد سوى تناول وجبة الغداء وقضاء بعض الوقت قبل العودة، ولم أكذب أبداً في سبب دخولي إلى المزرعة، لنخرج وربّما نستطيع رؤية الذئاب في الخارج.

- ذئاب ها؟ ضخمة ورمادية كذلك ها ها ها، إنّك كاذب سيّئ، الذئاب المحلية لا تكون بهذه المواصفات يا غبي.

- نعم نعم أعلم ذلك، أنا أؤكد أنها ذئاب رمادية ذات فرو كثيف وليست من منطقتنا، لا بد أنها هاربة من مزرعة أحد أولئك الذين يربون الحيوانات المفترسة.

- ما اسمك؟

- اسمي أوس وأنا موظف بسيط، وليس لي أي ارتباط بشخصيات مهمة من الممكن أن ترسلني في مهمة ما ضدكم، أنا لا أعرف من أنتم أصلاً، أقسم بالله على هذا الكلام.

- كفاك قسماً، (قالوا للص: أقسِم، فقال: جاء الفرج).

توقفت عن الكلام وتبرير موقفي أكثر، فكلّما حاولت إقناعهم يرفضون تصديقي، بدأت أفكر في طريقة تثبت لهم براءتي من ظنونهم، أو ربّما تركهم هم يحاولون التأكد أفضل، وسأكون متعاوناً معهم وأجيب عن أسئلتهم من دون لف ودوران، أنا لم أخطئ لأخشى شيئاً.

صمت هو بدوره وأخذ يلقي نظرات على رفاقه كأنه يستفسر عن رأيهم بالموضوع، ثم أعاد نظره نحوي ليقول:

- اعترافك ليس مهماً في واقع الأمر، نحن نعرف كل شيء، كنا ننتظر قدومك فنحن نراقب تحركاتكم بالكامل، نعم فلستم أنتم وحدكم من يجيد التجسس، في الواقع نحن نجيده أكثر منكم فلم تكتشفوا جاسوساً واحداً من جواسيسنا.

مع كل كلمة يقولها كان يزيد فزعي وأكاد لا أصدق أن أسوأ مخاوفي استحالت واقعاً، لا أعرف طريقة عملهم بعد، هل هم مافيا أم عصابة ما؟ هل هم حزب سياسي سري؟ هل هم تجار مخدّرات؟ لا أملك أدنى فكرة، لكن الواضح أنهم خارجون عن القانون، وأنا موجود في المكان والزمان الخاطئين، بل أسوأ مكان وزمان يمكن أن أوجد فيهما طوال حياتي، فأنا لم أتعرض إلى موقف بهذه الدرجة من الخطورة، أقصى ما تعرضت إليه هو سرقة محفظتي وهاتفي النقال في إحدى رحلاتي السياحية إلى إحدى الدول الأوربية عندما هدّدني أحد اللصوص بسكين لم يكن ليستخدمها على الأرجح.

بدأت أفقد رزانتي واتزاني السابقين وبدأ الهلع يظهر على ملامحي فيما يضحك الرجل الذي يستجوبني من انهياري السريع. اللّعين ما زال متأكداً من أنني جاسوس أعمل لصالح أعدائهم الذين لا أعرفهم، وأن خوفي هو انهيار لرباطة جأشي عندما فاجأني بمعرفة قدومي في هذا اليوم لتنفيذ خطّة لا أعرف أياً من خطواتها.

- يا سيدي أي جاسوس هذا الذي يدخل من الباب الرئيسي مثلما دخلت، ثم يطرق باب هذا المبنى وينادي على الحارس ويدخل إلى الصالة هذه وهو مكشوف من كل زواياها، وقد أقفلتم عليّ الباب بكل سهولة ثم بدأت بطرق الباب والمناداة على من أقفل الباب، هل كل هذا يصدر من جاسوس كما تقول؟ أنا لم أخفِ عنكم أي شيء وأجبتكم بكل صدق، أنا لا أعرفكم أصلاً ولا أدري ما هو نشاطكم، صدّقني أرجوك، أنا ضحية صدفة تعيسة فقط.

- أحياناً يكون أفضل غطاء هو عدم اتخاذ غطاء في المقام الأول،

هكذا نجحنا في أكثر من مرة في التجسس عليكم وعلى غيركم، ثم لماذا كل هذا الفزع إن لم تكن تعرفنا أو تعرف شيئاً عن نشاطنا؟ أنت تعلم كل شيء وهذا سبب خوفك. إن كنت كما تدّعي لم تكن لتفزع بهذا الشكل، تعاملنا مع أناس اعترضوا طريقنا صدفةً مراراً، ونعرف كيف يكون أحدهم في تلك المواقف. على كل حال إن كنتَ لا تريد الاعتراف بالطريقة السهلة فهذا خيارك وعليك تحمل عواقبه.

توجّه الحارس الشخصي الضخم نحوي وأخرج من جيبه شريطاً بلاستيكياً يستخدم لربط الأشياء، فهمت أنه لربط يديّ فهي تستخدم كأصفاد أحياناً. انتفضت من مكاني فوضع يده على كتفي بعنف وأعادني إلى الكنبة! قام الرجلان اللذان لم يشاركا في استجوابي وثبتاني ليربط الرجل يديّ ويمسكني من عضدي ويسحبني. اقتادوني إلى خارج المبنى من باب خلفي وتوجهنا إلى حظائر الحيوانات.

بدأت بالتوسّل ثم فقدت أعصابي وشتمتهم وصرخت حتى ألفتَ انتباه أي أحد، أي شيء من الممكن أن يساعدني، صاحب المزرعة أو العمّال أو حتى أشخاص في المزارع المجاورة وإن كان هذا احتمالاً بعيداً. لن أنتظر لأعرف ما ينوون فعله بي، نحن في منطقة مزارع وهي مكان لا بأس به لارتكاب جريمة قتل، المزرعة هذه بالتحديد كبيرة جدّاً وصراخي لن يجدي نفعاً ولن يغيّر شيئاً.

وصلنا إلى أقفاص الحيوانات، تجاوزنا بعض الخراف والبقر وغيرها من الماشية.. دخلنا منطقة أخرى وبدأت تتبيّن نواياهم، تهديدي بالحيوانات هو الهدف من جلبي إلى الحظائر، أقفاص

الكلاب التي بدأت بالنباح لم تكن هي الهدف، فقد مررنا مروراً سريعاً بها لنكمل طريقنا إلى الحظيرة التالية. تجاوزنا الباب الحديدي فتمنيت العودة إلى الذئبين. وحدثت المفاجأة التي أوقفتني عن الصراخ وثبتتني في مكاني فتركني الأنذال حينها ليستمتعوا بدهشتي حينما رأيت هذا القفص الكبير، إنّها هي بعينها، الذئاب الرمادية الضخمة، أرى بكل وضوح الذئبين اللذين هجما عليّ خارج المزرعة، وذئاب أخرى أصغر منهما حجماً بقليل، ستّة ذئاب ولا أدري إن كان هناك المزيد بين زوايا القفص الكبير.

- أنتم تعلمون أنني لست كاذباً، ها هي الذئاب التي حدّثتكم عنها.

- وهل تتوقع منّا الانتظار حتّى تغادر البوّابة وتدخل من حيث لا نمسك بك؟ لقد قلت لك إننا كنا في انتظارك، ولم نكن لنخاطر بالإمساك بعابر سبيل عن طريق الخطأ، لكننا نملك مواصفاتك مسبقاً، لقد وقعت في أيدينا أخيراً، سيكون عقابك وخيماً. أنا سعيد لأنك نجحت في الهروب من الذئاب في المرة الأولى، لم نكن لنستمتع لو قضت عليك الذئاب في الخارج.

- أيّها الأوغاد، إنّكم ترتكبون خطأً فظيعاً، ستندمون على ذلك، لن تفلتوا من العقاب.

لن تفيد كل محاولاتي لإقناعهم ببراءتي، بدأت بإفراغ غلّي وحقدي عليهم بالسباب والشتائم، ما يزال في داخلي أمل أن كل هذا لإرهابي فقط والرجال لا ينوون قتلي بالفعل. لكن الأمل تبدّد حين فتح الحارس باب القفص ثم دفعوني إلى الداخل بكل قوّة فوقعت على الأرض، لم يقطعوا الشريط البلاستيكي الذي يقيّد يديّ، سيصعّب

هذا حتى محاولة الدفاع عن نفسي أمام الذئاب. هناك قطع من أغصان متناثرة في القفص، أمسكت بغصن رغم صعوبة التحكم به وأنا على هذا الحال، بدأت الذئاب بالتحرك ببطء نحوي، لقد كانت في الطرف الآخر من القفص حينما جذبها عاملٌ لم أعره الكثير من الاهتمام بقطع لحم من وراء القضبان لتبتعد عن الباب فيفتحه الحارس ويلقوني في الداخل.

الجيد أن القفص كبير جدّاً وفي المنتصف هناك قطع من جذوع أشجار وصخور كبيرة لتحاكي بيئة الذئاب، يمكنني الدوران حول هذه القطع الكبيرة لأحتمي بها وأجعل مواجهتي للذئاب من جهة واحدة فقط. بدأ عقلي يعمل بسرعة البرق للبحث عن النجاة، تحركت إلى المنتصف بسرعة رغم أن هذا يعني اقترابي من الذئاب، لكنهم ما يزالون من الطرف الآخر من الجزيرة الغابيّة إن صح التعبير. اتجهتُ إلى الطرف البعيد من الجزيرة، حيث أقابل حائط الحظيرة، لا أريد أن يرى الأنذال الذين ألقوني هنا ما يحدث لاحقاً، سواء نجحت في الدفاع عن نفسي أو حتى نهشتني الذئاب. في الحالة الأولى لا أريدهم أن يحاولوا إفشال مقاومتي، وفي الحالة الثانية لن يستمتعوا بمشهد قتلي على الأقل.

التصقت بجذع الشجرة الكبير المثبت في الأرض كأنه شجرة حيّة، وبجانبي الأيمن تلك الصخرة الكبيرة، هذه أفضل زاوية للدفاع. قفزَ الذئب الأضخم أمامي واستعد للهجوم علي، وأصوات الذئاب التي تنبئ عن الاستعداد للهجوم تقترب شيئاً فشيئاً. أحكمت قبضتي على الغصن الذي التقطته وبدأت أرتجف، نزلت دمعة على خدّي تلتها دموع بللت وجهي، يبدو أنّني أنعى نفسي قبل مقتلي، وما أثار انهمار

دموعي بشدّة هو براءتي ممّا اتهموني به. كنت أنشد وجبة غداء فينتهي بي الأمر وجبة للذئاب بدون ذنب اقترفته.

بلغ بي اليأس أشد مبلغ حين تفاجأت بالباب الحديدي الذي لم أنتبه لوجوده قبل قليل يُفتح، كان باباً خلفياً في الحائط الخلفي للقفص، يقود إلى خارج الحظيرة بالكامل، بعيداً عن مكان وقوف الذئاب البشرية التي تنتظر انقضاض بقية الذئاب عليّ. ظهر شاب من وراء الباب وصرخ بالذئاب فانتبهتُ إليه، تركني الذئب الضخم والتفتَ نحوه وركض باتّجاهه. رفع الشّاب خنجراً كان يحمله معه وقفز الذئب ليفترسه وأنا مذهول لم أتحرك من مكاني. كان صراعاً كالذي كنت أنتظره بالضبط بيد أن الشّاب ليس مقيّداً ويملك خنجراً. بكل ثقة طعن الشاب الذئب في رقبتهِ وهو في الهواء قبل أن يتمكّن من إحكام أنيابه عليه، فوقع الذئب على الأرض وهو يتلوّى مع بقعة دم بدأت تنتشر تحته، بقيّة الذئاب ترددت في الهجوم بعد هذا المنظر فصرخ بي الشاب:

- هيّا تحرك بسرعة، تعال معي.

ليس هذا وقت التفكير في هويّة الشاب والتأكد من نيته بمساعدتي، فهو أولاً خاطرَ بحياته وأنقذ حياتي، ثم لا أملك خياراً آخر غير اللحاق به وعدم محاولة الهروب منه بعد الخروج من القفص. ركضت لأخرج من الباب بعد أن خطوت على بركة الدم النازفة من الذئب المحتضر، ركضت بقية الذئاب نحوي لكنني تمكنت من الخروج بسرعة قبل أن يغلق الشاب الباب ورائي. وقفت بعد أن تأكدت من زوال الخطر وأنا ألتقط أنفاسي.

- هيا بنا، لا يمكننا التوقف فلم يزل الخطر بعد، سيلاحقوننا إلى آخر لحظة.

لم أجبه ولن أناقشه الآن، سأنفّذ أوامره لأخرج من هذه المزرعة اللعينة. اقترب مني مبرزاً خنجره نحوي فخطوت خطوتين إلى خلف.

- لا تخف يا أوس سأفك قيدك فقط.

إنّه يعرف اسمي! لكن لن يكون هذا غريباً فقد استجوبوني سابقاً وربّما عمموا اسمي على بقيّة أفراد العصابة، إذاً فهو عضوٌ معهم في العصابة، لكن لماذا ينقذني ويخاطر بحياته في سبيل ذلك؟ ربّما تأكد من براءتي بطريقة ما ويريد إيقاف قتلي قبل أن يتصرّف أي تصرفٍ آخر. يجدر بي عدم الثقة به ثقةً مطلقة، ثم الهروب منهم جميعاً في أول فرصة سانحة.

قطع الأصفاد البلاستيكية بالخنجر ثم ركض فركضت خلفه، لم أسأله عن الوجهة، يجب أن يظنّ أنني متمسك به إلى حين اقتناصي لفرصة الهرب.. أظن أنه سيقودني إلى أفراد أعلى شأناً في العصابة. لم ينادني باسمي عبثاً، يريد بذلك أن يبعث الاطمئنان إلى قلبي لكنني لست ساذجاً، تبعته على كل حال فما زلت في موقف لا يسمح لي بالارتجال.. لكن ما كدنا نتجاوز أمتاراً قليلة حتى ظهرَ أمامنا أشخاص طوال القامة بشكل غير منطقي، أربعة عمالقة نحيلي الأجساد يرتدون ملابس تشبه بدلات العمّال، قطعة واحدة تغطي الجسم بأكمله وكانت ضيقةً تبين مدى نحافة أجسادهم. أرجلهم وحدها تكاد تصل إلى كتفي فلا يتجاوز رأسي مستوى خواصرهم،

إنّهم ليسوا بشراً بالتأكيد.

توجّه الشاب إلى اليمين قائلاً: من هنا اتبعني بسرعة. تبعته بلا تفكير، ليس الوقت مناسباً لتصنيف هؤلاء أهم من الجنّ أم من الشياطين، عفاريت أو مخلوقات أسطورية. لقد سمعت مراراً عن قصص (الطنطل) هو جنّي طويل ونحيف، هذا أقرب احتمال. ركضتُ وراء منقذي بكل سرعتي وكنتُ أستمع إلى أصوات الوحوش المخيفة ورائي، مزيج من أصوات الحيوانات مع البشر، كأنهم يتحدثون بلغة غير مفهومة وهم يركضون وراءنا. التفتُ إلى الوراء فرأيتهم يقتربون أكثر فأكثر، لست سريعاً بشكل كافٍ، كلما بذلت جهداً أكبر لزيادة سرعتي يزيدون هم من سرعتهم، يستخدمون أذرعهم الطويلة في الركض كما تفعل الغوريلا.

أحسست بشيء يشد ملابسي إلى الخلف، إنه أحد الوحوش قد مدّ يده فوصل ظفره المدبب فأمسك بملابسي وبدأ يشدّني مما قلل من سرعتي. حاولت الإفلات منه لكنه اقترب أكثر فأمسك كتفي وسحبني فوقعت على الأرض وتدحرجت قليلاً قبل أن أثبت في مكاني والوحوش تتجمع فوقي. وقبل أن يصيبني أي ضرر وقع قتال كان يبدو غير متكافئ في البداية، عاد الشاب ليشتبك معهم بخنجره واستخدم قبضته ورجليه. كان يقاتل بشراسة غير معقولة، إنّه يفتديني بنفسه، لا شيء منطقي حصل منذ دخولي إلى هذه المزرعة المشؤومة، لكنّ رأيي تغيّر حتماً حيال هذا الشاب، انتبهت إلى وسامته في هذا الوقت غير الملائم لمثل هذه الملاحظات، إنّه رجل استثنائي، وجهه مليء بالبراءة والقوة في نفس الوقت، أنقذ حياتي أكثر من مرة وهو يقاتل ببسالة لسبب لا أفهمه، فأنا لم أره في

حياتي قط.

لم أعد أعرف ما يتوجّب عليّ القيام به في هذه اللحظة، هل أشارك في القتال وأساعد الشاب وأكون شهماً بعدما أنقذ حياتي، هل أتركه وأهرب وأستغل انشغال الوحوش في قتالها معه، إنّها الفرصة التي كنت أنتظرها قد حانت، لكنّي لم أستغلّها، أنّى لي أن أفعل ذلك وأغدر بمن أدين له بحياتي؟ وقفت وصرخت لأستدعي كل قواي للمشاركة في القتال، فصرخ الشّاب في المقابل: أتركهم لي.

تأملت المشهد فرأيته يوسعهم ضرباً ويقطعهم بخنجره بدون هوادة كأحد أبطال الأفلام التي ستوصف بعدم الواقعيّة إن صوّرت مشهداً كهذا. استمرّ في قتالهم عدّة دقائق وأنا أقترب للمشاركة وهو ينهرني في كل مرّة ويأمرني بالابتعاد فأرضخ لأوامره. انتهى القتال ليقف البطل المنقذ وحوله أربع جثث لوحوش لم أعرف ماهيتها بعد.

البطولة لا تعني الخروج بلا ثمن، جسد الشاب مليء بالجراح وقد أوهنه القتال الشرس، لكنّه تحرك فوراً من دون التقاط أنفاسه وأمرني باتّباعه قبل حضور المزيد من الوحوش. تبددت كل أفكاري بالهروب منه، سأتبعه إلى آخر رمق، أحسست أنني أحبّه حبّاً جماً، أردت أن أعانقهُ وأبقى متعلقاً فيه بلا حساب للوقت، أنا أحبّه كحبّي لأخي ولأبي، بل سأفضّله عليهما بدون تردد، أظنّ أنني لم أحب أحداً مثلما أحببته!

- لا تتخلّ عني. قلت له وأنا أتبعه من دون أن أحاول استكشاف الطريق وإلى أين نتجّه.

- سيتخلّى عنك الجميع باستثنائي أنا، لا تقلق، سينتهي الأمر

بسلام.

بعثَ كلامه الطمأنينة في قلبي، أنا أصدّقه ولا أشك بأي حرف يصدر من فمه المبارك، فملاك نقيّ مثله لا يكذب ولا يتفوّه إلّا بالصدق والخير. تباطأت خطواتنا قليلاً مع وصولنا إلى طرف المزرعة، بعيداً عن البوابة الرئيسية كان هناك باب صغير، عبرنا أسوار المزرعة أخيراً، فتح باب سيارة متوقفة هناك وأمرني بالركوب ففعلت. تحركنا أخيراً ولم أسأله أي سؤال، واكتفيت بإلقاء رأسي إلى الوراء وبإغماض عيني لأغفو غفوةً تعيد بعض الطاقة إلى جسدي المنهك.

أأحلامٌ هي أم ماذا تكون بالضبط؟ لا أعرف، لقد كان شيئاً يشبه الأحلام ويختلف عنها في نفس الوقت، كأنه إيحاء وصلَ إلى روحي، رسائل تملأ عقلي بأخبار أصدقائي. في لحظات قليلة رأيت ما حدثَ مع رفاقي واحداً بعد الآخر: منصور تغدر به والدته وتنهشه مع الفتيات، جراح يتم اختطافه وتعذيبه في البر، خالد يعذبه أبناؤه، ثم عامر يعلق في تلك العمارة، والمسكين فراس تنتقم منه طليقته وأبوها بأغرب الطرق رغم أنها هي من غدرت به، كأن كل واحد من أصدقائي يشكو حاله لي! أعرف أن ما رأيته وأحسست به ليست مجرد أحلام، عدت إلى حالة الخوف والفزع.

كنّا قد خرجنا من منطقة العبدلي وما زلنا في الطريق السريع في الصحراء، التفتُّ إلى الشاب الذي نظر إليّ نظرةً كأنه يشفق على حالي، رغم أنه هو من قاتل وجُرحَ في سبيل الدفاع عني:

- لقد رأيتُ أصدقائي، منام أو رؤيا أو شيء آخر، كأنهم يستنجدون

بي.

- لا نستطيع مساعدتهم، أنا أساعدك أنت فقط، لا شأن لي بهم.

- لكنّهم في أمس الحاجة إلى المساعدة، ربّما أكثر منّي أنا في قفص الذئاب، أرجوك افعل شيئاً.

- كلّا.

رفضَ حتى الحديث عمّا رأيته، لن يحرك ساكناً لمساعدتهم، أنا لا أعرف السبيل إلى إنقاذهم أصلاً، فلا أعرف أماكنهم، كل ما رأيته هو ما حلّ بهم. كنت آمل أنه يستطيع اجتراح المعجزات لينقذ أصدقائي بشكلٍ ما، لكنّه اكتفى بالرفض ودعاني إلى الانتظار، سأعرف كل شيء بعد قليل.

غادرنا الطريق السريع لندخل إلى الطريق البرّي، نعم هو نفس الطريق البرّي المؤدّي إلى المخيّم. ظللت أنتظر بصمت، لم أعلّق على توجُّهه إلى المخيّم كما يبدو، فهو يتخذ الطريق الصحيح في كل مرّة حينما يتفرّع الطريق الرملي. ها نحن نصل بالفعل إلى المخيّم، يعرف اسمي ثم يقودني إلى المخيّم، لا أعرف سر هذا الشاب بعد، لكنني لن أشك في حسن نواياه، وسأظل متعلّقاً به دائماً ولن أبتعد عنه قيد أنملة.

كانت سيّارات أصدقائي كلها متوقفة بجانب المخيّم، صدمني ذلك فقد كنت أتوقّع خلو المكان منهم بعدما رأيته قبل قليل. أكاد أقسم أن كلّ شيء حدث لهم حقيقي تماماً وليس مجرد أحلام عابرة طرأت على عقلي المضطرب بالأحداث المرعبة التي عشتها، لاحظَ ملاكي

الحارس اضطرابي فحاول طمأنتي:

- أعلمُ أن ما تراه وتعيشه ليس هيّناً، وأن مصير أصدقائك مرعبٌ محزن، لكن عليك الاهتمام بنفسك الآن، أنت بخير وأنا بجانبك، لن تلقى ما لاقُوه ولن يهمك أمرهم أصلاً.

- ماذا تعني؟ أريد أن أعرف ماذا يحدث بالضبط، لا شيء يبدو طبيعياً مما حدث اليوم أبداً.

- ستعرف كل شيء الآن، هيا بنا إلى الداخل.

ترجّل من السيارة بعد أن توقفنا في منتصف ساحة المخيّم، توجّه هو إلى الخيمة الرئيسية التي بتنا فيها البارحة، بدأ قلبي يخفق بقوّة وأنا أسير وراءه وأظنني بدأت أفهم ما يحدث. دخلنا إلى الخيمة فيما كان أصدقائي جميعهم في أكياس نومهم، لكنّ ما حدث لي لم يكن وهماً، لم أكن أتخيّل أن أنهض في الصباح وحيداً ويكونون جميعاً قد غادروا المخيّم، بل ما زلت أصرُّ أن ما حدث لهم كان حقيقياً كذلك، هم ليسوا نياماً في الخيمة بسلام.

- هل ... هل هم؟ هل أنا معهم؟

وقف الشابّ يتأملني كأنّه ينتظر منّي اكتشاف الأمر بنفسي، توجهت بأنظاري بفزع نحو مكان نومي، ما يزال فراشي على الأرض رغم أني متأكد من إزالته بعد استيقاظي. وليست تلك المصيبة، بل المصيبة أنه منتفخ وليس خالياً. اقتربت منه وقد انهمرت دموعي كالشلّال:

- هذا أنا في فراشي! هل نحن أموات؟

- نعم يا أوس، انتهى وقتكم في هذه الدنيا، لن يستطيع أي منكم مساعدة الآخر الآن، كل شخص يواجه مصيره بنفسه.

- لماذا لا تساعدهم أنت كما ساعدتني إذاً؟

- أنا عملك الصالح، أعينك وأشدّ من أزرك أنت فقط، أصارع وحوشك التي صنعتها بسوء فعالك في حياتك، عظّمتَ من قوّتي حتى تمكنت من التغلب على أعمالك السيئة رغم تأثيرها عليّ، لكنّ أصدقاءك لم يدّخروا لمثل هذا اليوم كما ادّخرت.

- لكنّهم من خيرة الشباب، بعضهم على الأقل، كيف يكون هذا مصيرهم؟

خرج من الخيمة وتبعته لنجلس خارج الخيام وكان ذلك مريحاً، فلم أكن أطيق الجلوس بين جثث أصدقائي فألتفت بين لحظة وأخرى لأجد نفسي جثة هامدة معهم! لا أفهم ما حدث بعد وأنتظر منقذي ليشرح لي كل شيء. بدأ عملي الصالح بالحديث ليشرح لي القصة كاملةً.

المنقذ (عملي الصالح)

لقد وافتك المنيّة مع رفاقك أثناء نومكم، ذلك كان بسبب خطأ كارثي من خالد الذي كان آخر من دخل الخيمة لينام، وعندما شعر بالبرد ارتكب هذا الخطأ التقليدي الذي ما يزال يتكرر بين فترة وأخرى رغم كثرة التحذيرات. لقد خرج وأشعل بعض الفحم للتدفئة وقبل أن يشتعل الفحم بشكل كافٍ ويختفي منه السواد جلب الحاوية إلى داخل الخيمة. لم يكن أيّ منكم مستيقظاً في تلك اللحظة، وإلّا لربّما انتبه أحدكم إلى هذا الخطأ! سرعان ما خلد إلى النوم وبدأ أوّل أكسيد الكربون يملأ الخيمة المغلقة بالكامل، والمصيبة في هذا الاختناق أنه لا يمكّن النائم من الاستيقاظ مثل حالات الاختناق الأخرى، فيدخل المختنق في غيبوبة قبل موته بدل الاستيقاظ لإنقاذ نفسه من موت محقق.

ملأ الدفء القاتل الخيمة حتى خنقكم وقتلكم خلال فترة وجيزة. انظر إلى باب الخيمة إنه ما يزال مربوطاً بالحبال من الداخل، لم يكتشف أحدٌ أمركم بعد، لهذا دخلتم في هذه الحالة، أنتم في مرحلة كشف الغطاء عنكم، فكان كلّ منكم يرى خطاياه العظمى تتجسد لتبدأ بتعذيبه قبل مرحلة دفنه واستيعابه أنه انتقل إلى العالم الآخر. لم يقابل أصدقاؤك إلّا ما كان صنيعة أيديهم في حياتهم، سأشرح لك حال كل واحد منهم ثم سأخبرك ما الذي مكّنني أنا من مساعدتك على عكسهم.

أمّا منصور فقد كان مخادعاً يتلاعب بقلوب الفتيات لنيل ما تصبو إليه نفسه منهن، لم يكن يتوانى لحظةً عن تقديم الوعود وإطلاق

الكذبة تلو الأخرى ليوقع الضحية في حبائله، ثم يملّ منها ليتركها محطّمةً فاقدةً لعفتها وقلبها في آن واحد. كان قد بدأ رحلته هذه بعد التعرف على فتاة في مراهقته وأعجب بنفسه أيّما إعجاب عندما لاحظ تأثيره عليها، يتمتع بوسامة وأسلوب يجذب الفتيات، كان هو الطرف الذي يأخذ أكثر مما يعطي، ولم يزده هذا إلّا فرصاً أخرى للفوز بقلوب الفتيات.

تعرّف على فتاة ثم أخرى ولم يكن ينتظر انتهاء علاقة قبل أن يدخل في الثانية، كل سنة تمضي من عمره يزداد خبثاً ودناءة، بعد كل قلبٍ يكسره يزداد قلبه قسوةً وجموداً، حتّى أصبح يشجع الشباب على سلوك ذات الدرب. لم يكتفِ بالكيد للفتيات بل أصبح مدرسة لتخريج الذئاب البشرية، كان يستخدم كل الوسائل الممكنة للوصول إلى أهدافه، ابتزاز عاطفي وتهديد بالفضيحة والرحيل، لم يكتفِ بسرقة القلوب بل وصل به الأمر إلى سرقة الأموال من الفتيات. بات مجرماً خطراً لا يصحو له ضمير ولا تُجدي معه نصيحة، فكان تعذيبه على يد الفتيات اللائي عذّبهن وعلى يد والدته التي تدعو له بالخير من دون استجابة، لا لعيبٍ في دعائها لكن لخروجه من دائرة الرحمة برجله.

- نعم كنتُ أسمع بعض قصص منصور منه شخصياً، كان يتفاخر بها دائماً، لم أكن أتصور أنّها بهذا السوء، حين يروي هو قصصه يخفي خبثه ويحاول تجميلها رغم أنها تبقى قبيحة على كل حال.

جراح هو الآخر كان يسرق الزبائن ويغشهم، لم يسلم منه حتى بعض الأصدقاء والمعارف، بل حتى أقاربه. بدأ الأمر عندما اكتشف

قيمة بعض القطع المتعطلة والتي يستبدلها بجديدة للزبائن، والتي يتركها الزبائن بطبيعة الحال وهم يجهلون قيمتها الكبيرة. إلى هذا الحد لا شيء محظور في ذلك، فهو أمر متعارف عليه في المهنة، والزبائن يتركون تلك القطع المستعملة باختيارهم. فهم لا يستطيعون الاستفادة منها معلما يستفيد أصحاب الكراجات؛ فبعضها يمكن إصلاحه، وثمة قطع أخرى تُستخرج منها أجزاء تُفيد في إصلاح قطع أخرى، وهناك قطع تباع كخردة حديد للإذابة، وهكذا فكل قطعة من الممكن أن يُستفاد منها بطريقة ما لا يستطيع الزبون العادي اكتشافها وتطبيقها.

لكن هذه الوسيلة لا تدر الكثير من الأموال، فهي بالكاد تكون دخلاً جانبياً للعمل الأساسي. سيطرَ على جراح الجشع الذي قاده إلى التلاعب بالقطع، وكما هي الحال مع منصور، يبدأ الذنب صغيراً ويكبر حتى يصل إلى مرحلة ثميت القلب والضمير. كان جراح في آخر فترةٍ يركز على السرقة والتلاعب أكثر من إصلاح السيارات، فكان يكذب في فحص السيارات ليوهم الزبائن بأعطال غير موجودة، يأتي الزبون بعطل بسيط فيتم خداعه ليستبدل قطعاً لا تشكو من شيء بقطع أخرى، وهذا مثالي أكثر من إصلاح قطع متضررة وإعادة بيعها. ثم تمادى أكثر ليستبدل قطعاً أخرى لا يفترض به لمسها في المقام الأول.. لا عجب أن يتم تقطيعه وسرقة أعضائه انتقاماً منه على سوء أعماله.

- يا إلهي، جراح يفعل هذا كلّه، لولا أنني رأيت ما يثبت صدقك لاتهمتك بالكذب بحق صديقي الأمين الشهم، كنت لأصدّق أي شيء يقوله وأسلّمه سيارتي بلا نقاش، في الواقع فعلت ذلك، ربّما سرقني

حينها.

خالد الرجل المتديّن الملتزم، ربّما يثير استغرابك ما جرى عليه، لا يفوّت فرضاً ولا محاضرةً في المسجد، يدعو إلى الالتزام بتعاليم الدين أينما ذهب، يذكركم بالصلاة في أوقاتها في المخيم وعدم تأخير الصلاة باللهو واللعب. لكن كان تديّنه ناقصاً دوماً، لم يأخذ من الدين إلّا شكله، لم يعرف من الصلاة إلّا ركوعها وسجودها من دون تأثير فعلي على أخلاقه وتعامله مع أهله. ما فائدة الصلاة إن كان يحطّم أبناءه في نفس الوقت؟ ما فائدة تلاوة القرآن إن لم يطبّق تعاليمه؟

كان خالد أكبر سبب في مشاكل أبنائه النفسية، لطالما اضطهد زوجته باسم الدين بدل أن يرفق بها ويعاملها المعاملة الحسنة الذي يدعو إليها الدين، لا أقول إنّه منافق لكنه مثال سيئ للمتدينين، لطالما عنّف أبناءه بحجّة التربية الصالحة، وعندما يؤثر تعامله عليهم سلبياً يزيد من ضربهم وتعنيفهم لأنّهم سيّئون على حد تعبيره. يلومهم على علل تسبّب هو فيها ويعاقبهم عليها، ثم يعود ليتّهم أمّهم المغلوبة على أمرها بأنّها هي المقصرة في التربية وتفسد عليه ما يرسّخه هو من تربية صالحة بدلالها الزائد لأبنائها. عانت أسرته الأمرّين بسبب تعامله هذا، هذا أبعد ما يكون عن التدين الحقيقي، فلم يكن خيراً لأهله.

- كنتُ أعلم بأمر طباعهِ القاسية لكن لم أتخيل أن الأمر يصل إلى هذا الحد، كلّنا نعرف العصبية في شخصية خالد، لكنّ كما كان يقول عامر إنّها عصبية مباركة طالما أنّها لنصرة الدين، لم نرَ الأمر من هذه

الزاوية التي تقصدها أنتَ أبداً.

- إليك قصّة عامر، ربّما تعرف بعضها، إنه ناشط على وسائل التواصل الاجتماعي، يملك صحيفة إلكترونية وإن لم يعرف أغلب الناس هويته، فكنتم أنتم من المقرّبين الذين يعرفون بأمر الصحيفة، لكن ما غاب عنكم هو عمله لصالح متنفذٍ فاسد. كان يتلقّى أموالاً من أجل بثّ أخبار كاذبة وشائعات لصالح ذلك الفاسد، تسببت أخباره الكاذبة والمضللة في كثير من الفتن والمشاكل في المجتمع. بعض شائعاته ما زالت تعتبر حقائق بين الناس.

كان هو ثاني شخص من مجموعتكم يسير في طريق الضلال بحثاً عن المال كحال جراح، يقود المال بعضهم إلى التخلي عن كل مبدأ وأخلاق كانوا يتمسّكون بها، يرمون كلّ شيء وراء ظهورهم فور عرض المال أمامهم، لهذا كان عذاب عامر أن يتّهم ببثّ شائعة كاذبة ترميه بين أنياب من كان يخدمه لقاء مالهِ القذر. كلّ أمر يفعله المرء يعود عليه بنفس التأثير الجيد أو السيئ. إن لم يكن في الحياة الدنيا فإن الموت قادم لا محالة، وها هو يواجه هذا المصير.

- لقد حسدناه جميعنا على نجاحه هذا، كان مثالاً للشخص المثابر المجد في عمله. كان يقول دائماً إنّ الأخبار تأتيه من مصادر في مختلف الجهات، فيتطوع المصدر لتسريب معلومات ينشرها هو لفضح أمور خافية على الناس. لم نعرف بأمر ارتباطه بالرجل الفاسد، وبأن الأخبار كلها ليست إلّا بتوجيهٍ منه. لو عرف المرء ما أعرف الآن لفقد آخر قطرة ثقة في أي شخص في هذه الحياة، أقصد الحياة الماضية، لكنني رغم هذا استغربت مما جرى لفراس، ألا يجب

أن يكون معنا الآن؟ أليس هو ناجياً مثلي؟ إنه الأقرب إليّ بين أصدقائي وقد رأيت كيف عانى في حياته الزوجية ووقع عليه ظلمٌ لم يُقدم على الانتقام منه. حتّى الرؤيا التي راودتني وأرتني ما جرى عليه لا تبدو منطقيةً إلى هذه اللحظة! كيف لشخص مثل فراس أن يتم الانتقام منه بإماتته بهذه الطريقة رغم أنه هو من يجدر به الانتقام؟ قصته الأخيرة تثبت كلامي.

هذا ما تظنّه يا أوس، ليس الأمر حقيقياً كما بدا لك، فراس شخص مراوغ، هو كاذب محترف، ممثل بارع، كل قصّة يحكيها لك تمر في مرحلة التنقيح والتعديل. إنه يُزيل حقائق ويضيف أخرى، يصوغُ القصة بالشكل الذي يظهرهُ بأفضل مظهر. طليقته هي المظلومة وليس هو، هو من رغب في الطلاق وليست هي، هو من آذاها وأساء معاملتها. كل قصة نقلَها إليك مع دمعة كاذبة لا تخلو من كذب وتدليس، هل تعجب من كون الكذب من أسوأ الذنوب؟ ألا ترى كيف كنتَ مخدوعاً بفراس أكثر من غيره من أصدقائك؟ الكذب والنفاق هما سمتا فراس اللتانِ أهلكتاه، نفس السمتين اللتين خدعتكم وحالت دون معرفتكم بحقيقته. البقية يُخفون عيوبهم بطبيعة الحال، لكن فراس يكذب وينافق ليقلب عيوبه إلى محاسن، يظلم ثم يُظهر نفسه بمظهر المظلوم، لا يكتفي بالسكوت، لا أحد يفضح نفسه لكن فراس يلصق عيوبه بالآخرين ويصنع لهم فضائح مزيّفة.

حتى الرسالة التي وصلت إليك عن مصيره - إن صح التعبير - كانت تبيّن ذلك بشكل غير مباشر، فهو يستمر في الكذب حتى في أحلك الظروف، والحقيقة التي كان يخفيها حتى عن صديقه حامد هي التي شكّلت له هذا النوع من العذاب. لقد رأيت أن حامد قد غدر

به بعد أن كان يساعده وخطبَ طليقته ثم نفذّا خطّتهما بمساعدة والدها لقتله، لكن الحقيقة أن فراس كان يفسد الأمر على حامد ولا يساعده.

حين كان حامد يلجأ إلى فراس، كان هذا يضلله بالنصائح ويجعله يتصرف بشكل مزيب أمام حنين، ذلك لأنه كان يستغّل حامد للتقرب منها، لقد طمع بها بعدما صارحه حامد بنيّته في خطبتها، فرزعَ الخوف في قلبه من رفضها ونصحهُ بالتدرج شيئاً فشيئاً للفوز بقلبها، وهو كان من ناحية أخرى يشوّه سمعة حامد بشكل غير مباشر عندما يجلس في قسم المحاسبة ويتحدث بأحاديث جانبية ثم يلمّح إلى فساد أخلاق حامد ومغامراته في خداع الفتيات. لقد صوّر لهنّ حامد على أنه غير جدير بالثقة وأنهن يجدر بهن الحذر منه وعدم إزالة جدار الرسمية خصوصاً إن حاول التقرّب من إحداهن، وبالفعل نجح في التقرب من حنين رغم أنّه لم يكن ينوي التقدم لخطبتها. فراس شيطان مخادع وليس ملاكاً بريئاً كما تظنّه يا أوس.

- كنت مستعدّاً أن أصدم بهم جميعاً إلّا فراس، صديقي المقرب المهذب، صاحب الخلق الحسن والشخصية الرائعة، هل يعقل أن يصدر منه كل هذا؟ هل كل الصفات الحسنة التي يمتلكها تمثيل وكذب؟ يا لَعجبي من هذه الدنيا! لو أنّ أحداً سألني البارحة عن شعوري تجاه موتنا الليلة كنتُ سأخشى على نفسي من الهلاك أكثر من البقية، خصوصاً فراس وخالد، لكنني اليوم الناجي الوحيد! هل هذا يعني أنهم هلكوا ومصيرهم إلى عذاب أبدي في جهنّم؟

لا يا أوس ليس بالضرورة، لا أملك هذه المعرفة، كل شخص

حسابه عند ربّه في يوم معلوم، لكن هذا أثر أعمالكم في هذه الحالة البرزخية، أستطيع طمأنتك أنت فأنا عملك الصالح ونجحث في إنقاذك، فأمرك إلى خير إن شاء الله، لكن لا أعلم شيئاً عن مصير أصدقائك، ربّما يجدون شيئاً من العذاب يطهّر خطاياهم ثم ينالون رحمة من الله، وربّما هلكوا بالفعل، لا أملك الحكم عليهم أبداً.

- بالطبع، كلنا نرجو الرحمة الإلهية، لكن ما كان ذنبي أنا الذي تشكّل لي على تلك الهيئة؟ هيئة الذئاب والوحوش في المرزعة؟

أنت يا أوس لم تنتبه إلى ذنبك الأكبر، لقد تشكّلت لك تلك الصور بسبب ذلك الذنب. السيارات الفارهة والأغنياء لم يكونوا هناك عبثاً، أنت تسأل عن الذئاب والوحوش ولم تسأل عن سر الأغنياء، وهذا هو الأهم، كنت مُبتلى بالحسد يا أوس، والحسد يزرع فيك سوء الظن في الناس، ألا تذكر كيف أنك تكره مَن منّ الله عليهم بنعمة المال والوجاهة بلا سبب واضح؟ لم تكن تفرّق بين غني فاسد وغني لم يكسب ماله من حرام ولم يحرم صاحب حق من حقّه. كنتَ تجمع الكلّ في صندوق واحد بفعل الحسد، تُسيء الظن بكل غني فقط لأنك تتمنى ما يملك هو. ليس هذا ذنباً بسيطاً يا أوس، كانت الذئاب هي الحسد، والوحوش هي سوء الظن، لقد تمكنتُ من إنقاذك بصعوبة، فلتحمدِ الله لأنك قوّيتني لمثل هذا اليوم.

- نعم إنني أرى كل شيء بوضوح الآن، لكن كيف قوّيتك بهذا الشكل؟ أنا لست من أصحاب الأعمال الصالحة بهذا القدر.

بل أنت كذلك لكنك لا تعرف قيمة أفعالك الخيّرة، أتعلم من أنا يا أوس؟ صحيح أنني أخبرتك إنني عملك الصالح، لكن قوتي كلها من

عمل معيّن أنقذكَ ورفع منزلتك. أنا قضاء حوائج الناس، لقد كنتَ لا تألو جهداً في تقديم المساعدة بكل أشكالها للمستضعفين من الناس، ربّما طبعك السيئ ذاك حيال الأثرياء قد خلقَ ردّة الفعل هذه بشكل غير مباشر. كنتَ تتعاطف مع الفقراء، تساعد كل من يحتاج مساعدة قبل أن يطلبها، ليس في تقديم الصدقة والمال فقط، بل كنت تسعى إلى قضاء أي حاجة يحتاجها شخص مضطر إليها. لم تكن تعرف مقدار عملك هذا، أنتَ في خير نتيجة فعلكَ هذا يا أوس؛ فهنيئاً لك.

أوس

انقضت ليلة كاملة ونحن في حديثنا هذا، لقد رأيت كل شيء على حقيقته الآن، اطمأنّ قلبي وسعدتُ بهذا المصير، فالموت ليس شيئاً محزناً في واقع الأمر، الحزن للأحياء فقط. سيحزن أهلنا علينا بالتأكيد، السعادة والحزن الآن مرتبطان بمصيرنا في النهاية. أنا سعيد ولم يعد يهمُني مصير أصدقائي، كل شخص يعتني بأمره فقط الآن.

الوقت كذلك مختلف، فقد مضى بسرعة عندما كنتُ أحادث عملي الصالح، هو بجانبي ولن يتركني كما وعدني في أي لحظة. بدأت أشعة الشمس بإنارة الصحراء في صباح اليوم التالي، ونحن على نفس الحال، إلى أن قدمت سيارة إلى المخيّم.. إنه أحد أقرباء خالد وعامر، هما الوحيدان بيننا اللذان تربطهما صلة قرابة، وعندما مرّ يوم كامل من دون ردّ أحدنا على أي اتصال أو رسالة.. بدأ القلق يساور أقرباءنا، فكان أهل خالد وعامر هم من تصرّفوا لأنهم حاولوا الاتصال بكليهما مراراً من دون جواب! وقريبهما هذا قد حضرَ إلى المخيّم - في الماضي - أكثر من مرة، فجاء في صباح اليوم ليتفقدنا بعد أن تيقّنوا تقريباً بحدوث مكروهٍ ما لنا.

رأيتُ نفسي أمشي وراءَ الرجل إلى الخيمة. فتحَ الخيوط المغلقة من الداخل بصعوبة بعد أن نادى علينا بصوت عالٍ ولم يحصل على جواب، فسياراتنا موجودة في المخيم. هنا انتبهتُ إلى شيء لم أنتبه إليه طوال الفترة السابقة.. أنا لم أحضر بسيارتي، كنت برفقة فراس في سيارته، كذلك جراح وعامر حضرا بسيارة واحدة، لماذا لم أتذكر

هذا في الصباح عندما استقلّ كل شخص سيارته وذهب لوحده؟ كنتُ سأنتبه إلى وجود شيء خاطئ في قصصهم لو كان عقلي واعياً لحظتها!

انقضت لحظات قليلة - حسبَ إحساسي بالوقت - حتى حضرت سيارات الإسعاف لتنقل أجسادنا إلى المستشفى لإعلان وفاتنا ثم دفننا. انتقلتُ بشكل لا إرادي إلى جانب جسدي عندما بدؤوا بنقلي، ركبت سيارة الإسعاف أنظر إلى جثّتي من دون جزع، ألتفت إلى يميني لأرى عملي الصالح يبتسم لي. قررتُ في هذه اللحظة (وبينما أنا في هذه الحالة قبل دفني ورحيلي الكامل عن التفاعل مع هذا العالم) أن أترك هذه القصة لمن يريد أن يعتبر. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ أنا لا أملك ورقة وقلماً ولا أستطيع الكتابة، سأحاول على كل حال. لكن إن كنتَ تقرأ هذه الكلمات الآن يجب أن تتأكد من شيء واحد:

في أي عالم أنت الآن بالضبط؟

النهاية

للتواصل مع الكاتب

انستاغرام: dashti_author

تيك توك: dashti_author

---

(1) الكنار: هي ثمرة شجرة السدر كما يطلق عليها باللهجة الكويتية.

(2) الفريج: كلمة كويتية تعني الحي أو الشارع الداخلي الذي تطل عليه البيوت.